الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبي

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة وهران–السانيا

كليـــة
الآداب واللغات والفنون

قســـــــم
اللغة العربية وآدابها

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي
ضمن مشروع أدب المقاومة الوطنية الجزائرية

أشكال التعبير الأدبي
في كتابات البشير الإبراهيمي

من إعـــداد الطالب:
عبد القادر معمر الدين

تحت إشراف الأستاذ:
د. عبد الملك مرتاض

السنة الجامعية 2010-2011

الإهـــداء

الإهداء

إلـــى والـديا الـكريميـــــن

إلـــى كـل أفـراد عائلتـــي

أهدي هذا العمـــل المتواضـــــع

شکر و تقدیر

شكر وتقدير

إقرارا بالحق و الفضل ، أتقدم بخالص الشكر ، وعظيم التقدير لأستاذي الفاضل الدكتور عبد الملك مرتاض لرعايته هذا البحث بملاحظاته الثمينة، و تصويباته القيمة.

فجزاه الله عني وعن العلم الذي حمل أماناته خير الجزاء .

مُقَدِّمة

مقـــــدمة:

منذ أن وطئت أقدام المحتل الفرنسي البغيض أرض الجزائر سنة 1830 م ، لم يتوقف أبناؤها البواسل عن مقاومته ، و رفضه ، ودفعه ، مسجلين أروع مواقــف البطولة و المجد ، و مؤكدين على استمرارية حيوية الأمة ، و بقائها عتيّة على الغزاة.

و تعتبر العقود الثلاثة الأولى من مستهل القرن العشرين منعرجا حاسما في تاريخ البلاد، و مرحلة متقدمة من النضج و الوعي، كان لها أثرها البارز في مختلف مجالات الحياة على العموم ، و الأدب على وجه الخصوص . فارتبط هذا الأخير بقضايا الوطن ، و الثورة ، و التحرير، ومثّل صورة مشرقة من صور المقاومة بالقلم.

و انطلاقا من هذا ، تجلّت لنا أهمية البحث في موضوع الأدب الجزائري المقاوماتي ، من خلال كتابات البشير الإبراهيمي . و لعلّ أن يكون اختيارنا لخطاب الإبراهيمي كأنموذج نقيم عليه هذه الدراسة ، مردّه إلى اطلاعنا المسبق عليه في آثاره و بخاصة " عيون البصائر" و هو أهم جزء فيها ، و ذلك لما يتضمنه هذا الجزء من نماذج أدبية راقية تثير الإعجاب و تدعو إلى الاحتذاء ، و كان الإبراهيمي جمعها بنفسه و أشرف على طبعها في حياته ، أواخر الحرب الكونية الثانية .

كما يرجع سبب اختيارنا لهذا الموضوع إلى التعرف على أحد الأقلام الثائرة التي كان لها أثرها البالغ و المباشر في تثقيف الشعب الجزائري و توجيهه و إعداده لساعة الصفر.

إنّ هذا الدافع القومي هو أوّل ما حفّزنا على استئثار هذا النوع من الأدب الثوري الملتزم في هذه الدراسة. بيد أننا ننبّه إلى ابتغائنا تحقيق الأهداف التالية :

1 ــ مشاركة الباحثين الجزائريين بدراسة الأدب العربي في الجزائر في ضوء المقاربات المنهجية الحديثة.

2 ــ إثبات أنّ الأدب العربي في الجزائر لا يقل أهمية عن نظيره في بلاد المشرق.

3 ــ الرغبة في خدمة التراث الأدبي العربي الجزائري و إيلائه مكانته الحقيقية التي يستحقها في ظل التمسّك بالقيم و التطلّع إلى النهوض.

و قد حظيت كتابات الإبراهيمي باهتمام كثير من الدارسين و الباحثين الذين عنوا بدراسة و تحليل جوانبها المختلفة ، و في هذا الصدد ، يمكن أن نعد جهود كل من الأستاذ الدكتور عبد الملك مرتاض في كتابه الموسوم بـــ " فنون النثر الأدبي في الجزائر" و الذي أسّس فيه ــ عن جدارة ــ للأدب الجزائري الحديث ، و نال فيه أدب الإبراهيمي حصة الأسد ، و كتابه الموسوم بـــ "نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1954/1925) ، تناول فيه الحديث عن وجود نهضة أدبية حقيقية بالجزائر على عهد ابن باديس و البشير الإبراهيمي الذين يشكلان محور هذه النهضة ، والأستاذ محمد عباس في كتابه " البشير الإبراهيمي أديبا " و هي دراسة نقدية تحليلية تعاملت مع الأثر الأدبي من خلال المنطلقات التاريخية و الفكرية ، و ما كتبه الطاهر فضلاء و غيره ، تصب كلها في هذا الاتجاه.

و ضمن هذا السياق جاءت دراستنا لتستثمر الجهود العلمية السابقة و تؤسس لموضوعنا " أشكال التعبير الأدبي في كتابات البشير الإبراهيمي " ضمن مشروع " المقاومة الوطنية الجزائرية " و هو موضوع يتناول الجانب الأدبي المقاوم عند الإبراهيمي و يحاول الكشف عن مستوى التعامل الفني مع التراث الأدبي العربي قديمه وحديثه على نحو يعكس مدى أصالة هذا الخطاب و انفتاحه على الآخر ، و ذلك باستخدام أدوات النقد الحديث. إنه اجتهاد طموح يمكن أن يضاف إلى سلسلة الدراسات التي بذلت في هذا المضمار.

و يبدو أنه قبل الحديث عن الخطة التي سار عليها البحث ، من توضيح للأشكال الأدبية التي تؤطره ، إننا اقتصرنا على تلك (الأشكال) التي يعتدها أدب المقاومة في إطار المشروع الذي تنتمي إليه هذه الدراسة ، و هي تحديدا : المقالة و الخطابة ، و كان علينا استبعاد ما ليس يرتبط منها بهذا المجال.

و عليه ، فقد سار هيكل البحث على النحو التالي : قسمنا الموضوع إلى ثلاثة فصول و خاتمة ، تناولنا في الفصل الأول تطور المقالة في الجزائر و جهود الإبراهيمي فيها ، و استعرضنا أهم القضايا التي عالجتها في أدبه ، خاصة منها ما تعلق بالأفكار الكبرى التي تتصل بالهويّة الوطنية و تأصيلها ، و مقارعة المستعمر

و فضح خططه و مشاريعه الهادفة إلى محو مميزات الجزائر الحضارية من دين و لغة وثقافة. ثم وقفنا عند أهم الخصائص الفنية التي طبعت المقال.

و في الفصل الثاني تعرضنا إلى الخطابة و عوامل ازدهارها على عهد الإبراهيمي ، و دور هذا الأخير في النهوض بها واستعمالها كأداة للتغيير الشامل للواقع القائم. كما عدّدنا أنواعها ، و بيّنا أهم الموضوعات التي عالجتها، و أبرز الخصائص الفنية التي ميّزتها.

أما الفصل الثالث و الأخير من البحث ، فكان مجاله تطبيقيا ، عرضنا فيه إلى أثر التناص في مقال الإبراهيمي ، معتقدين أنه (المقال) أفضل أنموذج لاستعاب آليات المفهوم و حركياته و وظائفه. حاولنا في البداية تسليط الضوء على مصطلح التناص و تعريفه كخطوة أولى ، ثم بحثنا عن جذوره في مصادر التراث العربي القديم، مرورا بالخلفيات الثقافية التي نشأ فيها المصطلح في النقد الغربي المعاصر ، من خلال أبرز المشتغلين عليه ، كما طرحنا موقف النقاد العرب من هذه الظاهرة ، و اعتنائهم بتطبيقاتها في الدراسات الأدبية، ثم خلصنا في منتهى المطاف إلى خاتمة جعلناها مفصلا لذكر أهم النتائج التي توصلنا إليها في البحث.

و أما المنهج الذي اعتمدناه في تحليل موضوعنا هذا ، و معالجة مباحثه ، فقد ارتأينا أن يكون منهجا قائما على الوصف و التحليل في تحديد الأبعاد الدلالية للظاهرة الأدبية ، و استخراج قيمها الفنية و المعنوية.

و من الصعوبات التي اعترضتنا في سبيل إنجاز هذا البحث ، ندرة المراجع المتصلة بموضوعنا ، و قلة الدراسات التطبيقية المتخصصة في هذا المجال ، مما جعلنا نبذل جهودا معتبرة في ثنايا الكتب بحثا عن المادة العلمية ، فضلا عن صعوبة توزيعها و تنظيمها و فق مستلزمات المنهج العلمي و مقتضياته.

و آخرا ، لا يسعنا في هذا المقام إلا أن نزدجي خالص الشكر و العرفان و الجميل إلى أستاذنا الفاضل ، الأستاذ الدكتور عبد الملك مرتاض ، على ما بذله من جهد كبير في متابعة هذا البحث و تقويمه ، و ما أسداه إلينا من توجيهات علمية قيّمة ، كان لها أثر بالغ و ملموس كي يخرج هذا البحث على النحو الذي هو عليه.

كما نتوجه بالشكر الجزيل إلى كل الذين أسهموا معنا في إنجاز هذه الدراسة و بسطوا لنا يد العون و المساعدة من قريب أو بعيد. و الله من وراء القصد ، و هو ولي التوفيق .

عين تموشنت في: 2010/11/17

الفصل الأول

الفصـــــل الأول

المقالـــــــة

أولا : المقالة الدينية

1- الدفاع عن الإسلام

2- إحياء اللغة العربية

3- النزعة الوطنية

- الطرقية

- التبشير

ثانيا : المقالة الاجتماعية

1- التربية والتعليم

2- قضايا أخرى

ثالثا : المقالة السياسية

1- حوادث 8 ماي 1945

2- السياسة و السياسيون

3- التجنيس و الاندماج

4- الديمقراطية

رابعا : الخصائص الفنية للمقالة عند الإبراهيمي

1- السخرية

2- النزعة التعليمية

3- قسوة الخطاب و حدته

4- أسلوب المقارنة

5- الاقتباس و التضمين

المقالة:

ظهرت المقالة الأدبية في الجزائر في مطلع القرن العشرين، بفضل انتشار الصحف الوطنية المتألقة التي توسلها الكتاب و المثقفون للتعبير عن أهم القضايا الدينية و الاجتماعية و السياسية التي شغلت الشعب الجزائري إبان فترة الاحتلال الفرنسي.

و لعل ازدهار المقالة الأدبية يعزى بالدرجة الأولى إلى الصحافة الإصلاحية التي احتضنت هذا الفن و أسهمت في تطوره على أيدي رجال مفكرين و كتاب بارعين يعد بعضهم في "طليعة كتاب العربية في العصر الحديث، وفي الرعيل الأول من شيوخها المبرزين، كالشيخ محمد البشير الإبراهيمي الذي ملأ الجزائر بمقالاته ذات الأسلوب الأنيق"[1] ، فهي تحتل مساحة واسعة من كتاباته الأدبية، و تعكس شخصيته الفنية التي "لا تظهر للدارس كاملة الوضوح بنزعاتها و مواقفها، وبتحركاتها و سكناتها إلا في أدبه المقالي"[2] الذي عالج من خلاله قضايا دينية و اجتماعية و سياسية، سنتطرق إليها فيما يأتي:

أولا: المقالة الدينية:

تتأسس المقالة الدينية في أدب الإبراهيمي على تصور إصلاحي شامل للمجتمع الجزائري الذي تعرض – بعد مائة سنة من الفقر و التجهيل و الغفلة عن الحق – إلى طمس يكاد يكون كليا لولا أن تداركته العناية الإلهية التي هيأت له رجالا أفذاذا أخذوا على عواتقهم همّ النهوض بهذه الأمة و تطهير عقيدتها من البدع و الخرافات التي روج لها أدعياء التصوف المنحرفون، و من الأغاليط و الأكاذيب التي دعا إليها المبشرون المسيحيون الماكرون بمباركة واسعة من إدارة الاحتلال الفرنسي.

وليس غريبا أن يدرك الإبراهيمي هذا المعنى في نفسه فيقول: " فأزعم أنني جرّبت و درست، و أنني قرأت هذه الأمّة و فهمتها كما أقرأ الكتاب و أفهمه، و ما هذا ببعيد و كثير على من خدم أمّة و لابسها عشرات السنين معلمًا و مدرسًا

[1] - عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر(1954/1931)، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1983 ، ص 88 .
[2] - محمد عباس ، البشير أديبا ، ديوان المطبوعات الجامعية ، المطبعة الجهوية بوهران ، ص 136 .

واعظًا خطيبًا ... و قد خرجت من هذه الدراسة الطويلة بنتائج جليلة بجب أن تدوّن و أن تكون دستورا للعالمين.»[1]

و يجدر بنا في هذا المقام أن نوضح أن فلسفة الإبراهيمي في ميدان الإصلاح والتجديد تقوم على:

أولا: العودة إلى منابع الإسلام الأولى، كتاب الله و سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فلن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

ثانيا: ربط « الأعمال بالأقوال و تطبيق المبادئ الدينية في مجالات الحياة.»[2]

ثالثا: الاعتماد على أسلوب الهدم و البناء، فمن المعروف أن «بعض الهدم بناء في حد ذاته، فهدم الشر بناء، و هدم الفساد بناء، و هدم الرذيلة بناء، و هدم الخرافات والبدع بناء، و هدم الاستعمار و كسر شوكته بناء.»[3]

رابعا: الاهتمام بإصلاح العقيدة و المؤسسات الإسلامية، و هنا نلفي الإبراهيمي يتفق مع "محمد عبده" في أن أهم وسيلة لإصلاح العقيدة هي تفسير القرآن الكريم. فقد «فسر في الجزائر سورة العصر.»[4] و كان الإبراهيمي يلقي دروس التفسير بعد الغروب في تلمسان، و درس الموطأ بعد صلاة الفجر.[5]

خامسا: الالتزام بخط جمعية العلماء المسلمين الجزائريين القائم على مرتكزات حضارية ثلاثة، جعل منها الإبراهيمي أهداف نضاله و هي:

1: الدفاع عن الإسلام:

إن الإيمان بأن لا اله إلا الله هو وحده كفيل بزوال كل ألوان التسلط و أشكال العبودية لغير الله، « إن هذا النوع من التحرير لا يقوم به و لا يقوى عليه، إلا

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي – عيون البصائر- دار الغرب الإسلامي ، ط.1 ، بيروت 1997 ، ج.3 ، ص 209 و 210 .

[2] - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، م . س ، ص 63 .

[3] - محمد مهداوي، البشير الإبراهيمي، نضاله و أدبه ، دار الفكر بدمشق ، ط.1 سوريا 1988 ، ص 117 .

[4] - أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، دار الكتاب العربي، بيروت ، بدون تاريخ . ص 329.

[5] - ينظر: عبد الملك مرتاض ، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر (1954/1925)، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ط. 2 ، الجزائر 1983، ص 54 .

العلماء الربانيون المصلحون، فهو أثر طبيعي للإصلاح الدّيني الذي اضطلعت بحمله جمعية العلماء.»[1]

فواجب أمة لا إله إلا الله، « أن تشرف و تعتز و يكون واجب هذا الواجب فيها ألا تسقط و لا تخضع و لا تذل.»[2]

2 : إحياء اللغة العربية:

أدرك الإبراهيمي أهمية اللغة العربية في الجزائر، فهي « لغة الإسلام الرسمية، و من ثم فهي لغة المسلمين الدينية الرسمية...»[3] و للإبراهيمي فصول طوال في البصائر الثانية تسع القارئ، فقد سجل فيها مقاومة باسلة في خدمة اللغة العربية لأنها تاريخ شعب و ذاته، و سر عزّته، و ضمان وجوده.

3 : النزعة الوطنية:

عاش الإبراهيمي لوطنه، و من أجل وطنه، لأنه عاصر المحتل الفرنسي وآلمه ما أصاب وطنه، فالوطنية عاطفة غريزية، و فطرة بشرية لا يناقش فيها أحد، لقد وجه الإبراهيمي نداءا إلى الطلبة المهاجرين في المشرق العربي في مقال له بعنوان « إلى أبنائي الطلبة المهاجرين في سبيل العلم » .جاء فيه :« لا يعذنكم في حب وطنكم إلا ظالم، و لا يصرفكم عن إتقان وسائل النفع له إلا أظلم منه، أنتم اليوم جنود العلم فاستعدوا لتكونوا غدا جنود العمل.»[4]

و قد كان هذا المنهج الذي اتبعه الإبراهيمي يقوم على آليات تبليغية في تنفيذ مشروعه الإصلاحي ضمن مبادئ الجمعية، و تتمثل هذه الآليات في اعتماد أشكال أدبية برع فيها الإبراهيمي في جريدة البصائر الثانية خصوصا، و هي موزعة بين المقالة و الخطابة و المحاضرة و غيرها ، عكست كلها بصدق نضال الكلمة في زمن عصيب.

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار – عيون البصائر – م . س ، ص 56 .
[2] - مصطفى صادق الرافعي، وحي القلم ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج . 3 ، ص 36 .
[3] - محمد البشير الإبراهيمي، م. ن ، ص 48 .
[4] - م . ن ، ص 204 .

ومن هنا انبرى الإبراهيمي للدفاع عن حصون الدين من الطرقية المنحرفة و التبشير المسيحي المخادع، حيث وجدا سندا لهما في كنف الاستعمار و جهل العوام.

- **الطرقية***:

لا يخفى على أي دارس للظاهرة الصوفية في الجزائر، و خصوصا إبّان الاحتلال، أن الفراغ الثقافي الكبير و الظروف الاجتماعية و الاقتصادية القاهرة، بالإضافة إلى « السلسلة الطويلة من الإخفاقات المتعاقبة في الجزائر، أخصبت الحركة الزهدية و أدت إلى ازدهار الاتجاه الصوفي الذي ران على عقول الناس و قلوبهم، فانعكست آثار ذلك على أفعالهم و سلوكهم في المجتمع.»[1]

و لعل تعلق الناس آنذاك بهذه الظاهرة يعبر عن حاجتهم إلى التوازن السيكولوجي و الاجتماعي و الثقافي في ظل إفرازات الاحتلال و انعكاساته السلبية.

إن انتشار التصوف واحتضانه من طرف عامة الناس حوّله من « إطاره الفلسفي الفكري ليغدو طقوسا تبسط المعتقد و تنزل بالدّين إلى مستوى الحاجيات المباشرة لهذه الفئات.»[2]

كما أسهمت هجرة العلماء إلى المشرق في التفاف الشعب حول أفراد لا حظّ لهم من العلم، فربط مصيره بمصيرهم، و قد ساعد على « هذا الإنحدار العام نحو هذا الإتجاه المنحرف الذي انتهت إليه الطرقية في الجزائر، كثرة انتشار الجهل و الأمية بين الناس، بعد أن قضت الحروب الكثيرة التي وقعت في الجزائر بعد الاحتلال بين الجزائريين و الفرنسيين على زهرة العلماء المتنورين، و على معاهد العلم و مراكز الثقافة.»[3] فابتلي الشعب بالإضافة إلى هذا الاحتلال البغيض، بالطرق الصوفية المنحرفة التي « استهلكتها الأيام، و غرقت في دوامة من الصوفية الجوفاء، القعيدة

---

* ننبه القارئ هنا إلى أن مصطلح الطرق لا يستقيم لغة لأن المعنى السياقي ينصرف إلى الطريقة ، و جمع طريقة هو طرائق لا طرق ، لكننا سنبقي الاستعمال الأول لأنه المتداول و الشائع. ينظر: ابن منظور، لسان العرب. دار الإحياء العربي، ط.1، بيروت 1988 ، ص 154 و 155، مادة طرق.

[1] - عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر، م . س، ص 36 .

[2] - لطيفة الأخضر، الإسلام الطرقي – دراسة في موقعه من المجتمع و من القضية الوطنية – دار سراس ، تونس 1993 ، ص 5 .

[3] - رابح تركي، الشيخ عبد الحميد بن باديس - رائد الإصلاح و التربية في الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب، ط.4 ، الجزائر 1984، ص 99.

العاجزة عن أي دور فكري إيجابي، بل لم يعد من رسالتها إلا أن تتحكم في عقول الناس بشعوذة دخيلة على الإسلام، أصيلة في خدمة المستعمر، بتسخير رقاب البسطاء له.»[1]

لقد فُتنت العامة بالطرقية الصوفية و رجالها إلى درجة الجنون الذي يتم فيه تجميد العقل و تعطيل قواعد المنطق فيه. فأعرض الناس عن العلماء المصلحين المتنورين و تقربوا من أدعياء شيوخ الطرق و الدراويش ، الذين روجوا لفكرة «اعتنقها العامة و آمنت بها و أذعنت لها ، و محتواها أن من لا شيخ له، فشيخه الشيطان.»[2]

في ضوء هذا المناخ الثقافي العقيم، نذر الإبراهيمي قلمه و لسانه لمحاربة هذه الآفة العقيدية مما فتح جبهة جديدة في صراع جمعية العلماء ضد الباطل بمختلف أنواعه و أشكاله.

و يعتبر الإبراهيمي أن « أعظم مصيبة أصابت المسلمين – هي جفاؤهم للقرآن الكريم و حرمانهم من هديه و آدابه– منشؤها من الطرق.»[3] ذلك أنها حالت بين النـــاس و بين العقيـــدة الصحيحة القائمة على مبدأ التوحيد. فانقلبت الموازين و صار الطرقي هو الإمام الحق، و العالم الفذ، و مرجع الناس الأوحد في صدورهم و ورودهم، في حين نجد أن العلماء الذين نهلوا العلم من منابعه الصافية، أمثال علماء الجمعية ، قد عدوا في نظر العـــوام، بتوجيه من الطرقية، مارقين عن الدين و مبتدعين. و في هذا الصدد يقول الإبراهيمي:« و من مكرها الكبار أن تعمد إلى العلماء و هم ألسنة الإسلام المنافحة عنه فترميها بالشلل و الخرس و تصرفها في غير ما خلقت له.»[4]

إن دعاة الطرقية كان لهم أثر سيء على عقول الناس التي خدّروها بالخرافات و الأوهام و على النفوس التي أشبعوها بأفكار الشرك و التواكل و تقديس الأولياء

---

[1] - صالح خرفي ، المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر 1983، ص 56 .
[2] - عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر، م . س ، ص39 .
[3] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م .س ، ج .1 ، ص 170 .
[4] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

الذين نسبت إليهم كرامات* و خوارق تفوق بكثير معجزات الأنبياء، بهتانا و زورا، فأصبح الناس يختلفون إليهم في ابتهالاتهم و تضرعاتهم حتى " ليعتقد المرء حقا بأن عبادة الآلهة القديمة عادت في نفس الأمكنة و بنفس العادات – البخور و النذور و الولائم التي حلت محل القرابين– مع اختلاف الظروف."[1]

إن أولى خطوات الإصلاح عند الإبراهيمي هي تصحيح الإعتقاد من الفهم الخاطئ للدين، و ذلك بتحرير العقول التي تحجرت حتى تستنير، و بإيقاظ النفوس التي فسدت حتى تصحو من قبضة الفكر الطرقي و تسلطه على رقاب المسلمين، يقول الإبراهيمي في هذا المقام منوها بعمل جمعيته في توجيه الأمة: " وأوّل يد بيضاء لها في هذا الباب تحرير العقول من الأوهام والضلالات في الدين والدنيا، و تحرير النفوس من تأليه الأهواء و الرجال؛ و إن تحرير العقول لأساس لتحرير الأبدان، و أصل له، و محال أن يتحرر بدن، يحمل عقلا عبدا."[2]

لقد لاحظ الإبراهيمي الإنحراف الخطير الذي آلت إليه الأمّة في عقيدتها، حينما ألغت العقل و أضربت عن الفكر و أضحت لا ترى و لا تسمع و لا تفكر إلا بعيون الآخرين و آذانهم و عقولهم، في طاعة عمياء و تسليم كامل و عبودية لغير الله. لذلك أولى الإبراهيمي للعقيدة أهمية كبرى، فعمل على تنقيتها من مظاهر الشرك و تصفيتها من شوائب الضلالات و البدع حتى يعيد لمبدأ التوحيد في الأمّة صفاءه و سلامته، و يصحح رؤية الإنسان الجزائري لعلاقته بالله.

إن تشديد الإبراهيمي و إخوانه من جمعية العلماء على مسألة التوحيد و جعلها قضية القضايا في الإصلاح التربوي و الاجتماعي، مرجعه إلى وعيهم التام بخطورة هذه المسألة التي تبنى عليها منظومة التصور الإسلامي للكون و الحياة الإنسانية. فأيـــما خدشٍ يطال هذا المبدأ إلا و يؤدي إلى فساد سلوك الأفراد و المجتمعات، فيعيدها إلى الجاهلية أي مرحلة الشرك بالله، و الذي عدّه المولى تبارك و تعالى ظلما

* الكرامة: هي دون المعجزة كتكثير القليل و الحديث عن بعض المستقبل و أمثاله. ينظر : عبد الرحمان بن خلدون ، المقدمة – ضبط و شرح و تقديم محمد الإسكندري – دار الكتاب العربي ، بيروت 2004 ، ص 98

[1] - أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985 ، ص 85.

[2] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار – عيون البصائر – م . س ، ص 56

عظيما و جرما كبيرا لا يغفر*. و هو ما لمسه الإبراهيمي في واقع المجتمع الجزائري من انحراف عن مسار العقيدة الإسلامية و التشبث بعادات و تقاليد و أنماط سلوكية بعيدة كل البعد عن مبادئ الدّين الإسلامي، رسختها الطرق الصوفية المنحرفة في أذهان الناس. و لعل من هذه العادات التي انتشرت بقوة في أوساط المجتمع آنذاك، ظواهر عبادة الأضرحة و تقديس أشياخ الطريقة، و في هذا السياق يقول الإبراهيمي:"يجري كل هذا و الأشياخ يقدس ميتهم و تشاد عليه القباب، و تساق إليه النذور ويتمرغ بأعتابه، و يكتحل بترابه، و يلتمس منه الحاجات و تفيض عند قبره التوسلات والتضرعات، و يكون قبره فتنة بعد الممات كما كان شخصه فتنة في الحياة، ثم تتوالد الفتن فيكون اسمه فتنة و أولاده فتنة، و داره فتنة و إذا هو مجموع فتون."[1]

لقد بسطت الطرقية المنحرفة سيطرتها على المجتمع الجزائري، و قادته نحو حياة الخضوع و الزهد و التواكل، و إلى الإستسلام للمحتل الفرنسي فهو في اعتقادها قضاء و قدر يجب الإيمان به و الصبـــر على بلائه، و أن محاربته هي محاربة لقضاء الله، و ما يحدث من اضطهاد و قهر و قمع للمسلمين هو لغاية و مصلحة لا يعلمها إلا الله، فلا حاجة إذن للثورة و العصيان.

و كان معقولا جدا أن تفقد الطرقية المنحرفة في الجزائر شرعيتها أمام العامة، لأنها كانت تحمل بذور فنائها في أحشائها، فإلى جانب ضحالة ثقافة أشياخها و " إحداث بدعة في الدين لم يعرفها السلف"[2] ، تورطت تورطا مفضوحا في تعاونها مع الاحتلال الفرنسي ضد مصالح وطنها العليا، و في هذا الموقف يقول الإبراهيمي: "و أنهم مطايا الاستعمار الذّلل و أيديه الباطشة، بل القنطرة التي هونت عليه العبور."[3] لقد استعملت فرنسا الطرقية المنحرفة لتشديد قبضتها على الأمّة، و التشويش على

---

* قال تعالى:" إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء و من يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا." سورة النساء ، آية 115.

[1] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، م .س ، ج .1، ص 172 .

[2] - أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، م . س ، ص 94 .

[3] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار ، م . ن ، ص 297

دينها لأنها كانت تخشى أن يفهم الشعب الجزائري جوهر دينه الإسلامي، لأنه يحول دون تحقيق مطامعها الاستعمارية، و ديمومة وجودها على أرض الجزائر.

لم تشكل الطرقية المنحرفة عائقا كبيرا أمام حركة الإصلاح إلا في بداية نشأتها، فألّبت عليها العامة، و جنّدت ضدّها الأشياع و الأتباع، مستغلة مساعدة الإدارة الفرنسية لها. و بدأ الصراع الحقيقي بينها و بين علماء الجمعية الذين وقفوا لتلك «الهجمة وقفة حازمة أنقذت الجمعية من السقوط و محصتها من كل مذبذب الرأي مضطرب المبدأ.»[1] و كانت الطرقية العليوية هدفا مفضلا لعلماء الإصلاح في هذا الصراع الذي طال واحتدم خصوصا بعد الاعتداء* على شخصية ابن باديس. فقد حاولت هذه الطرقية عبثا أن توقف زحف جنود الإصلاح و التغيير بكل ما تملك من قوّة و سلطان على الناس، خوفا على مصالحها أن تزول عندما يستفيق الشعب من نومه و يستيقظ من غيبوبته.

فلم يقتصر العليويون على « ذلك الهجوم الذي كان أوله كيدا و آخره فضيحة، بل أجمعوا أمرهم و شركاءهم و قرروا في اجتماع تولى كبره رئيسهم الأكبر أحمد بن عليوة** محاربة جمعية العلماء بكل وسيلة و بكل قوة. »[2]

قاوم الإبراهيمي هذا الهجوم العنيف بإيمان عميق و علم غزير و حكمة بالغة و عزيمة قوية لاجتثاث هذه الطرق و هدم معاقلها باعتبارها شرًا ووبالاً على الأمّة الجزائرية و حجر عثرة في وجه بوادر النهضة الوطنية. يقول الإبراهيمي في هذا المعنى: « و نعلم أننا حين نقاومها نقاوم كل شرّ و أننا حين نقضي عليها–إن شاء الله– نقضي على كل باطل و منكر و ضلال، و نعلم زيادة على ذلك أنه لا يتم في الأمّة الجزائرية إصلاح في أي فرع من فروع الحياة مع وجود هذه الطريقة المشؤومة،

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج. 1 . م . س ، ص 188 .

2 – المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

* تعرض الشيخ عبد الحميد بن باديس إلى حادثة اعتداء من طرف أحد غلاة الطريقة العليوية بتاريخ : 14 ديسمبر 1926 ، في طريقه بعد خروجه من درس القرآن الكريم بقسنطينة ، ينظر: أحمد حماني، الصراع بين السنة و البدعة، دار البعث للطباعة و النشر ، ط.1، قسنطينة 1984 ، ص 316 .

** هو أحمد بن عليوة، شيخ الطريقة العلوية، ولد بمدينة مستغانم سنة 1291هـ، سليل عائلة شهيرة، و كان محل تقدير من أتباعه، توفي سنة 1353هـ، و دفن بزاوية العامرة، ينظر: م.ن، ص 161 و 163 .

و مع مالها من سلطان على الأرواح و الأبدان، و مع ما فيها من فساد للعقول و قتل للمواهب»[1].

استطاع الإبراهيمي مع رفـــاق له في الجمعية تحريـــر الأمة الجزائرية و تخليصها من قبضة الطرقية و سيطرتها على العقل و الضمير، و إراحتها من « أصنام كانت تتعبدها باسم الدين أو باسم السياسة.»[2]

و من جهة أخرى، يميز الإبراهيمي بين علماء التصوف القدماء و الطرقيين على عهده، فالمتصوّفة السنيّون الأقدمون كانوا يتمتعون بقسط وافر من العلم و درجة عالية من التقوى و غيرة كبيرة على الدّين و الوطن. و في هذا يقول: « و نحن نعلم من طريق التاريخ لا من طريق الشهرة العامة أن بعض أصحاب هذه الأسماء الدائرة في عالم التصوف و الطرق كانوا على استقامة شرعية و عمل بالسنة و وقوف عند حدود الله.»[3]

عرفت الجزائر الطرق الصوفية منذ القديم، و كان أعلامها متبحرين في العلم، متمسكين بالمذهب السني المالكي الذي وحّد المجتمع الجزائري، و منع دخول التصوف النظري الذي كان يمثله الحلاج* و ابن عربي.**

لقد كان للزوايا دور إيجابي إذ مثلت « قلاعا تحمي العقيدة و تنزهها من التشويش، و كتاتيب تحفظ العربية و تعمل على نشرها. و معسكرات تنطلق منها الانتفاضات ضد الاستعمار.»[4] لم تكن الطرق الصوفية الأصيلة لتقبل بالمحتل ولا لتهادنه ، بل ناصبته العداء و شنت عليه حربا لا هوادة فيها، فإن المتتبع – حسب الدكتور عبد الملك مرتاض– للثورات العسكرية التي شنت على الاستعمار الفرنسي

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج .1 ، ص 190 .

[2] - م . ن ، ج . 3 ، ص 56 .

[3] - م.ن ، ج . 1 ، ص 174 و 175 .

[4]- أسعد السحمراني، الإستبداد و الإستعمار و طرق مواجهتهما عند الكواكبي و الإبراهيمي، دار النفائس، ط . 1، بيروت 1984 ، ص 104 .

* الحلاج : هو تلميذ الجنيد، من معاصري الفارابي، توفي سنة 922 م ، و هو صاحب الجملة المشهورة " أنا الحق " التي لاقى من أجلها حتفه. ينظر: إبراهيم مدكور ، في الفلسفة الإسلامية – منهج و تطبيقه – دار المعارف، ط . 3، القاهرة ، بدون تاريخ ، ج . 1 ، ص40 .

** ولد ابن عربي بالأندلس سنة 560 هـ ، مزج بين الصوفية و الفلسفة و دعا إلى مذهب "وحدة الوجود" ، اتهم بالزندقة و الكفر والإلحاد، له كتب كثيرة أشهرها "فصوص الحكم" ، توفي بدمشق سنة 638 هـ . ينظر: ابن عربي محي الدين، تفسير القرآن الكريم – تح : مصطفى غالب – دار الأندلس للطباعة و النشر، ط . 3 ، بيروت 1981، ص 1 .

في الجزائر، خلال القرن الماضي، يجد « وراءها شيوخا للطرق الصوفية في معظم الأحوال.»[1] و لعله يعني ثوراث كل من الأمير عبد القادر و الشيخ الحداد و المقراني و بوعمامة و غيرهم.

و إذا كان الإبراهيمي قد حارب الطرقية لانحرافها عن العقيدة الإسلامية و تأثيرها السيئ في عقول الناس ، فإن عزيمته لم تفتر تجاه محاربة ظاهرة أخرى لا تقل خطرا هي قضية التبشير.

[1] - عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر ، م . س ، ص 37 .

- التبشيـــر:

مهما تكن المبررات الرسمية التي تذرعت بها فرنسا لاحتلال الجزائر، فلا يمكن أبدا أن تغطي الدوافع الحقيقية التي كانت وراء تلك الحملة الصليبية الحاقدة على الإسلام و المسلمين، لتفتك بمنظومة القيم التي كان يتمتع بها الشعب الجزائري، و تتخذ من المبشرين مطية لتحقيق أهدافها الاستعمارية غير المعلنة. يقول الإبراهيمي عارضا موقف جمعية العلماء من التبشير:« التبشير بشكله الحاضر نتيجة من نتائج التعصب المسيحي المسلح، و مولود من مواليد القوة الطاغية... و أداة من أدوات السياسة في ثوب ديني و شكل كهنوتي، دفعته أولا ليكون رائدها في الفتح و قائدها إلى الاستعمار.»[1]

إن اعتماد المحتل على المسيحية دينا بديلا عن الإسلام هو منهج لجأ إليه المستعمر لأنه « خير من محاربة قيم سائدة في المجتمع قد زرعها الإسلام، و كانت ركيزة وحدته وتحضره، و مواجهة مجتمع متدين يكون أجدى بسلاح ديني.»[2] فلا غرابة إذن أن يتخذ من المبشرين دعاة للمسيحية، ينشرون تعاليمها بكل الوسائل المتاحة حتى يفسدوا على المسلمين عقيدتهم و اضطرارهم لتركها، واعتناق النصرانية لا حبا فيهم ولا رجاء نفعهم، و إنما لتمكين الاحتلال و ضمان وجوده وديمومته. فالمبشر هو « واحدٌ من رجالات الاستعمار ألبس ثوب راهب، يستغل هذا الثوب للفتنة و الإيقاع و التضليل، فلا المسيحية واحدة من اهتماماته و لا هو عالم بجوهر الإسلام ليعاديه من قناعات ثابتة.»[3] و أدرك الإبراهيمي أن التبشير ما هو في الحقيقة إلا قناع لمستعمر حقود، يظهر وجه التسامح و المحبّة و الخير للناس، و يضمر في باطنه الشر و العداوة و الإنتقام. إنه مظهر من مظاهر خبث المحتل و مكره، طبَعَ سلوكه من أول يوم وطئت قدماه أرض الجزائر. يقول الإبراهيمي في هذا السياق: « حاشا لدين المسيح

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، م . س ، ج . 1، ص 196 .
[2] - أسعد السحمراني، الاستبداد و الاستعمار و طرق مواجهتهما عند الكواكبي و الإبراهيمي، م . س ، ص111.
[3] - محمد البشير الإبراهيمي ، م . ن ، ص109.

عليه السلام و كلمته التي ألقاها إلى مريم أن يكون هذا طريقه إلى النفوس، و هذه طريقته في الإنتشار. إن المسيح كان عدوا للظلم و الباطل. و إن الاستعمار أقبح باطل و أشنع ظلم على وجه الأرض، فهل يعد من أتباع المسيح وورثة هديه من ينصر الاستعمار؟»[1]، فلم تكن إذن ممارسات الاحتلال من تعاليم المسيحية في شيء، فقد اعتدى المحتل على المساجد لتهديمها أو تحويلها إلى كنائس* أو إلى ثكنات، و مصادرة أملاك الوقف الإسلامي، ناهيك عن نهبه للثروات واستعباد الناس واستمالتهم إلى ترك دينهم واعتناق مسيحية بمفاهيم رومانية لاتينية تهدف إلى « إعادة احتلال تجاوزه الزمن وتحرر منه العرب و المسلمون و غالبية العالم بفضل الإسلام واعتناقه وانتشاره.»[2]

مارس المحتل الإكراه في الدين حينما اعتدى على المقدسات الإسلامية كلها، و استعمل أسلوب الترهيب و الترغيب لإخراج الجزائريين من دينهم، و إحلال المسيحية محل الإسلام. يقول الإبراهيمي في سياق حديثه عن فصل الدين عن الحكومة** :«جاء الاستعمار الدنس الجزائر يحمل: السيف و الصليب ذلك للتمكن و هذا للتمكين، فملك الأرض و استعبد الرقاب وفرض الجزَى، وسخر العقول والأبدان، و لو وقف عند حدود الدنيويات لقلنا: تلك هي طبيعة الاستعمار الجائع تدفعه الشهوات إلى اللذات... و لكنه كان استعمارا دينيا مسيحيا عاريا؛ وقف للإسلام بالمرصاد من أول يوم.» [3]

أيقن المستعمر ألا سلطان له على ضمير الأمة الجزائرية إذا اقتصر الاحتلال على قوة السلاح المادي فقط. فقد علمته التجربة التاريخية إبان الحروب الصليبية، أن إنزال الهزيمة المادية بالمسلمين غير ممكنة إذا لم يعضضها بالهزيمة المعنوية، و لا سبيل إلى ذلك إلا بغزو قلوبهم و نفوسهم، بتجريدهم من الإسلام و إلباسهم لباس المسيحية.

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م.س .ج .3 ، ص97 .

[2] - أسعد السمحراني، الاستبداد و الاستعمار و طرق مواجهتهما عند الكواكبي و الإبراهيمي، م.س، ص 108 .

[3] - محمد البشير الإبراهيمي، م . ن ، ص80.

* مثل مسجد "كتشاوة" الذي حوّل إلى كاتدرائية "سيدة الجزائر" في 18 ديسمبر سنة 1832، وذلك بعد أن قضى الجنود الفرنسيون على حوالي أربعة آلاف جزائري كانوا يعتصمون بداخله لمنع الاحتلال من تحويله. ينظر أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، م . س ، ص49.

** كتب الإبراهيمي نحو عشرين مقالة في البصائر الثانية حول موضوع فصل الدين عن الحكومة.

إن استعمار النفوس و القضاء على مصادر القوة فيها هو السبيل الذي سار عليه المحتل و خطط له بدقة، إذ يقول الإبراهيمي إن " الاستعمار جاء إلى هذا الوطن بثلاثة أشياء ليمحو بها ثلاثة أشياء: جاء باللاتينية ليغمر بها العروبة، و جاء باللغة الفرنسية ليقضي بها على اللغة العربية، و جاء بالمسيحية لينسخ بها الإسلام".[1]

وفقا لهذا المخطط الاستعماري البغيض، عمد المحتل إلى تدمير المرجعية الثقافية و الحضارية للأمّة الجزائرية، حتى تفقد مقومات وجودها ، و يتمهد له السبيل لبسط سلطانه ، لذلك راح يتستر بالمسيحية لتمرير جرائمه الوحشية في حق هذا الشعب، تارة بشعار التبشير و تارة أخرى باسم التحضر الإنساني و نشر الثقافة والعلم بين الشعوب المستضعفة و المتخلفة و كأنّها قاصرة تحتاج إلى وصايته و حمايته و رعايته حتى تبلغ سن الرشد، في حين أن "المهمة التمدينية* التي تدعيها غالبا فرنسا، لم تكن تؤلف في الواقع إلا مظهرا ثانويا من نشاطها".[2] و يفضح الإبراهيمي التناقض الصارخ بين ما تدعيه فرنسا لنفسها من حرية و إنسانية و بين الواقع الذي تؤكده أفعالها وممارساتها اليومية مع الشعوب المستعمرة، يقول في هذا الشأن :" سلمنا أن فرنسا دولة مستعمرة من الطراز الاستعماري اللاتيني الأزرق، وأنها تمتاز بادعاء أنها ممدنة العالم ومعلمته وناشرة لواء الحرية فيه... ولكن ما بالها خالفت العالم الاستعماري كله، وخرقت إجماعه، وشذّت عن قاعدته، فهو يسالم الأديان حتى الباطل منها و غير المعقول، و يترك أهلها أحرارا في شعائرهم ومعابدهم، ويوليها شيئا من الرعاية و الإحترام ... أما هي فتضايق الإسلام في الجزائر وتحتكر معابده و شعائره، و تمتهن رجاله، و تبتلع أوقافه."[3]

تتميز الحضارة بطابعها الإنساني، فليس من معانيها تهديد أمن المجتمعات وانتهاك سيادتها واغتصاب ثرواتها، لأن " الشعب المتحضر هو الذي يتضح الطابع

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، م . س ، ج . 3 ، ص 160.

[2] - محمد حسنين، الاستعمار الفرنسي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط.4 الجزائر 1986 ، ص 78 .

[3] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار – عيون البصائر- م . س ، ص 103.

* أصدرت فرنسا قانونا في 23 فبراير 2005 يتعلق بالدور الإيجابي للاستعمار الفرنسي في شمال إفريقيا ! ينظر : جريدة الشروق اليومي، عدد 1478، بتاريخ 08 /2005/09 ص 08.

الإنساني و خصائص الإنسانية في علاقة أفراده و في موقفه وسلوكه من الشعوب والمجتمعات البشرية الأخرى.»[1]

لقد انتشرت الجمعيات التبشيرية المسيحية في القطر الجزائري، تبثّ أفكارها بين الناس مستغلة الكوارث والمجاعات و الأمراض و الأوبئة لتقديم خدماتها للشعب قصد التأثير عليهم وإغرائهم لقبول ما تدعوهم إليه. فهي:« تؤسس مراكز التبشير، وتعمرها بالدعاة والأطباء و المعلمين، و تجهزهم بكل وسائل الإغراء و الإغواء، وتغتنم المجاعات والأوبئة فرصا لاصطياد الجُوَع و اليتامى والمرضى لتفتنهم عن دينهم بلقمة أو ثوب أو جرعة دواء، و ما مهّد لها تلك الأسباب إلا الاستعمار، فهو الذي أجاع وأعرى، و هو الذي أفقر و أمرض...»[2] إنها تجارة باسم الدين، فيها الأخذ و العطاء، فيها تقديم مساعدات مادية بسيطة مقابل الخروج عن ملة الإسلام واعتناق الدين المسيحي، وأمام الحاجة الماسة إلى الخبز و الدواء، لم يجد بعض الجزائريين البسطاء سوى مد أيديهم إلى المبشرين الذين استغلوا حالتهم المزرية لبلوغ مآربهم التنصيرية و تحقيق أغراض قلة حاكمة تجعل مصالحها فوق كل اعتبار.

لقد ساعد الاحتلال ظاهرة التبشير في الانتشار و هيأ لها أسباب النجاح و مدها بالعون و المساعدة بكل سخاء، و قد « بلغ من تأييد الحكومة الجزائرية للتبشير أنها أوكلت للمبشرين في الكثير من مراكزهم توزيع المؤن المخصصة على المسلمين لتحببهم إلى الناس و لتيسر لهم سبل الإختلاط، حتى يجر حديث حديثا، و تتسرّب الدعاية التبشيرية بينهما، و إن توزيع التموين في زمننا هذا لسلطة تعلو على جميع السلط، و جاذب من أعظم الجواذب. »[3]

وتضاعفت جهود المبشرين قصد إفراغ الجزائر من الداخل و استهداف الإسلام باعتباره المصدر الذي استمد منه المقاومون للاحتلال قوتهم، فقد سجل التاريخ لهم بفخر هذه المقاومة تحت راية الجهاد في سبيل الحق. و كانت البعثات التبشيرية تقيم في مراكز الاحتلال و « تنشط مستغلة كافة وسائل الترغيب لحمل الجزائريين المقبورين

[1] - محمد البهي، الدين و الحضارة الإنسانية ، دار الفكر، ط . 2 ، بيروت 1974 ، ص 67.
[2] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار- عيون البصائر- م . س ، ص 81 .
[3] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

على تغيير دينهم، و كان قادة الاحتلال يجمعون الأيتام الجزائريين و يسلمونهم للبعثات التبشيرية.»[1] و الهدف من ذلك هو تربية أجيال تجهل كل شيء عن دين أجدادها و تاريخ ماضيها.

لقد فضح الإبراهيمي السياسة الاستعمارية في الجزائر في مقال له علّق به على خطبة أحد الولاة " نيجلان" بعين صالح، و كان قد منّ على الجزائر بأن فرنسا جاءت بالجندي و الرّاهب و المعلم و الطبيب، يقول الإبراهيمي :« و معنى هذه الكلمات عندنا أن فرنسا قذفت هذا الوطن بأربعة أنواع من القوى مختلفة التأثير ، متحدة الأثر، متباعدة الميادين، و لكنها تلتقي على هدف واحد، و هو التمكين للاستعمار، و أنها حاربته بأربعة أصناف من الأسلحة البشرية، أخفها فتكا و أقصرها مدى، الجندي...»[2]

و يكشف عمل الرّاهب لأنه أفسد على المسلمين دينهم و عمل على محاربته عن طريق التشكيك فيه . يقول الإبراهيمي: « جاءت فرنسا إلى الجزائر بالراهب (الاستعماري) لتفسد به على المسلمين دينهم، و تفتنهم به عن عقائدهم، و تشككهم بتثليثه في توحيدهم... و ذلك كله بعدما أمدّته بالعون، و ضمنت له الحرية، و كفرت به هناك لتؤمن به هنا.»[3]

كان على الراهب أن يعالج أسباب المرض و الجوع و اليتم التي يتسبب فيها المحتل، قبل أن يتظاهر بمد يد العون و المساعدة، و لكنه يعلم جيدا أن تلك الظواهر هي التي تمكنه من تعزيز موقعه في المجتمع، و كأنه « ذئب فلاة، يتربص اليتم لينصر الأبناء، و المجاعات ليفتن الآباء، و كأن وصايا المسيح عنده أن لا يطعم البطن إلا إذا أخد القلب، و أن لا يكسو الظهر إلا بتجريد من الدين، و لا ينشر تعاليم المسيح إلا باستغلال أزمات الضعفاء و البائسين ! »[4]

لم تكن العناية التي أولاها المبشرون للشعب الجزائري بريئة، و إنما كانت لخدمة الاستعمار الفرنسي و مساعدته على تثبيت أقدامه على أرض الجزائر. وحبذا

---

[1] - أحمد الخطيب ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، م . س ، ص55.
[2] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار- عيون البصائر- م . س . ص96.
[3] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
[4] - م . ن ، ص97.

«لو أن الراهب الذي جاءتنا به فرنسا جاء لينشر تعاليم عيسى بين أتباعه، ويبث تسامحه بين أشياعه و غير أشياعه، للقي منا التبجيل و الاحترام، لأننا أعلم الناس بتعاليم المسيح، و لأننا لا نفرق بين أحد من رسل الله ... و لكن الراهب الذي جاءتنا به فرنسا إنما جاء ليبارك القاتل، و يدني الصيد من الخاتل، و يعاون المعمر على امتلاك الأرض، و الحاكم على انتهاك العرض، و إنما جاء ليغفر للذين يسفكون دماء الأبرياء ما اقترفوه من ذنوب و آثام»[1]. إن سلوك المبشرين في الجزائر يعكس على نحو عدائي تحالف الكنيسة مع الاستعمار لإخضاع الشعب و إذلاله.

ثم يكشف الإبراهيمي ما فعل المعلم الاستعماري بالتلاميذ و يقول :« و جاءت بالمعلم (الاستعماري) ليفسد على أبناء المسلمين عقولهم، و يلقي الإضطراب في أفكارهم، و يستنزلهم عن لغتهم و آدابهم، و يشوّه لهم تاريخهم ، و يقلّل سلفهم في أعينهم، و يزهدهم في دينهم، و يعلمهم – بعد ذلك– تعليما ناقصا: الجهل شر منه.»[2]

و إذا كان التعليم حقا طبيعيا و إنسانيا، يهدف إلى تنوير العقول و تهذيب النفوس و توسيع المدارك، فإن الواقع بخلاف ذلك ينم عن حقيقة مأساوية مرعبة، متمثلة في ارتفاع نسبة الأمّية في المجتمع الجزائري إلى حد مذهل فإذا : « تسعة و تسعون في المائة من أبناء الأمّة الجزائرية أميون، لم يروا مدرسة، و لم يسمعوا بمعلم، فقدوا قديمهم ببركة الاستعمار، و لم يجدوا الجديد !»[3]

أما الطبيب الذي تدعي فرنسا أنها نذرته لخدمة الجزائريين فلم يزد على أن حولهم إلى حقل لتجاربه العلمية بتجريب فعالية الأدوية فيهم، و ما فائدة ذلك إن أخلص العلاج و الفقر ضاربٌ بأطنابه في أوساط المجتمع، يفتك بهم و يحول حياتهم إلى جحيم، و في هذا الصدد يقول الإبراهيمي:« أما هذا الطبيب الاستعماري بالنسبة إلى المسلمين فكأنما جاء ليداوي علّة بعلل، و يقتل جرثومة بخلق جراثيم، و يجرب معلوماته فيهم كما يجربها في الأرانب؛ ثم يعيش على أمراضهم التي مكّن لها

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار – عيون البصائر – م . س ، ص 98 و99.
[2] - م . ن ، ص 96 .
[3] - م . ن ، ص97 .

الاستعمار بالفقر و الجهل.»[1] ثم يردف قائلا: «و إذا الطب الاستعماري لم يقض على المرض و إنما قضى على الصحة، فأربعمائة ألف من مجموع الأمّة مسلولون، والباقون معلولون، وعشرات الآلاف من الأجنة تسقط لفقد العناية، و مثلها من الصبيان يموتون لسوء التغذية، و مثلها من الأحداث يذبل عوده لفقد وسائل التنمية».[2]

أما الجندي الذي يزعم المحتّل بأنه جاء لحماية الجزائريين، إن هو إلا آلة مسخرة لقمع أبناء الأمّة الجزائرية و هو في نظر الإبراهيمي أقل خطورة من النماذج السابقة و أخفّها ضررا.[3]

إن الاستعمار الذي يتفضل على الجزائر بالجندي و الراهب و الطبيب و المعلم، هو «هيكل حيواني يمشي على أربع ... وإن الاستعمار قد قضى بواسطة هؤلاء الأربعة على عشرة ملايين من البشر، فرمى مواهبهم بالتعطيل، وعقولهم بالخمود، وأذهانهم بالركود، و أفكارهم بالعقم، و أضاع على الإنسانية بضياعهم عشرة ملايين من المواهب و العقول و الأذهان و الأفكار و هي رأسمال عظيم».[4]

هكذا يخلص الإبراهيمي إلى أن الاستعمار شرٌ لا خير فيه، إذ جرد الشعب من جميع حقوقه الطبيعية وتركه فريسة للجهل والفقر والمرض، علاوة على قتله للمواهب وتدميره للطاقات الجزائرية التي لو خلي بينها و بين سبيل العلم، لتفتقت عبقريات واعدة، و لكن المحتل لا يرضيه أن تتنور الأمّة الجزائرية بالعلم كي لا تطالبه يوما على حق مسلوب و أرث مغتصب و ثروة منتهبة و حرية منتهكة و سيادة مفقودة.

و بغرض زرع الشقاق و التفرقة بين أفراد الشعب الجزائري و ضرب وحدته، حاول المحتل فصل البربر عن العرب بدعوى أنهم من سلالة أوروبية و أن « أجدادهم كانوا في الماضي مسيحيين، و لأجل هذا يجب عليهم أن يعودوا إلى هذه الديانة»[5] و لهذا الغرض ركز المبشرون على منطقة القبائل و الأوراس خصوصا، وشيدوا مراكز لهم تنطلق منها دعواتهم التبشيرية بهدف تقويض اللغة العربية والدين

---

[1] - - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار – عيون البصائر – م . س ، ص 96 و 97.
[2] - م . ن ص97.
[3] - ينظر : م . ن ، ص 96 .
[4] - م .ن ، ص 98.
[5] - محمد الطاهر وعلي ، التعليم التبشيري في الجزائر (1830- 1904) مطبعة دحلب، الجزائر،بدون تاريخ ، ص232 و 233.

الإسلامي، وتعويضهما باللغة الفرنسية و الديانة المسيحية، ظنا منهم أن في اختلاف اللسان بين العرب و البربر* دليل على أنهما ليسا من جنس واحد، و يقول الإبراهيمي ردا على هذه الفكرة: "و جمعية العلماء هي التي أثبتت للاستعمار أن الدماء البربرية التي مازجت الدم العربي أصبحت عربية بحكم الإسلام، و بحكم العمومة و الخؤولة الممتدتين في سلسلة من الزمن، ذرعها ثلاثة عشر قرنا؛ مزاج فطري، أحكمت القدرة تداخل أجزائه..."[1]

ولكن لماذا خصّ المبشرون منطقة القبائل و جرجرة أكثر من المناطق الأخرى بالتنصر؟ نرى من جانبنا أن السبب في ذلك يرجع إلى:

أ- عزل هذه المنطقة عن باقي مناطق الجزائر بغرض تفكيك وحدة الشعب وإضعاف قوته على المقاومة و الثورة الشعبية.

ب- تشكيكهم في هويتهم التاريخية و الثقافية و الوطنية.

ج- القضاء على الدين الإسلامي و اللغة العربية بصفة نهائية في هذه المنطقة.

د- تكوين نخب موالية لفرنسا لغة ودينا و ثقافة لتكون عونا للاحتلال على أبناء وطنها.

ه-تغذية النزعات الإثنية لخلق الصراعات والانقسامات الداخلية بين أبناء الشعب الواحد.

ومهما يكن، فإن التبشير في الجزائر أخفق في تحقيق أهدافه بسبب قوة تمسك الجزائريين بدينهم و عقيدتهم على الرغم من الفقر و المرض و الأمية، و يرجع هذا الفضل إلى تضافر جهود القوى الوطنية و في مقدمتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي رفعت راية المقاومة الحضارية و الثقافية.

وإذا كان الإبراهيمي قد أعار اهتماما بالغا لعقيدة الأمة في مقالاته المناهضة للاستعمار، فإنه لم يغفل القضايا الإجتماعية التي كان يعيشها المجتمع الجزائري إبان الاحتلال.

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار – عيون البصائر- م . س ، ص 57.

* البربر : أطلقوا على أنفسهم الأمازيغ أي الأحرار، نزلوا من الشعوب الحامية التي جاءت من موطنها الأصلي الذي يعتقد أنه كان اليمن أو عمان. ينظر: رشيد الناضوري، المغرب العربي الكبير- العصور القديمة- دار النهضة العربية، بيروت 1981، ص 65 و 66 .

ثانيا:المقالة الاجتماعية:

إن فلسفة الإبراهيمي في الإصلاح الاجتماعي هي فلسفة عميقة و شاملة، تعتمد على الدين أساسا في معالجة مختلف الظواهر الاجتماعية المتفشية في المجتمع الجزائري في ظل الاحتلال الفرنسي.

و قد واكب الإبراهيمي مشكلة مجتمعه بعرض أسبابها و ذكر مخاطرها و سبل علاجها. و لعل أهم هذه القضايا التي استقطبت اهتمامه في الواقع الجزائري آنذاك، هي التربية والتعليم التي أفرد لها عشر مقالات في البصائر الثانية، كما تناول بالإضافة إلى ذلك قضايا اجتماعية أخرى لا تقل شأنا عن الأولى.

1 : التربية والتعليم :

أيقن الإبراهيمي أن التربية و التعليم وإعداد الإنسان هي السبيل الأوحد لإنجاح أي مبادرة إصلاحية تستهدف تغيير الواقع ونشدان مجتمع فاضل متمسك بدينه وعروبته ووطنيته .

فالتربية هي التي تقرّر مصير الإنسان في الحياة وتتيح له « تنمية قدراته الطبيعية والفكرية وكذلك مشاعره الاجتماعية والجمالية والأخلاقية».[1] وبالتعليم يتعرف الإنسان على دينه ولغته و ماضيه التاريخي وواقعه المعيش، فيتحرك وينتفض لمقاومة الاحتلال بأسلوب أكثر نجاعة و أضمن استمرارية حتى النصر . لذلك أولى الإبراهيمي اهتماما كبيرا بالتربية والتعليم إذ يقول:« الحياة بالعلم، والمدرسة منبع العلم، ومشرع العرفان، وطريق الهداية إلى الحياة الشريفة؛ فمن طلب هذا النوع من الحياة من غير طريق العلم زلّ، ومن التمس الهداية إليه من غيرها ضلّ؛ وحياة الأمم التي نراها ونعاشرها شاهد صدق على ذلك ».[2]

---

[1] - علي ماضي ، فلسفة في التربية و الحرية ، دار المسيرة ، ط.1، بيروت 1979، ص 17 .
[2] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار –عيون البصائر- م . س ، ص 258 .

والتربية في نظر الإبراهيمي مقدمة على التعليم، وهي «السبيل لتجديد عزم الجزائريين وبناء ما هدّم الاستعمار».[1] ففي مقال له بعنوان "إلى أبنائنا المعلمين الأحرار" يقول الإبراهيمي:« واحرصوا كل الحرص على أن تكون التربية قبل التعليم، واجعلوا الحقيقة الآتية نصب أعينكم، واجعلوها حاديكم في تربية هذا الجيل الصغير، وهاديكم في تكوينه، وهي: أن هذا الجيل الذي أنتم منه لم يُؤت في خيبته في الحياة من نقص في العلم، وإنما خاب أكثر ما خاب من نقص في الأخلاق، فمنها كانت الخيبة، ومنها كان الإخفاق.»[2] ويقول في مقال أخر بعنوان "كلمات واعظة لأبنائنا المعلمين الأحرار":«لا يضيركم ضعف حظكم من العلم إذا وفر حظكم من الأخلاق الفاضلة؛ فإن أمتكم في حاجة إلى الأخلاق والفضائل؛ إن حاجتها إلى الفضائل أشد و أوكد من حاجتها إلى العلم، لأنّها ما سقطت هذه السقطة الشنيعة من نقص في العلم، ولكن من نقص في الأخلاق».[3]

فالكاتب يرجع ضعف الأمّة وهوانها إلى ما أصابها في أخلاقها، و الكلام هنا موجه إلى المعلمين والمربين الذين اختارتهم جمعية العلماء للتعليم بمدارسها و شرطها في ذلك أن يكون هؤلاء متحلين بالسلوك الحسن ليكونوا قدوة طيبة للناشئة التي يعول عليها في عملية الإصلاح الشاملة و النهضة الحضارية الواعدة، و ذلك أن المتعلم ولوع بتقليد معلمه باعتباره مثلا أعلى يتمثله في حياته.

للتربية والتعليم في مدارس الجمعية مناهج مدروسة و برامج مسطرة وآليات في التنفيذ تأخذ في الاعتبار تحقيق حاجة المتعلمين إلى التربية أكثر من التعليم. يقول الإبراهيمي في هذا الصدد: «كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي: ألا نتوسع له في العلم، و إنّما نربيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا.»[4]

---

[1] - شكري فيصل، قضايا الفكر في آثار الإبراهيمي، مجلة الثقافة، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، عدد 87، الجزائر مايو 1985، ص 176

[2] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار – عيون البصائر- م . س ، ص 264 .

[3] - م . ن ، ص.268 .

[4] - م .ن ، ج.5، ص.280.

إن التربية أساس التعليم وعموده ، فلا يفلح تعليم إذا لم تلازمه أخلاق تهذب مساره لتكوين جيل صالح، نافع لنفسه و بارّ بأمّته. و هكذا غدت مسألة التربية أولوية في منهج الجمعية، فمن الحكمة في نظر الإبراهيمي أن « تبتدئ الجمعية بتطهير النفوس من هذه الرذائل، و أن تجعل من صرخاتها عليها نذيرا للناشئة أن تتلطخ نفوسهم بشيء من أوضارها، و أن تكون دروس رجالها مؤدية لغرضين: لغرض الإصلاح العلمي بأسلوبها و لغتها و مناهجها و نوع كتبها، و لغرض الإصلاح الديني بمعانيها ومواضيعها.»[1]

لم يكن هذا الأسلوب في تقديم الجانب التربوي على الجانب المعرفي أو تغليب المجال الديني على المجال المعرفي، ليصرف الجمعية عن مقاصدها من العلم واستهدافه في مشروع الإصلاح الإجتماعي لديها، بل إن « تقديم الجمعية للإصلاح الديني على الإصلاح العلمي ضرورة اقتضاها طغيان الفساد في العقائد حتى أصبح من آثاره اللازمة التزهيد في العلم. و ليس معنى هذا أن الجمعية لم تحم حول الإصلاح العلمي. فدروس رجالها و أسلوبهم في دروسهم، كل ذلك أمثلة من الإصلاح العلمي ونهج جديد نهجوه و طريقة تُحتذى فيه.»[2]

إن مسعى الإبراهيمي إلى تكوين الإنسان الجزائري الجديد وفق الأصول المحددة من: إسلام و عروبة و وطنية و أخلاق، لا يمكن تحقيقه إلا في ضوء انتشار التربية والتعليم وتشييد المدارس و بناء مناهج تعليمية صحيحة وفق المبادئ الإسلامية و مقتضيات العصر. ولعل الإبراهيمي تفطن إلى دور العلم في انبعاث كل نهضة، فمن «المؤشرات الهامة التي تميز المجتمعات المتقدمة و المتخلفة هو في مقدار ما تصرفه المجتمعات و الدول من اهتمام و طاقات و أموال في سبيل البحث العلمي و التنمية».[3]

لقد كانت غاية جمعية العلماء في المجال التربوي هي تنشئة جيل جزائري، مسلح بثقافة عربية إسلامية تمكنه من تأكيد هويته و الحفاظ على شخصيته المتميزة بين

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار ، م . س ، ج.1 ، ص 145.

[2] - م . ن ، ص144.

[3] - محمد محفوظ ، الحضور و المثاقفة – المثقف العربي و تحديات العولمة – المركز الثقافي العربي، ط.1 الدار البيضاء 2000 ، ص 72.

الأمم، لقد خاطبت الجمعية في المواطن الجزائري « عقله بالعلم و الإصلاح و الوطنية، و خاطبت عاطفته بالدين و الخطابة و التاريخ، و أنشأت لذلك جمهرة من الدعاة و الخطباء و المؤرخين و الصحفيين و الشعراء و المعلمين.»[1]

واستطاعت الجمعية بواسطة خطابها العقلي و الروحي في دعوتها الإصلاحية أن تستقطب الشعب الجزائري في ظرف قياسي، معتمدة في ذلك على أربعة وسائل فعالة في تربية الأمة و تثقيفها، و هي:

- المدارس.
- المساجد.
- النوادي.
- الصحف السيارة.

والتعليم عندها نوعان: تعليم عربي حرّ يلقن في المدارس الحرّة و يسمى التعليم المكتبي، وتعليم ديني يلقن في المساجد. و يشرح الإبراهيمي نظرته إلى هذين النوعين من التعليم فيقول: «موقف الجمعية في التعليم العربي و الديني هو أبرز مواقفها، فقد كان التعليم العربي الحر يدور في دائرة ضيقة من أمكنته و أساليبه وكتبه، فسعت الجمعية بما استطاعت من أسباب أن توسع دائرة الأمكنة بإحداث مكاتب حرّة للتعليم المكتبي للصغار، و بتنظيم دروس في الوعظ و الإرشاد الديني في المساجد.» [2]

أما المحاضرات العلمية و الدينية، فقد كانت تقدم في النوادي، و أما المقالات فقد كانت تنشر في صفحات جرائد الجمعية* و تقوم بتحريرها كوكبة من علماء الأمّة، يتصفون بالكفاءة و احترام خط الجمعية.

---

[1] - أبو القاسم سعد الله ، أفكار جامحة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1988، ص 49.

[2] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج .1 ، ص 191.

* أهم هذه الصحف هي:

- الشهاب: 1925 / 1939.
- البصائر الأولى: 1935 / 1947.
- البصائر الثانية: 1947 / 1956. و هي أرقى صحف الجمعية لغة و أخطرها على المحتل. ينظر عبد الملك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر، م . س ، ص109.

كذلك عكفت الجمعية على إصلاح أساليب التعليم و التخلص من الأساليب العقيمة القديمة و تغييرها بما يستجيب لحاجة المجتمع إلى المعرفة، و قدرة المتعلم على الفهم والإدراك، فأسلوب الجمعية في تعليم العربية يتم ب:« تلقين التلامذة أبسط القواعد في أسهل التراكيب، ثم تمكينها من نفوسهم بالتمرينات التطبيقية، والحرص على إشرابهم معنى ما يقرأون والاجتهاد في تربية ملكة الذوق و الاستنتاج في نفوسهم، وفي إصلاح اللهجات التي حرّفتها العامية عن سبيلها العربي و تقويم اللسان على الحروف و هيأتها و مخارجها.»[1]

وتكشف هذه الأساليب المنتهجة في مدارس الجمعية عن سعة إلمام الإبراهيمي بالنظريات التربوية الحديثة في عهده و إفادته منها، و فيما يأتي عرض إجمالي لهذه الأساليب:

– تبسيط المعرفة للدارسين حسب قدراتهم العقلية و استعداداتهم الفطرية على الإستعاب.

– التدرج من السهل إلى الصعب، فالسهل بالنسبة للمتعلمين هو ما يقع في دائرة إحساسهم و إدراكهم بيسر، مع الحرص على ألا تقدم إليهم مفاهيم تتطلب إعمال الفكر أو بذل الجهد، و هذا يتوافق مع رأي ابن خلدون الذي يرى أن تلقين العلوم ينبغي أن يراعى فيه التدرج من السهل إلى الصعب و من الإجمال إلى التفصيل.[2]

– اعتماد أسلوب التكرار الذي تحصل به ملكة العلم. فالمعرفة ترسخ في الذهن إذا تكررت أكثر من مرة.

– استعمال أسلوب التقويم* في ممارسة الفعل التربوي، ذلك أن موضوع التقويم أصبح مصدر اهتمام المشتغلين و المهتمين بميدان التربية و التعليم في العصر الحديث واعتباره مكونا هاما من مكونات العملية التربوية.

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج .1 ، ص192.

[2] - ينظر : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، المقدمة ، م . س ، ص 490.

* المعنى هنا هو تشخيص النقائص و الإختلالات التي يمكن أن تحصل للدارس خلال عملية التعلم من أجل استدراكها أو علاجها.

– العمل على تنمية الذكاء و الفهم لدى التلامذة بخلاف المدرسة التقليدية* التي كانت تعتمد على الحافظة.

– تربية المتعلمين على مبدأ تنمية الذات و تشجيعهم على تحري الأمور بأنفسهم والوصول إلى استنتاجاتهم الخاصة. اعتمادا على أنفسهم بالإضافة إلى القدرة على التواصل مع الناس.

– قراءة القرآن الكريم و حفظه و فهمه و التحلي بأخلاقه، فالجمعية – على حد تعبير الإبراهيمي– تمنح للقرآن في مدارسها « جزءا من اهتماماتها، و كيف لا تهتم بالقرآن و هو سلاحها الذي به تناضل، و سيفها الذي به تصول، و عدتها في الشدّة، وعلى الدعوة إليه بَنَت مبدأها الإصلاحي، و في الدعوة لقيت الأذى ، و رميت بالعظائم.»[1]

و إذا كان الإبراهيمي يعتمد على تغيير المناهج التعليمية في المدارس الحرّة، فإننا ألفيناه يقلد منهج السلف في التعليم الديني في المساجد و يقتصر عليه، و طريقة الجمعية في هذا الباب هي الوعظ و التذكير، تذكر بـــ« كتاب الله تشرحه و تستجلي عبره، و بالصحيح من سنة رسول الله، تبينها و تنشرها، و بسيرته العلمية، تجلوها و تدلّ الناس على مواضع التأسي منها، ثم سير الصحابة و هديهم، ثم سير حملة السنة النبوية، و حملة الهدي المحمدي في أقوالهم و أعمالهم كذلك.»[2]

و يبدو أن الإبراهيمي كان متأثرا بأسلوب النبي صلى الله عليه و سلم في التربية، فهو أسلوب تذكير و موعظة، و مثال و قدوة.

فالتغيير المراد إحداثه في الناس يبدأ من المصلح نفسه، لأنه قدوة لغيره، لذلك يعتبر « أسلوب المثال و القدوة هو الأسلوب الطبيعي في التربية، و هو أكثر الأساليب شيوعا، و أقواها أثرا في حياة الإنسان، فقد أمرنا الله تعالى بأن تكون لنا في رسول الله

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار –عيون البصائر- م . س ، ص192 .

[2] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار –عيون البصائر- م . س ، ص 191 و 192.

* مميزات الطرائف التقليدية:

التلقين المباشر .

التقليد و المحاكاة.

الاعتماد على الحافظة.

قبول المعلومات و النظام المفروض بدون نقاش.

عدم اعتبار الفروق الفردية، ينظر: محمد الناصف، تأملات في التربية و التعليم، الشركة التونسية للتوزيع، تونس 1984 ، ص74 .

"أسوة حسنة" فقد قال تعالى في سورة الأحزاب*: (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله و اليوم الآخر و ذكر الله كثيرا)»[1]

و يركز الإبراهيمي على أسلوب القدوة الحسنة الذي يجب أن يتحلى به المعلم كي يكون مثالا صالحا يتأسى به المتعلمون قولا و عملا. يقول في هذا الشأن :« ثم احرصوا على أن يكون ما تلقونه لتلامذتكم من الأقوال، منطبقا على ما يرونه و يشهدونه منكم من الأعمال ... فإذا زينتم له الصدق، فكونوا صادقين، و إذا حسنتم له الصبر، فكونوا من الصابرين؛ و اعلموا أن كل نقش تنقشونه في نفوس تلامذتكم من غير أن يكون منقوشا في نفوسكم فهو زائل، و أن كل صبغ تنفضونه على أرواحهم من قبل أن يكون متغلغلا في أرواحكم فهو – لا محالة – ناصل حائل، ...ألا إن رأسمال التلميذ هو ما يأخذه عنكم من الأخلاق الصالحة بالقدوة، و أما ما يأخذه عنكم بالتلقين من العلم و المعرفة فهو ربح و فائدة.»[2]

و إذا كانت مدارس الجمعية تهتم بتعليم الناشئة و ترشيدها، فإنها لم تهمل فئة الكبار** الذين تجاوزوا سن المدرسة و لم يتعلموا – بسبب سياسة الاحتلال – أبجديات القراءة و الكتابة و الحساب، فعاشوا أميين متخلفين عن ركب المدنية الحديثة.

و أدرك الإبراهيمي خطر الأمية الذي بات يحدق بالأمّة الجزائرية و يهدد وجودها و سلامتها و حاضرها و مستقبلها، و يعيق أي محاولة للإصلاح الاجتماعي المنشود، فكتب مقالا بعنوان "الأمية" جاء فيه:« و أكبر جناية تجنيها الأمية على الأمم هي القضاء على التفكير. و التفكير هو المعيار الذي توزن به القيم العقلية في الأمّة سموّا وإسفافا. و محال أن يسموا تفكير الأميّ لأن فكره في قفص من أميّته."[3]

---

[1] - محمد فاضل الجمالي ، نحو تجديد البناء التربوي في العالم الإسلامي ، الدار التونسية للنشر، تونس 1984، ص40.

[2] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار – عيون البصائر- م . س ، ص .264

[3]- محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، م .س ، ج.1 ص202 و 203

* آية 21.

** كان التعليم الذي صاحب الحملة الفرنسية للجزائر، يمنح للفرنسيين ، أما المدارس الفرنسية الإسلامية التي أنشأها الاحتلال عام 1836، و التي لم يختلف إليها إلا عدد قليل من الجزائريين، فقد كان الهدف منها هو إيجاد مترجمين متعاونين مع القوات العسكرية و السياسية للمحتل. أما غالبية فئات الشعب فقد كانت في أمية و جهالة لا تحسد عليهما . ينظر: أحمد الخطيب، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، م . س ، ص67.

.

فالأمية آفة تعطل فعالية العقل و تعيقه عن اكتساب المعارف و تحصيل العلوم، ناهيك عما تلحقه بالإنسان من أضرار جسيمة تهدّد شخصيته و تكبّل ملكاته، لذلك تتسابق الأمم في محاربة الأمية باعتبارها « آفة اجتماعية مهلكة، فهم يحاربونها كما يحاربون الجراد و الدود، و يقاومونها كما يقاومون الأوبئة و الطواعين. و نحن نرى ظلّها كل يوم يتقلص من بين هذه الأمم، و طوفانها ينحسر حتى ليوشك أن لا يبقى في بعضها أميّ واحد.»[1]

و لا مخرج من نفق الأمية المظلم إلا بالعلم الذي يحرك في الإنسان طاقاته و يحرّر قدراته العقلية و الحسية ليسهم بها في تحقيق غاياته الإنسانية و الحضارية. فالأمم الحية لا ترقى « إلا بالعلم الاختباري التطبيقي، و أساس هذا العلم – و إن علا– القراءة و الكتابة. و لما انتهى العلماء منهم إلى أبعد غاية في العلم و تسنموا منه أعلى ذروة، التفتوا يتبيّنون الطريق التي وصلوا منها إلى هذه الغايات البعيدة، فرأوا أن مفتاح الباب الذي منه دخلوا و مبدأ الطريق الذي منه وصلوا هو "ألفبا" ، و أنّ أول منعم عليهم بهذه النعم الجليلة هو أوّل من علّمهم هذه الحروف الضئيلة.»[2]

لم يكن التعليم المدرسي و المسجدي كافيا للتخفيف من حدّة الأمية المتفشية في المجتمع الجزائري، ممّا حدا بالإبراهيمي و رفاقه في الجمعية إلى مضاعفة الجهد بتأسيس فرع من فروع التعليم المدرسي و هو تعليم الأميين من الكبار لرفع الأمية عنهم و الأخذ بأيديهم إلى منابت العلم و مقاعد الدراسة لأنها سبيل لتحرير العقول و الأبدان. من أجل ذلك وضع الإبراهيمي خطة حكيمة لمحاربة آفة الأمية في مجتمعه نقدمها فيما يأتي على نحو إجمالي:

أولا: يتولى كل عضو من الأعضاء العاملين في الجمعية بتعليم أمي أو أكثر من أقاربه مبادئ القراءة و الكتابة و الحساب و شيئا من القرآن، أما بالنسبة للوسائل التعليمية فإنّه يقترح وضع أرقام حسابية و سور من القرآن بالحرف الغليظ من شأنها أن تساعد المتعلم على ترسيخ المفاهيم في ذهنه.

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار م . س ، ج . 1 ، ص 204 .
[2] - م . ن ، ص 203 و 204.

ثانيا: دعوة الجمعيات القانونية مثل جمعية سائقي السيارات و جمعية صانعي الأحذية إلى الإقبال على التعلم.

ثالثا: إلزام كل متعلم بدفع مبلغ من المال في كل شهر يُمنح للمعلم المشرف على محو الأمية.

و إذا عمم هذا النوع من التعليم وانتشر انتشارا واسعا في المجتمع، فإنه سوف يحقق هدفين شريفين:

1- تقليص دائرة الأمية أو القضاء عليها نهائيا.

2- توفير وظيفة للطلبة المعلمين تعينهم على سد حاجاتهم المعيشية.

وهكذا يظهر الإبراهيمي مربيا خبيرا و مخططا حكيما و مصلحا اجتماعيا متفوقا، استطاع بفضل حنكته و عبقريته أن يؤسس نظاما تربويا و تعليميا كاملا، قائما على قواعد علمية صحيحة و دقيقة.

غير أن الاستعمار كان يقظا، مدركا لخطر الدعوة إلى تربية أفراد الشعب الجزائري على أساس العروبة و الإسلام، فضايق أعضاء الجمعية و العاملين فيها، واتهمهم بممارسة السياسة تحت غطاء ديني، ثم قام بـــ« سن قرار جائر صدر في 08 مارس 1938 يحضر على أي معلم جزائري أن يحفّظ الصبية القرآن، أو يعلمهم أي حرف من العلم، إلا بترخيص رسمي من الفرنسيين».[1]

لقد بلغت الحملة التعسفية قمّتها ضد الجمعية و أظهرت حقدا كبيرا على اللغة العربية و تعليمها، فالرخصة لا تمنح في الغالب حتى لو استوفى الطلب شروطه القانونية المطلوبة. يقول الإبراهيمي في هذا الموضوع: « إنها قرارات جائرة أنتجتها ظروف خالية من الرحمة و من الكياسة، و أملتها أفكار خالية من الحكمة و السداد... فجاءت في مجموعها لا تستند على منطق و لا نظر سديد، و إنما تستند على القوّة أولا، و على الحيلة ثانيا، و على العنصرية البغيضة ثالثا.»[2]

[1] - عبد الملك مرتاض ، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1830 / 1962)، دار هومة ، الجزائر 2003 ، ج .2، ص 168 .

[2] - - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، -عيون البصائر- م . س ، ص 49.

وأمام الضغط الذي مارسه المصلحون و الهيئات الوطنية ضد القرار، اضطرت الحكومة الفرنسية إلى التراجع عن موقفها إزّاء اللغة العربية و تعليمها.

وعلى الرغم من هذا الصراع الحاد بين الإدارة الفرنسية و الجمعية حول قضية التعليم العربي الحر، فإن الإبراهيمي ظلَّ يقاوم من أجل قضيته بعزيمة قوية وعقيدة ثابتة و نشاط لا يفتر، إيمانا منه بأن التربية و التعليم هما أساس الإصلاح الاجتماعي الذي يسعى إلى تفعيله في أوساط الشعب الجزائري.

2- قضايا أخرى:

إذا كانت المقالة الاجتماعية « تتبع الحرية و شعور الناس بسوء حالهم و تطلعهم إلى مثل أعلى»[1]، فإنها عند الإبراهيمي تعكس هذا الواقع بعمق بكونها تصوّر على نحو واقعي هموم المجتمع الجزائري و تطلعاته إلى الحرية والانعتاق والتغيير الشامل وضعه المزري على جميع الأصعدة، في ضوء المرجعية الإسلامية التي كانت تتبناها الجمعية أساسا لأي حل مجتمعي.

ومن بين القضايا الاجتماعية التي تناولها الإبراهيمي، نظرا لأهميتها و حيويتها، قضية الشباب الجزائري إذ "ليس هناك من مشروع نهضة، ولا رسالة حضارية راقية، و لا حركة إصلاح و لا برنامج تجديد للأمّة و إصلاح أمرها، يمكن أن يرى النور إذا لم تكن وراءه همّة الشباب العتاة و طموح الفتيان الأشدّاء."[2]

ومن هنا ألفينا الإبراهيمي يولي أهمية قصوى للشباب في برنامجه الإصلاحي باعتباره قوّة محركة لعجلة التاريخ، فهو وقود المستقبل القريب وجيل الحرية المنشود، وعليه راح الإبراهيمي يرسم صورة مثالية و نموذجا صالحا لما ينبغي أن يكون عليه الشباب الصالح البارّ بأمته، فقد تمثله: "متساميا إلى معالي الحياة، عربيد الشباب في طلبها، طاغيا في القيود العائقة دونها، جامحا عن الأعنة الكابحة في ميدانها، متقد العزمات، تكاد تحتدم جوانبه من ذكاء القلب، و شهامة الفؤاد و نشاط الجوارح."[3]

---

[1] - عبد العزيز شرف ، أدب المقالة ، من المعاصرة إلى الأصالة – دراسة و نماذج – دار الجيل ، بيروت 2000 ، ص 138.
[2] - عبد الملك مرتاض ، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر، م . س ، ص 141.
[3] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، - عيون البصائر- م . س ، ص 509 .

فالشباب في تصور الإبراهيمي، ينبغي أن يكون طموحا إلى حد بعيد، و قويا على متاعب الحياة لدرجة كبيرة، وشجاعا، مقبلا على " العظائم في غير تهور، محجما عن الصغائر في غير جبن، مقدّرا موقع الرجل قبل الخطو، جاعلا أول الفكرة آخر العمل."[1]

ثم يدعو الإبراهيمي الشباب إلى العلم ليحقق به إنسانيته و يثبت وجوده، فالعلم حينما "يسود مجتمعنا ما، فإنه يضبط سلوكه بضوابط منهجية علمية باتجاه التوظيف الأمثل لإمكاناته و قدراته الذاتية، و يبلور له المواقع المفضلة لصرفها، و يخلق لديه حوافز العمل و البناء."[2]

فالتشديد على طلب العلم كان ديدن الإبراهيمي في خطابه الإصلاحي تأكيدا منه بأن المعرفة هي أساس التقدم و الرقي، و الأمة التي لا تعي هذا المعنى و لا تشعر بهذه الحقيقة هي أمة تعيش على هامش التاريخ و الحضارة الإنسانية، و لا تحظى باحترام الشعوب ولا تكون أهلا للحرية إذ لا تقدّر قيمتها. ومن أجل ذلك ظل الإبراهيمي ينافح عن العلم، داعيا أبناء الأمّة إلى الإقبال عليه في مقال له بعنوان " إلى أبنائي الطلبة المهاجرين في سبيل العلم" إذ يقول: " يا أبناءنا، إن الحياة قسمان: حياة علمية، وحياة عملية، و إن الثانية منهما تتبني على الأولى قوّة و ضعفا، و إنتاجا وعقما، وإنكم لا تكونون أقوياء في العمل إلا إذا كنتم أقوياء في العلم، و لا تكونون أقوياء في العلم إلا إذا انقطعتم له، ووقفتم عليه الوقت كله."[3]

إن دعوة التسلح بالعلم ضرورة تقتضيها حاجة الوطن إلى الإعمار و الازدهار، و تمليها تطلعات الأمّة إلى العيش الكريم في كنف الحرية و الرخاء. لذلك حرص الإبراهيمي على تبليغ هذا المعنى و ترسيخه في عقول الناشئة أملا في أن تجعل من العلم أساسا تبني عليه أعمالها، و مقياسا تقيس به أفكارها، وواجبا تؤديه نحو الوطن.

لقد كان العلم و لا يزال "مقوما هاما من مقومات البناء الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات لما يترتب على مفاهيمه و تطبيقاته من آثار واضحة على مسيرة

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار- عيون البصائر - م . س ، ص 509.
[2] - محمد محفوظ، الحضور و المثاقفة ، م . س ، ص 72.
[3] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار – عيون البصائر - م . س ، ص 203.

الإنسان الحضارية.»[1] لذلك وجدنا الإبراهيمي يوليه أهمية بالغة في دعوته الإصلاحية . يقول في مقال له بعنوان " ثلاث كلمات صريحة" موجها خطابه إلى الشباب، ما يأتي : « و أنتم – يا أبناءنا– بواكير نهضة قد أظلّ زمانها، و جاء إبّانها ... و العلم – إن كنتم لا تعلمون– هو أساس الوطنية و قطب رحاها، و مركز دائرتها و دليل سيادتها. لا حق لكم على الوطن، بل الحق كله للوطن عليكم، و إن أوكد حقوقه عليكم أن تحققوا بالعلم مطالبه، و تعمروا بالعلم جوانبه، و تنيروا بالعلم غياهبه.»[2]

لم يمنع الفكر السلفي الذي ميّز عمل جمعية العلماء المسلمين و دعوتها الإصلاحية من تكوين نظرة واضحة إزاء المسائل الإجتماعية المطروحة حينئذ، و الأخذ بأسباب المدنية الحديثة، لأن المدنية « تراث إنساني تسلمه أمّة إلى أمّة و تأخذه أمّة عن أمّة فتزيد فيه أو تنقص منه بحسب ما يتهيأ لها من وسائل و ما يؤثر فيها من عوامل ... و قد أصبح احتكار المدنية لأمم خاصة تقليدا شائعا متعاصيا عن التمحيص و النقد، و من هذا الباب احتكار الغربيين للمدنية القائمة اليوم، و ما هي في الحقيقة إلا عصارة الحضارات القديمة ورثها الغربيون عمن تقدّمهم، و قاموا عليها بالتزيين و التحسين و التلوين و طبعوها بالطوابع التي اقتضاها الوقت وانتحلوها لأنفسهم أصلا و فرعا.»[3]

لقد حاول كثير من المؤرخين و المثقين في الغرب تجاهل الحضارة الإسلامية و القفز على الواقع و الحقائق التاريخية الثابتة، ليربطوا حضارة أوروبا بأثينا مباشرة، و لو أنهم « دققوا النظر لوجدوا هوّة كبيرة تفصل حضارة أرسطو و حضارة ديكارت، و أن تلك الهوّة من القرون هي الحضارة الإسلامية.»[4] التي تمثل حلقة مهمة في سلسلة الحضارة البشرية، غير أن « جيراننا فيما يظهر، لا يقدرون الميراث الذي تركه العرب و المسلمون حق قدره، و لا يثمنون ما أسدوه إلى الحضارة الإنسانية و يسدونه إلى جيراننا الشماليين الآن.»[5]

---

[1] - سليمان الخطيب ، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، ص 261 .
[2] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار –عيون البصائر- م . س ، ص 315 .
[3] - م . ن ، ج.1 ، ص 374 .
[4] - مالك بن نبي ، شروط النهضة ، دار الفكر ، الجزائر ، ص 153 .
[5] - محمد مفتاح ، التشابه و الاختلاف – نحو منهجية شمولية- المركز الثقافي العربي ، ط.1 ، الدار البيضاء 1996 ، ص 164.

إنها نظرة حاقدة على الإسلام و المسلمين، توظف العداء الصليبي و الاستعمار الروماني في تعاطيها مع التاريخ و الأحداث، و أي حضارة هذه التي يعتّد بها هؤلاء إذا كانت معانيها عندهم قائمة على الإقصاء و نفي الآخر؟ في حين أنها جماع الجهود الإنسانية عبر التاريخ.

ثم ينتقل الإبراهيمي بعد عرض بسيط لمزايا العلم ووظائفه إلى انتقاء الكتاب المفيد باعتباره « المستودع الحقيقي للثقافة و هو وسيلتها التقليدية و الثابتة في الحفاظ على الفكر و التراث بصفة عامة.»[1] كما يسهم الكتاب في توسيع مدارك الشباب و تنمية ثروتهم اللغوية و الفكرية. يقول في هذا الصدد: « و سينتهي الإصلاح الذي تقوم به جامعاتنا إلى اختيار كتب سهلة ممتعة في كل علم، تفرض عليكم قراءتها و مطالعتها؛ ثم كتب أخرى في المعارف العامة، كالتاريخ، و الأدب ، و الحكمة،و الأخلاق، و التربية، فوطنوا أنفسكم على ذلك من الآن، و روضوها على اختيار النافع المفيد من الكتب.»[2]

إن الإبراهيمي لا يكتفي بدعوة الشباب إلى العلم، و إنما يحدد له سبله و ينتقي له مصادره التي يعتمدها في دراسته بكيفية تنم عن تجربة واعية، و نظرة عميقة، وتصوير بعيد لمعالم جيل تتطلع إليه الأمّة ليدفع عنها الظلم و القهر، و يعيد إليها مجدها و عزّتها، و يبني لها حاضرها و مستقبلها.

و من القضايا الأخرى التي استوقفت اهتمام الإبراهيمي، قضية التعاون الاجتماعي، إذ كان يدرك أن الإصلاح الاجتماعي الذي يدعو إليه، يتوقف على تماسك و تلاحم أفراد المجتمع الجزائري في العمل المشترك بينهم في إطار المبادئ الإسلامية الداعية إلى الأخوة الصادقة و التعاون على الخير و النفع و الصالح العام. و لهذا الغرض كتب مقالا بعنوان "التعاون الاجتماعي" جاء فيه: « ... و فوائد الاجتماع [الإتحاد] هي ثمراته الناتجة عنه و ثمراته هي ما ترون من أعمال تعجز القوة الفردية عن إتمامها، وما ترونه من مصانع تخرج المعجزات ... و ما ترونه من استخراج

[1] - محمد زكي العشماوي ، دراسات في النقد المسرحي و الأدب المقارن، دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت 1983 ، ص 23 .
[2] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار – عيون البصائر- م . س ، ص203 .

مواهب الأرض التي لا يستقلّ الفرد بإخراج جزء منها و لو جمع مواهبه، و ما ترونه من تسلّط جبري على قوى الطبيعة واستخدامها بكل سهولة.»[1]

و يحدد الإبراهيمي شروطا لهذا التعاون يراها ضرورية لتحقيق المراد من النهضة الحضارية، و يسميها لوازم إذ يقول :« إذن نحن محتاجون إلى تكوين اجتماع خاص تنتج عنه نهضة منظمة في جميع لوازم حياتنا القومية الخاصة، و ألزم هذه اللوازم أربعة: الدّين و الأخلاق و العلم و المال.»[2]

أما اللازم الأول و هو الدّين، فيرى أنه مقدم على كل شيء في الحياة باعتباره « دين الفطرة ، و أنه لا يرجع في أحكامه إلى نص قطعي من كتاب محكم أو سنة قوليه أو عملية متواترة، و أن كل من ألصق بالدين من المحدثات فهو بدعة يجب اعتبارها ليست من الدين، و إن تراءت في صورة ما يقتضيه الدّين.»[3]

و في الصدد نفسه يوضح أن تجسيد هذا المبدأ في الحياة الاجتماعية يتوقف على فهم الأمّة لدينها و اهتمامها بثلاث مسائل يراها مهمة و يحددها فيما يأتي:

1- ضرورة التمييز بين كل من العقيدة و العبادة و المعاملة. فـ« المعاملة مبنية على مراعاة مصالح البشر و نظام اجتماعهم العمراني، و لذلك كانت أغلب أحكام المعاملات المأخوذة من القرآن كلية قلّ أن نعثر فيها على التفصيل، و أن الأنسب لسماحة الدّين وبقائه و صلاحيته لكل زمان و مكان أن يكون للزمان و المكان و العرف و العادة والبيئة مدخل في تكييف أحكام المعاملات و تطبيقها على الحوادث الجارية.»[4]

2- السعي في نشر اللغة العربية باعتبارها لغة الدين والآداب والتاريخ، ودعوة الإبراهيمي إلى تعلمها وتوسيع نطاقها هو توكيد لإثبات الشخصية الوطنية والإسلامية لأفراد المجتمع الجزائري لأنه "بدون شخصية بما فيها اللغة لا يمكنهم أبدا أن يتقدموا تقدما طبيعيا، وبالتالي يفاخروا أمثالهم في العالم، أو يحسوا بعزة وطنية مشروعة وصادقة.»[5] و إذا كان الإبراهيمي يعير اللسان العربي أهمية بالغة و يدعو

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س، ج.1، ص 50 و51.
[2] - م . ن ، ص 51 .
[3] - محمد البشير الإبراهيمي ، م.ن، ص 51 و 52 .
[4] - م . ن ، ص 52 .
[5] - محمد مصايف ، فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ط .2 ، الجزائر 1981، ص 207 .

إلى إحياء مجده باعتباره "لسان هذا الدين و المترجم عن أسراره ومكوناته، لأنه لسان القرآن الذي هو مستودع الهداية الإلهية العامة للبشر كلهم، لأنه لسان محمد بن عبد الله صلى الله عليه و سلم صفوة الله من خلقه، و المثل الأعلى لهذا النوع الإنساني الذي هو أشرف مخلوقات الله، و لأنه لسان تاريخ هذا الدين و مُجَلِّي مواقع العبر منه، و لأنه قبل ذلك و بعد ذلك لسان أمّة شغلت حيّزا من التاريخ بفطرتها و آدابها و أخلاقها وحكمها و أطوارها و تصريفها في الحياة."[1] و العربية بالإضافة إلى ذلك، هي ثقافة خالدة و تراث إنساني عظيم، حقق أعظم حضارة في تاريخ البشرية.

3- السعي في نشر التاريخ الإسلامي، و ذلك لتكوين وعي تاريخي في وجدان الأجيال الصاعدة بهويتهم العربية و الإسلامية، لأن التاريخ الإسلامي العربي، يمثل مقوما أساسيا من مقومات الشخصية الجزائرية، و بهذه المساعي الثلاثة يعرف الإتحاد قيمته و يحقق أهدافه.

و أما اللازم الثاني و هو الأخلاق، فإن الإبراهيمي حثّ على ضرورة التحلي بها و بذل الجهد من أجل ترقيتها في المجتمع، كما دعا إلى محاربة مختلف الآفات الاجتماعية التي تنخر جسد الأمّة الجزائرية و تهدّد وجودها بالضياع، يقول في هذا الصدد: " فإذا تمكنّا بالتدريج من قمع هذه الجراثيم الأخلاقية التي أفسدت مجتمعنا، و تكوين أفق أخلاقي صالح، نكون قد جنينا من اجتماعنا شيئا هو ثمرة الثمرات و فائدة الفوائد."[2]

و يتابع الإبراهيمي حديثه في هذا السياق فيرى أن المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الإنسان القيم الدينية و الفضائل الأخلاقية هي الأسرة بوصفها النواة الأولية لتكوين الفرد و المجتمع، فلا يمكن في نظره معالجة الأمراض الاجتماعية إلا انطلاقا من البيئة الأولى التي ينشأ فيها الإنسان، ألا و هي المنزل إذ يقول :"... ومن فكري الخاص أن هذه الناحية من أمراضنا هي أيسر معالجة من جميع النواحي إذا أحسنّا تسيير الجهود الفردية في التربية المنزلية، لأن لنا أساسا نبني عليه و لا يعسر جد العسر إحياؤه

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج .1 ، ص 134 .
[2] - م . ن ، ص 53 .

و هو الأخلاق الإسلامية المتوارثة في الجملة و التي نجد معظمها في القرآن في أوضح عبارة و أوضح بيان، ثم الأخلاق العربية المأخوذة من آدابهم التي هي أنفس ما خلفوه لنا من التراث.»[1]

و هكذا يؤكد الإبراهيمي أن التربية المنزلية هي أول ما يجب أن يهتم به الأفراد ويحرصوا عليه لأنهم يملكون أساسا متينا يعتمدون عليه في بناء النفوس و تربية الناشئة وهو الأخلاق الإسلامية الرفيعة المستمدة من القرآن الكريم و التراث العربي و آدابه.

و أما اللازم الثالث و هو العلم الذي تستشرف به الشعوب الحياة الكريمة وتشرئب به إلى مستقبل أفضل وواعد، فقد أولاه الإبراهيمي عناية خاصة إذا كان يشعر أن الأمّة الجزائرية ــ على عهده ــ أمست متخلفة ووجب أن تتدارك هذا التأخر بنشر العلم بين كافة أوساط الشعب. يقول في هذا الشأن: « فالحقيقة الواقعة أننا لا زلنا فيه في مؤخرة الأمم، و غاية ما نبني عليه الأساس في هذا الباب هو هذا الشعور الذي نشاهده في جميع طبقاتنا و أوساطنا بلزوم العلم، و هذه الرّغبة المتأججة في صدور الناشئين منّا للعلم.»[2]

أما اللازم الرابع والأخير في المشروع الاجتماعي النهضوي الذي حدّد الإبراهيمي معالمه وهو المال، فقد جعله الإبراهيمي قرين العلم و ترجمانه، و سنده القوي في تحقيق أهدافه المنشودة في الأمّة. يقول في هذا المعنى: «ودوننا في الوصول إلى القدر الصالح منه عقبات أكبرها فقدان المال، فلو اجتمعنا وتظاهرنا وملأنا الدّنيا أقوالا لما أفادنا ذلك من العلم قليلا و لا كثيرا بدون مال. إذن فالواجب على هيئاتنا المجتمعة محاربة الجهل بالعلم، و لا يتم ذلك إلا بالمال و أين المال و ما أقلّ ما يكفي منه.»[3]

لقد كانت حاجة الجمعية إلى المال أكيدة لإنجاز مشاريعها الاجتماعية و الثقافية، لذلك فضلت حثّ الأغنياء من أبناء الشعب الجزائري إلى بسط اليد و بذل العطاء

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج .1 ، ص 52 و53 .
[2] - م .ن ، ص 53 .
[3] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

لإحياء جهود العاملين في قطاع التعليم الحرّ، ضمانا لبقائه، و تحفيزا على استمراره في أداء رسالته على أحسن وجه. و في هذا الصدد قدّم الإبراهيمي أسلوبا عمليا لمعالجة حاجات المعلمين الاجتماعية للتخفيف من وطأة الفقر و الحرمان عنهم، فدعا إلى إنشاء جمعيات منظمة تقوم بهذا الواجب، يقول في ذلك: « و حسبنا أن نسعى السعي المتواصل لتأسيس جمعيات علمية مكشوفة الجبين عريانة المقاصد تقوم للمعلمين بما عجزوا عنه من المال و تقوم للأغنياء بما طلبوه من الثقة و الثبات و تنوب عن الكل في إدارة المؤسسات إدارة رشيدة تضمن سلامة العقبى و الوصول إلى النتيجة.»[1]

و على هذا النحو من التحليل للقضايا الاجتماعية التي كان يعيشها الشعب الجزائري إبّان الاحتلال، يكون الإبراهيمي قد شخّص أدواء الأمّة و قدّم سبل معالجتها في ضوء المبادئ الإسلامية و ما تقتضيه ظروف العصر.

و مع هذا لم يتوقف اهتمام الإبراهيمي عند القضايا الاجتماعية و الدينية و حسب، بل تعدّاها إلى طرح المسائل السياسية التي كانت تشغل باله في ظل الاحتلال الفرنسي للجزائر.

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م .س، ج.1، ص 54 .

ثالثا: المقالة السياسية:

تحتل المقالة السياسية في كتابات الإبراهيمي مكانة بارزة، فقد اتخذها وسيلة في ميدان المقاومة الوطنية و نضال الكلمة بغية الكشف عن جرائم الاستعمار و ممارساته الدنيئة و أساليبه البذيئة في حق الشعب الجزائري و مقومات حياته المعنوية و المادية.

و تتميز المقالة السياسية عند الإبراهيمي بكونها:« نزالية* في طابعها، تمثل الصراع العنيف الذي دار بين إدارة الاحتلال و الشعب الجزائري ممثلا في جمعية العلماء.»[1] التي أيقظت الأمّة من سبات دام قرنا من الزمان.

و لعل سائلا يسأل: ما علاقة الجمعية بالنضال السياسي، متذرعا بأنّها كانت جمعية اجتماعية الطابع، و ينص قانونها الأساسي** على الإبتعاد عن المسائل السياسية؟ و الجواب على ذلك أن نشاط الجمعية كان يبدو في ظاهره اجتماعيا تربويا لكنه يحمل في العمق أهدافا سياسية لم تعلن صراحة خشية أن تصدّ في وجهها الأبواب، فيقضى عليها في مهدها. وفي هذا الشأن يقول الإبراهيمي موضحا خطة الجمعية إزاء هذه المسألة: « و كانت عوامل تكوينها طبيعية بسيطة عن قصد، لئلا تثير من الاهتمام ما يدعو إلى مقاومتها قبل أن تستوي على سوقها فتكون الضربة القاضية عليها. و لو قضي عليها إذ ذاك لما استطعنا تجديدها في عشرات السنين.»[2]

و يبدو أن هذا المبرر مقنع لأنه لم تكن السلطات الاستعمارية تسمح لجمعية تتبنى السياسة أن تنشط بكل حرية و أمان، فكيف « يكون مصير جمعية العلماء عندئذ لو جعلت العمل السياسي من أهدافها المعلنة؟ إن الجاهل بالأمور أو المتحزب الأعمى هو الذي ينعى على الجمعية عدم إدراج العمل السياسي في قانونها الأساسي.»[3]

---

[1] - محمد مهداوي ، البشير الإبراهيمي ، نضاله و أدبه ، م . س ، ص 128.

[2] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج . 5 ، ص 167.

- ننبه هنا إلى أن الجزء الخامس من الآثار في طبعته الجديدة لدار الغرب الإسلامي، يحتوي على ما نشره أبو القاسم سعد الله في كتابه " في قلب المعركة" من مقالات للإبراهيمي، لم تنشر من قبل في الطبعة القديمة، فظهرت هذه السلسلة الجديدة الموسومة ب "آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي" بأجزائها الخمسة ، و هي مصدر هذا البحث.

[3] - أبو القاسم سعد الله، أفكار جامحة، م . س ، ص 50 .

* المقال النزالي نسبة إلى النزال، ففيه ينازل الكاتب خصومه في الرأي و العقيدة، ينظر: عبد العزيز شرف، أدب المقالة ، م.س، ص 157.

** نصَّ القانون الأساسي لجمعية العلماء الجزائريين ، في فصله الثالث على ما يأتي (لا يسوغ لهذه الجمعية بأي حال من الأحوال أن تخوض أو تتدخل في المسائل السياسية) ينظر: محمد خير الدين، مذكراتي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ج .1 ، ص 123.

لم تكن الجمعية تفقد في يوم من الأيام هدفها السياسي لأنها مارست السياسة منذ أن رفعت شعارها الجامع لمعاني الشخصية الجزائرية من دين و لغة ووطن. ألم يكن شعارها "الجزائر وطننا" صوتا ينادي إلى الجهاد و الثورة ضد المحتل؟ ذلك أن الوطنية متى « صدقت في النفس أقرت كل شيء أجنبي في حقيقته الأجنبية، فكان هذا هو أول مظاهر الاستقلال و كان أقوى الذرائع إلى المجد الوطني.»[1]

نعتقد أن أي مشروع إصلاحي أو تربوي لا يمكن أن يحقق هدفه المنشود في غياب البعد السياسي و الرؤية الواضحة و التصور الكامل و الشامل. يقول الإبراهيمي في هذا الصدد:« نحن سياسيون لأن ديننا يعدّ السياسة جزءا من العقيدة، و لأن زمننا يعتبر السياسة هي الحياة، و لأنها آية البطولة، و لأن وضعها يصير السياسة ألزم للحياة من الماء و الهواء، و لأن السياسة نوع من الجهاد و نحن مجاهدون بالطبيعة فنحن سياسيون بالطبيعة، و لأن الاستعمار الفرنسي بظلمه و عسفه لم يغرس في الجزائر إلا ثمرتين: بغض كل جزائري لفرنسا حتى الأطفال، و صيرورة كل جزائري سياسيًا حتى الأئمة.»[2]

لقد ظهر هذا التوجه الحذر في كثير من كتابات رجال الجمعية – في بداية نشأتها– و أدبائها الذين كانوا ينبهون الشعب إلى سوء المآل الذي سيق إليه في ظل الاحتلال. فقد كان نشاط الجمعية السياسي خلال هذه المرحلة رصينا، هادئا، مرنا يتكيف مع الظروف.

ربما يكون ابتعاد الجمعية عن التعاطي في الشؤون السياسية هو الذي دفع بعض المشككين في مصداقيتها إلى القول إنها غير سياسية و لم تسهم في الثورة التحريرية، بل كانت – في زعمهم– دينية إصلاحية لا غير، تُعنى بالدين و تدعو الناس لأجله، و أن الثورة هي نتيجة نضال حزب معين أو مجموعة من الناس.

إن الذين يعرفون الظروف التي ظهرت فيها جمعية العلماء، يدركون جيدا أن مجرد التفكير في السياسة يفضي بصاحبه إلى الهلاك أو يزج به في السجن في أحسن

[1] - مصطفى صادق الرافعي ، وحي القلم ، م . س ، ص 37 .
[2] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار ، م . س ، ج .4 ، ص261 .

الأحوال، ثم إن أسلوب التربية الذي اعتمدته الجمعية هو أساس الثورة، فكيف يطالب بحقه من لا يعرفه؟ لقد كانت الجمعية تعدّ للثورة بالتخطيط و التكوين و بالتربية على حب الوطن و التضحية من أجله. يقول الإبراهيمي: « إننا أحيينا اللسان العربي، و النخوة العربية، و أحيينا دين الإسلام و تاريخه المشرق، و أعدنا لهما سلطانهما على النفوس و تأثيرهما في العقول و الأرواح، و شأنهما الأول في الاتعاظ و الأسوة، فأحيينا بذلك كله الشعب الجزائري فعرف نفسه، فاندفع إلى الثورة يحطم الأغلال و يطلب بدمه الحياة السعيدة و العيشة الكريمة، و يسعى إلى وصل تاريخه الحاضر بتاريخه الغابر.»[1]

لم تكن الثورة الجزائرية وليدة الصدفة أو قامت بها مجموعة من البائسين و الفلاحين، كما يروّج لها أعداؤها الفرنسيون، و إنّما كانت ثمرة جهود استمرّت عقودا من الزمن، منذ بداية المقاومة الشعبية للاحتلال الفرنسي وصولا عند جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي واصلت تلك الجهود بإعداد جيل ثوري متشرب لمعاني التضحية و الجهاد في سبيل الله و الوطن.

و لأدب الإبراهيمي نصيب موفور من تلك الأعمال الجليلة التي مهّدت للثورة الجزائرية، لأنه لا وجود في نظرنا لثورة سياسية دون أن تسبقها ثورة أدبية* و فكرية تغري الناس بها و تدفعهم إليها، و آيتنا في ذلك أننا حين نفكر في حياة الفرنسيين أثناء القرن الثامن عشر، فإننا نجد «طائفة من الأدباء و الفلاسفة و المفكرين** أنكروا حياة العصر الذي كانوا يعيشون فيه. و حملوا الناس من حولهم على إنكارها و طبعوا هذا الإنكار في نفوس الناشئين و الشباب الذين لم يتم نضجهم بعد. فأنشأوا جيلا جديدا هو

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج . 5، ص 288 .

* يقول الشاعر محمد العيد آل خليفة في هذا المعنى: "ثورة الشعر أنتجت ثورة الشعب وعادت عليه بالآلاء."
ينظر: محمد العيد آل خليفة، الديوان، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط .3 ، الجزائر 1992 ، ص436 .

** نذكر منهم على سبيل المثال:

- "جون جاك روسو":(1712-1778م) كاتب و فيلسوف اجتماعي فرنسي، صاحب كتاب "العقد الاجتماعي" الذي قيل عنه إنه "إنجيل الثورة الفرنسية"

- "فولتير"(1694-1778م): كاتب و شاعر و فيلسوف فرنسي، دعا إلى تمجيد العقل و نقد الأوضاع الاجتماعية في عصره، وطعن في الكنيسة و العقائد الدينية. ينظر: تركي رابح، النظريات التربوية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر 1982. ص 106و125.

الذي ألهب نار الثورة و ملأ بها الدنيا و شغل بها الناس، و غيّر بها حياة فرنسا و أوروبة و أجزاء أخرى كثيرة من العالم.»[1]

و حسب الإبراهيمي أنه غرس فكرة الثورة في عقول الناس فنضجت حتى أصبحت مشروعا حضاريا كبيرا مكّن الجزائريين من نيل الحرية المنشودة واسترجاع السيادة المفقودة. يقول في هذا المعنى: «... و أنا أرجو للثورة الجزائرية التي شاركت في التمهيد لها و تهيئة أسبابها ختاما جميلا تنال به الجزائر حريتها و استقلالها.»[2]

و ضمن هذا المنظور التمهيدي للثورة تندرج جلّ مقالات الإبراهيمي السياسية التي عالجت قضايا داخلية و خارجية، تهمنا منها تلك التي عالجت المسائل الداخلية التي نستعرض أهمّها فيما يأتي:

1- حوادث 8 ماي 1945:

وقعت حوادث الثامن ماي في سطيف و قالمة و خراطة، و بيّنت مدى فظاعة الأعمال الوحشية التي ارتكبت في حق الشعب الجزائري الذي خرج في هذا اليوم في مظاهرات حاشدة تعبيرا عن فرحته بمناسبة احتفال الحلفاء بالانتصار على النازية و الفاشية، و عقد الهدنة مع الألمان.

فقد كان الجزائريون يتطلعون من خلال هذه المظاهرات الشعبية إلى تذكير المحتل الفرنسي بوعوده المعسولة لهم بمنحهم الحرية إن تعاونوا معه غير أنهم لم « يكونوا فهموا حقيقة الاستعمار الذي كان يجثم على كواهلهم، فيما يبدوا، و ذلك على قرب الوساد و طول السواد... فكأن الجزائريين كانوا لا يبرحون يعتقدون أن الاستعمار الفرنسي سيعترف للجزائر بشيء من الجميل.»[3]

و في ذلك اليوم، رفع الجزائريون العلم الوطني على رأس مظاهراتهم، و اللافتات التي تحمل عبارات تحريرية و استقلالية و أخرى تندد بالاستعمار، فتصدّت لهم الشرطة و فتحت النّار على المتظاهرين و حدثت بعدها اشتباكات مع الأوروبيين

[1] - طه حسين ، نقد و خصام ، دار العلم للملايين ، ط .13 ، بيروت 1987، ص155 .
[2] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، م . س ، ج .5 ، ص291 .
[3] - عبد الملك مرتاض ، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر ، م . س ، ج . 2، ص 176 .

سقط فيها قتلى و جرحى من الطرفين، فانتقمت السلطة الاستعمارية انتقاما ضاريا، و أحالت المشهد إلى مجزرة بشرية شارك فيها رجال الجيش و الطيران و المصفحات و البحرية الفرنسية و عدد من المستوطنين الفرنسيين في بعض المدن و القرى، فارتكبوا مذابح فظيعة لم ينج منها رجل و لا امرأة و لا صبي و لا شيخ كبير، و امتدت أيديهم الآثمة إلى إحراق الديار و إتلاف الثمار و نهب أموال و خيرات، و انتهاك الحرمات، مما يصم جبين فرنسا بالعار و يكشف أكذوبة الاستعمار.

لقد هزّت هذه الأحداث المؤلمة الأدباء و الشعراء الجزائريين فكتب الإبراهيمي مقالة واحدة بعنوان: "ذكرى 8 ماي" إحياء لها حتى لا تمحى من الذاكرة الجماعية للشعب الجزائري.

و يعد الإبراهيمي أول أديب جزائري بادر إلى الكتابة عن هذه المأساة الإنسانية حسب ما كشف عنه الدكتور عبد الملك مرتاض بقوله: « لقد تفرّد محمد البشير الإبراهيمي، بكتابة مقالة واحدة، و لكنها رائدة و غير مسبوقة، بالإضافة إلى أنها مصوّرة معبّرة لهذه المناسبة الوطنية... و الحق أن الإبراهيمي هو الذي كان مبادرا إلى الكتابة عن هذه المناسبة عام 1948*.»[1] لكن لماذا تأخر الكتاب و الشعراء الجزائريون عن تناول هذا الموضوع مدة ثلاث سنوات كاملة؟ لماذا لم يصوروا تلك الفظائع في حينها؟ ألم تترك تلك الأحداث الدموية آثارا حزينة عميقة في نفوسهم، فتتحرك عواطفهم و تجيش خواطرهم ليقولوا شيئا عنها ساعتئذ؟

ربما يكون لهول الفاجعة ما أخرس اللسان عن النطق بالحق، و قيّد ملكة الإبداع عن التعبير المناسب، و قد يكون ما تعرضوا له بسبب الحادثة من سجن و قهر و تعذيب**، نتائجه السلبية على هذا الأخير.

---

[1] - ينظر: عبد الملك مرتاض ، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر ، م . س ، ج .2 ، ص 182 .

* نشرت هذه المقالة في العدد 35 من جريدة "البصائر" في 10 ماي 1948، بعد أن عادت البصائر إلى الظهور إثر احتجابها أثناء الحرب العالمية الثانية حتى عام 1947م .

** يصف الإبراهيمي ما حدث له بعد تلك الحادثة الدموية، فقد سيق إلى السجن العسكري بالعاصمة في ليلة 27 ماي 1945، و ظل في زنزانة ضيقة تحت الأرض نحو سبعين يوما ثم ساءت صحته فنقلوه إلى حجرة منفردة على وجه الأرض، و بعد مائة يوم نقلوه في طائرة عسكرية مخفورا إلى السجن العسكري بمدينة قسنطينة لمحاكمته في محكمة عسكرية، و كان كلما انهارت قواه يؤخذ إلى المستشفى العسكري ثم إلى السجن مرة أخرى و لا زال على تلك الحال حتى أطلق سراحه بموجب عفو عام. ينظر: محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، م . س، ج.5، ص 168.

و مهما كانت الأسباب و المبررات التي حالت دون تناولها، فإن تاريخ هذه الحقبة سيظل ناقصا لأن « كثيرا من حقائق الأحداث ضاعت منه و غابت عنه، و الأدب مصرّ لأن الخيال البارع لم ينطلق، إلى اليوم، لإخراج صور هذه المأساة الإنسانية التي يقف العقل حائرا أمام جرائمها.»[1]

لقد كانت مبادرة الإبراهيمي في الكتابة عن الثامن ماي هي من « حمل باعزيز بن عمر من الكتاب و الربيع بوشامة و عبد الكريم العقون من الشعراء، على أن يكتبوا عنه شيئا، و لعل ذلك كان بتوجيه منه و هو الذي كان رئيسا لتحرير جريدة "البصائر" التي استأثرت بتخليد هذا اليوم وحدها.»[2]

و في ضوء ما تقدم يمكن القول إن جرأة الإبراهيمي و شجاعته في الأوقات الصعبة و اللحظات الحرجة أهلته لأن يواجه المحتل في كشف جرائمه و فضح سياسته القائمة على الإبادة و إقصاء الآخر.

و على هذا النهج من الثبات في الموقف، سار الإبراهيمي في نضاله ضد الاستعمار لا يخيفه شيء ولا يضيره أمر في سبيل تحقيق غاية أمته في الحرية و هدف وطنه في السيادة.

فهو في مقالة عن "ذكرى 8 ماي" ، الذي قسمه إلى فقرات، يفضل أن يبدأ بتصوير هذا اليوم الأسود في حياة الجزائريين الذين لاقوا فيه من الظلم و العذاب ألوانا. يقول : « يوم مظلم الجوانب بالظلم، مطرّز الحواشي بالدماء المطلولة، مقشعرّ الأرض من بطش الأقوياء، مبتهج السماء بأرواح الشهداء؛ خلعت شمسه طبيعتها فلا حياة و لا نور، و خرج شهره عن طاعة الربيع فلا ثمر و لا نوْر، و غبنت حقيقته عن الأقلام فلا تصوير و لا تدوين.»[3]

و بعد هذا التمهيد التصويري البارع يستأنف حديثه ضمن هذا السياق موجها خطابه إلى فرنسا الاستعمارية التي تشابهت أيامها في الجزائر بسفك الدماء و الظلم و القهر منذ أن وطئت أقدامها هذه الأرض، لذلك فإن الكاتب لا يستغرب ما وقع

---

[1] - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، م . س ، ص 128 .
[2] - عبد الملك مرتاض، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر، م . س ، ج .2 ، ص 183و 184 .
[3] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار – عيون البصائر – م . س ، ص 333 .

بالأمس أو اليوم ما دام المحتل هو هو، يصر على اقتراف جرائمه البشعة في حق شعب أعزل بكل برودة ووقاحة. يقول الإبراهيمي في هذا المعنى:« يوم ليس بالغريب عن (رزنامة) الاستعمار الفرنسي بهذا الوطن، فكم له من أيام مثله، و لكن الغريب فيه أن يجعل –عن قصد– ختاما لكتاب الحرب، ممن أنهكتهم الحرب على من قاسمهم لأوائها، و أعانهم على إحراز النصر فيها؛ و لو كان هذا اليوم في أوائل الحرب لوجدنا من يقول: إنه تجربة، كما يجرّب الجبان القوي سيفه في الضعيف الأعزل.»[1]

و يتدرج الإبراهيمي في وصف سلوك الاستعمار منتقلا من التعبير الانفعالي إلى إعمال الفكر و العقل و المنطق إذ يقول:« تستحسن العقول قتل القاتل، و تؤيدها الشرائع فتحكم بقتل القاتل؛ و لكن الاستعمار العاتي يتحدى العقول لأنه عدوها، و الشرائع لأنها عدوه، فلا يقوم إلا على قتل غير القاتل...و يغلو في التأله الطاغي، فيتحدى خالق العقول، و منزل الشرائع، و ينسخ حكم الله بحكمه، و رحمة الله بقسوته، فيقتل الشيوخ و الزمنى و النساء و الأطفال.»[2]

و بالأسلوب المنطقي نفسه، يبني الإبراهيمي مقدمات يسوقها من التاريخ ليخلص إلى النتيجة التي يريدها و يقرّها حينما يقارن بين المحتل الفرنسي و بين النعمان بن المنذر الذي كان يغضب يوما و يبتهج يوما. و لكن المستعمر غضبه دائم لا يفتر، و ظلمه نازل لا يرفع، يقول في هذا الصدد: « أين النعمان بن المنذر و يوماه من الاستعمار وأيامه؟ كان للمنذر يومان: يوم بؤس و يوم نُعمى، و بينهما مجال واسع للبخت، و ملعب فسيح للحظ، فإذا طار طائر النحس في أحد يوميه وقع على حائن أتت به رجلاه، أو محدود لم يلتق مع السعد في الطريق، أما الاستعمار فأيامه كلها نحسات، بل دهره ، كله يوم نحس مستمر، مُحيت الفواصل بين أيامه و لياليه.»[3]

أسقطت أحداث الثامن ماي كل قناع و أثبتت أن الاستعمار لا يرعى عهودا و لا يحترم وعودا، فهو كالتاجر لا يرى إلا مصلحته.

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار – عيون البصائر – م . س ، ص 333 .
[2] - م . ن ، ص 334 .
[3] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

و عندما يستحضر الإبراهيمي ما قدمه الجزائريون من تضحيات من أجل فرنسا في حربها ضد الألمان، تجيش عاطفته، و يثور في وجه الاستعمار قائلا:« لك الويل أيها الاستعمار! أهذا جزاء من استنجدته في ساعة العسرة فأنجدك، واستصرخته حين أيقنت بالعدم فأوجدك؟ أهذا جزاء من كان يسهر و أبناؤك نيام، و يجوع أهله و أهلك بطان، و يثبت في العواصف التي تطير فيها نفوس أبنائك شعاعا؟ أيشرفك أن ينقلب الجزائري من ميدان القتال إلى أهله بعد أن شاركك في النصر لا في الغنيمة و لعلّ فرحه بانتصارك مساوٍ لفرحه بالسلامة، فيجد الأب قتيلا، و الأم مجنونة من الفزع، و الدار مهدومة أو محرقة، و الغلة متلفة، و العرض منتهكا، و المال نهبا مقسما، و الصغار هائمين في العراء؟ »[1]

و يبدو الإبراهيمي في هذه الفقرة ساخطا على المحتل، منددا به، مؤنبا له على الجزاء الذي قابل به الجزائريين بعد انتصاره في الحرب العالمية الثانية، و قد « رجع المجندون الجزائريون في الجيش الفرنسي إلى بلادهم و قد تعلقت آمالهم و آمال شعبهم على نتائج هذه الحرب التي ساهم فيها الجزائريون – بالرغم منهم– بحوالي ثمانين ألف قتيل سقطوا في مختلف ميادين القتال في القارة الأوروبية.»[2]

لقد كان على فرنسا– و هي تحتفل بانهزام النازية و الفاشية حينئذ– أن تستقبل هؤلاء المجندين الذين صنعوا لها النصر و الحياة، بالورد و الأزهار، و أن تفتح لكل الجزائريين آفاقا واعدة للحرية و الأمن و السلام، تترك في نفوسهم أثرا مميزا يدل على اعتراف المحتل بالجميل، كما يكون جزاء الإحسان بالإحسان، و لكن عوض هذا المنطق الذي تستسيغه العقول و تتفق معه القيم و الشرائع السماوية، عَكَسَ المحتل الآية و قلب للأمّة ظهر المجن، فأباح سفك دمها في شهر كان الناس في بقاع كثيرة من العالم يحتفلون بعيد النصر.

و إذا كان هذا اليوم المشؤوم في تاريخ الجزائر، يكشف سيرة فرنسا الاستعمارية المتوحشة التي لا تحيد، و قاعدتها الدموية التي لا تتخرم، فإن هذا اليوم

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار –عيون البصائر- م . س ، ص 335 .
[2] - تركي رابح ، الشيخ عبد الحميد بن باديس – رائد الإصلاح و التربية في الجزائر- م . س ، ص 56 .

سيظل محفورا في ذاكرة الأمّة و مخلفا في تلافيف وعيها جراحا غائرة لا تندمل مع مر الزمن. وهو ما عبر عنه الإبراهيمي في قوله: « يا يوم ! ...لله دماء بريئة أريقت فيك، و لله أعراض طاهرة انتهكت فيك، و لله أموال محترمة استبيحت فيك، و لله يتامى فقدوا العائل الكافي فيك، و لله أيامى فقدن بعولتهن فيك، ثم كان من لئيم المكر بهن أن مُنعن من الإرث و التزوج، و لله صُبابة أموال أبقتها يد العائثين، و حُبست فلم تُقسم على الوارثين.»[1]

و يختتم الإبراهيمي مقالته بالحث على التذكر و عدم النسيان، تخليدا لهذا اليوم في نفوس الجزائريين و في التاريخ، و ذلك في قوله: «يا يوم ... لك في نفوسنا السمة التي لا تمحى، و الذكرى التي لا تنسى، فكن من أية سنة شئت فأنت يوم 8 ماي و كفى. و كل مالك علينا من دَين أن نحي ذكراك؛ و كل ما علينا لك من واجب أن ندوّن تاريخك في الطروس لئلا يمسحه النسيان من النفوس.»[2]

و كأن الإبراهيمي، من خلال استحضاره لهذا التاريخ، يدعو إلى استمرار المقاومة بأساليب أخرى بعدما تبيّن للشعب أن وعود فرنسا ليست إلا خداعا و غرورا. و بالفعل، فقد كان لأحداث الثامن ماي أثر كبير في تغيير مسار الحركة الوطنية نحو تبني الخيار المسلح في مواجهة الاستعمار.

2- السياسة و السياسيون:

تناول الإبراهيمي موضوع السياسة بالنقاش و التحليل في أكثر من مقال، مبينا وجهة نظره حول مفهومها الصحيح و كيف تقلّبها فرنسا في غير موضعها و تصرفها إلى غير معناها لخدمة مصالحها الدنيئة. فمعنى السياسة عند المستعمر في الجزائر « يتسع إلى أقصى حدود الاتساع، فيحمل ما قارب و ما باعد، و ما جانس و ما خالف، و ما أطّرد و ما شذّ؛ و يضيق إلى أقصى حدود الضيق، فتلتوي مسالكه، و تنسدّ مجاريه، و تتهافت أقيسته، و لا يتبيّن فيه مورد من مصدر، كل ذلك بالتبع لأهواء الاستعمار المتباينة، و أهويته المتناوحة؛ و الاستعمار كله رجس من عمل الشيطان؛

[1] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار –عيون البصائر- م . س ، ص335 .
[2] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

فغير غريب أن يكون من خصائصه تغيير الأوضاع و المعاني، ليصحح لنفسه الألوهية المزورة و لو إلى حين.»[1]

لقد بات واضحا أن المحتل لا يؤمن بالسياسة إلا عندما تكون نتائجها في صالحه، و تطبع معانيها على مقاسه و هواه، فهو يستعملها لتحريك دواليب حكمه الجائر، و تصريف شؤون الناس بالظلم و القهر، لذلك تبدّل و تسّف عن معاني الإنصاف و الإحسان، يقول الإبراهيمي في هذا الصدد: « و لكن السخافة كلها في هذا التبدّل الذي أصبحت معه كلمة السياسة كلفظ "البعبع" – هذا يخوف به الصغار، ولا حقيقة له، و تلك يخوف بها الكبار، و لا معنى لها؛ و ما جاء هذا البلاء إلا من الوضعية الشاذة التي بني عليها نظام الحكم الاستعماري على المسلمين في الجزائر، حكومة "لائكية" في الظاهر، مسيحية في الواقع، جمهورية على الورق، فردية في الحقيقة: تجمع يديها على دين المسلمين و دنياهم، و تتدخل حتى في كيفية دفن موتاهم.»[2]

و إذا كان مفهوم السياسة يتبدى على هذا النحو عند المستعمِر، فإن له معنى آخر عند المستعمَر، يعبر عنه الإبراهيمي في « إحياء المقومات التي ماتت أو ضعفت أو تراخت، من دين و لغة و جنس و أخلاق و تاريخ و تقاليد، و تصحيح قواعدها في النفوس، ثم المطالبة بالحقوق الضائعة في منطق و إيمان، ثم الإصرار على المطالبة في قوّة وشدّة، ثم التصلب في الإصرار في استماتة و تضحية، مع اختيار الفرص الملائمة لكل حالة؛ درجات بعضها فوق بعض.»[3]

هكذا يطرح الإبراهيمي رؤية سياسية حكيمة في كيفية المطالبة بالحقوق الوطنية المسلوبة وفق مراحل متدرجة تنطلق من استعادة الوعي الحضاري لتنتقل إلى مرحلة المغالبة، مع مراعاة اختيار الوقت المناسب لكل مرحلة من تلك المراحل، فلكل شيء إبّان.

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ص 59 .
[2] - م.ن ، ص 60 .
[3] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

و على هذا الأساس، فإن تنمية الوعي الحضاري مقدم عنده على الممارسة السياسية، ذلك أن الأول دعامة للثاني. و يشرح الإبراهيمي هذه الفكرة أكثر فيقول: « إن جمعية العلماء تعمل لسياسة التربية لأنها الأصل، و بعض ساستنا – مع الأسف – يعملون لتربية السياسة، و لا يعلمون أنها فرع لا يقوم إلا على أصله؛ و أي عاقل لا يدرك أن الأصول مقدمة على الفروع، و إن الاستعمار لأفقه و أقوى زكانة [فراسة]، و أصدق حدسا، من هؤلاء حين يسمي أعمال جمعية العلماء سياسة؛ و ما هي بالسياسة في معناها المعروف و لا قريبة منه، و لكنه يسميها كذلك لأنه يعرف نتائجها و آثارها، و أنها اللّباب و غيرها القشور؛ و يعرف أنها إيجاد لما أعدَم، و بناء لما هدَم، و زرع لما قلع، و تجديد لما أتلف، و في كلمة واحدة، هي تحدٍ صارخ لأسلوبه.»[1]

إن تشديد الإبراهيمي على مسألة التربية أولا لدليل على عمق إيمانه الراسخ بأن السياسة لا تكون إلا بعد أن تنضج الأمّة و تستكمل وعيها الفكري و العقائدي و تتهيأ لها الظروف المواتية فتطالب بحقها عن قناعة و بصيرة.

لذلك كانت التربية أفضل وسيلة لمواجهة الاستعمار، لأنها تبني ما هدم و توجد ما أفنى و تعدّ جيلا يحقق أمل الأمّة الواعد.

و إذا كان المحتل يناصب لجمعية العلماء العداء و يمكر، فلأنه كان يعلم بمكانتها في نفوس أفراد الشعب الجزائري، و قدرتها على بث الوعي بين صفوفه، و مكنتها في تأليبه ضد سياستها، وكان يعلم أيضا أن « سيأتي يوم يصيح فيه صائح بكلمة " حقي" فقدّر لذلك اليوم، و لذلك الصائح، أنهما لا يأتيان، حتى لا تكون هذه الأمّة في موضعها من الأرض لأنها أضاعته، و لا في موضعها من التاريخ لأنها نسيته؛ و لعمري إذا لم توجد الأمّة فما صياح الصائحين إلا نفخ في رماد .»[2]

أما السياسة كما كانت تمارسها بعض الأحزاب الوطنية آنذاك، في ظل السلطة الاستعمارية، فإنّها لا تخدم – في نظر الإبراهيمي – مصلحة الوطن بقدر ما تجني عليه. إذ يرى أن أصحابها « كلهم يتسابقون إلى غاية واحدة، هي كراسي النيابات و ما

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار – عيون البصائر- م . س ، ص 65 .
[2]- المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

يتبعها من الألقاب و الرتبات؛ و إذا كل شيء مبدأه السياسة فنهايته التجارة؛ و الأعمال بخواتمها.»[1]

و لعل هذه الرؤية التي يصدر عنها الإبراهيمي تنم عن فهم عميق للواقع السياسي القائم آنذاك في الجزائر، و عن إستراتيجية الجمعية في انتقاء الأولويات و تقديم المصالح العامة على المصالح الفردية و الحزبية الضيقة. غير أن الإبراهيمي تلافيا للتجريح لم يسم الأحزاب بعينها في مقارنة مواقفها بموقف الجمعية، و حتى لا يحيد بالصراع عن غاياته و حدوده فيتحول إلى صراع داخلي يستهلك الطاقات الوطنية، و يقوي جبهة المحتل.

و في السياق نفسه، يواصل الإبراهيمي انتقاده لنهج الأحزاب الوطنية حين يقارنها بنظيرتها في أوربا فيقول: « إن من الغفلة و البله أن نقيس أحزابنا بالأحزاب الأوروبية؛ فإن تلك الأحزاب ظهرت في أمم استكملت تربيتها و صحّحت مقوماتها، بدعوة دعاة جمعوا الكلمة، و علماء أحيوا اللغة، و معلمين راضوا الأجيال على ذلك، و أين نحن و أحزابنا من ذلك؟»[2]

و كأن الإبراهيمي بتسجيله لهذه الهوة الواسعة التي تفصل بين الأحزاب في أوروبا و تلك الموجودة في الجزائر، يهدف إلى حثّ الحركة الوطنية على انتهاج مسار الأحزاب الغربية و مراجعة منطلقاتها السياسية و تصوراتها الإستراتيجية للمستقبل.

و يعلن الإبراهيمي أمله في النهوض بالأمّة على تربية الشباب تربية أساسها العلم و العمل فيقول:« هذه الطلائع التي هي آمال الأمّة، و مناط رجائها، و التي لا تحقق رجاء الأمّة إلا إذا انقطعت إلى العلم و تخصصّت في فروعه، ثم زحفت إلى ميادين العمل مستكملة الأدوات تامة التسلّح، تتولى القيادة بإرشاد العلم، و تحسن الإدارة بنظام العلم، فتثأر لأمّتها من الجهل بالمعرفة، و من الفقر بالغنى، و من الضعف بالقوة، و من العبودية بالتحرير؛ و تكتسح من ميدان الدين بقايا الدجالين،

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار – عيون البصائر- م . س ، ص 60 و61 .
[2] - م . ن ، ص 66 .

ومن ميدان السياسة والنيابة بقايا السماسرة والمتجرين، ومن أفق الرياسة بقايا المشعوذين و الأميّين.»[1]

و تتأكد فكرة الإبراهيمي هذه في رده على أولئك السياسيين الذين كانوا يقدمون مبدأ الاستقلال على العلم فيقول: « إنّها – و الله – لجريمة يقيم بها مرتكبوها الدليل على أنهم أعداء للعلم، و قطاع لطريقه، أم يقولون:" لا علم بدون استقلال" فيعاكسون سنة الله التي تقول: " لا استقلال بدون علم"، أم يقولون ما قاله كبير منهم: " إن محمدا لم يأت بالعلم و إنما أتى بالسياسة" و " إن روسيا لم تفلح بالعلم و إنما أفلحت بالسياسة." »[2]

و هكذا استطاع الإبراهيمي أن يدحض ادعاءات السياسيين بإمكان إنجاز الاستقلال دون تحصيل وعي فكري و حظ من العلم و المعرفة. و هو ما أثبتته التجربة التاريخية إذ أن نجاح الثورة الجزائرية في تحقيق الاستقلال ما كان ليتم لو لا الإنجازات التي حققتها الجمعية في تكوين رعيل من الإطارات العلمية و السياسية التي قادت مسيرة الثورة الجزائرية.

3- التجنيس و الاندماج:

لعله من الأمور الثابتة تاريخيا أن فرنسا الاستعمارية كانت تعدّ الجزائر جزءا لا يتجزأ من الدولة الفرنسية منذ احتلالها أرض الجزائر. لذلك نصّت قوانينها الصادرة سنة 1865 بموجب مرسوم إمبراطوري، أن الجزائري لا يتمتع بالحقوق المدنية و السياسية إلا إذا تحصل على الجنسية الفرنسية.[3]

لكن جمعية العلماء عارضت بشدة سياسة التجنس و الاندماج* المنتهجة من قبل المحتل منذ نشأتها، خوفا على المجتمع الجزائري من الذوبان و الاضمحلال، و أكدت في مقابل ذلك على المحافظة على الهوية الإسلامية للشعب الجزائري.

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار –عيون البصائر- م . س ، ص 68 .
[2] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
[3] - ينظر: رابح تركي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية ، م . س ، ص46 .
* الاندماج: (L'assimilation) هو التماثل بين المستعمرة و الدولة الأصل في نظام الحكم و التسوية بينهما، و يؤكد مذهب الاندماج على هذه الفكرة و هي أن إقليم ما وراء البحار هو امتداد لدولة الأصل ، لذا يجب أن يوضع تحت طائلة النظام نفسه هناك. ينظر: محمد حسنين ، الاستعمار الفرنسي ، م . س ، ص 33 .

و الحقيقة أن فكرة الاندماج، في أول أمرها، وجدت لها آذانا صاغية في رحاب المتجنسين الذين كانوا « يرغبون في رؤية جميع الجزائريين يتمتعون بالجنسية الفرنسية، ليتخلصوا من وضعهم الشاذ في المجتمع الجزائري حيث ينظر إليهم كأقلية ملعونة، و كان من أبرز دعاة الاندماج، "الزناتي" صاحب جريدة "صوت الأهالي". " La voix indigène " »[1]

لقد حاولت النخبة الجزائرية ذات التوجهات الثقافية المفرنسة أن تقنع الجزائريين بضرورة الاندماج في الكيان الفرنسي مع الاحتفاظ بالأحوال الشخصية الإسلامية، مبررين مسعاهم ذلك بأنه السبيل الوحيد للتخلص من الاستعمار و قوانين الاندجينا، و يقولون إنها مرحلة ينبغي اجتيازها قبل تحقيق الاستقلال. و كان يتصدر هؤلاء الدكتور "بن جلول" و" فرحات عباس."[2]

لكن جمعية العلماء، قاومت هذا الطرح التغريبي بشدة من على منابرها الإعلامية. و لعل أقوى ردّ على هذه الحملة الاندماجية تمثّل في إصدارها فتوى بتحريم التجنس على الجزائريين* ،و عُدّت هذه الفتوى في حينها موقفا جريئا من قبل الجمعية، و تحديا سياسيا للسلطة الاستعمارية عبّر عنه الإبراهيمي بقوله: « حاربت سياسة الاندماج في جميع مظاهرها، فقاومت التجنيس، و نازلت أنصاره الحُمّس و دعاته المقاويلَ، حتى قهرتهم و أخرستهم، و قطعت الحبل في أيديهم، ثم أفتت فتواها الجريئة فيه، يوم كانت الجرأة في مثل هذه المسائل بابا من العذاب، فكان ذلك منها تحديا للاستعمار، و إبطالا لكيده، و تعطيلا لسحره، و أثبتت بتلك المواقف للجزائر إسلاميتها.»[3]

و قد كان لهذه الفتوى صدى مجلجل في أوساط الشعب الجزائري، أخرس ألسنة الاندماجيين. و لم تكتف الجمعية بهذا الإجراء، و إنما كثّفت نشاطها الدعوي و الإعلامي لدحض تلك الطروحات الغربية عن طبيعة المجتمع الجزائري.

---

[1] - أحمد الخطيب ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، م . س ، ص 240.

[2] - ينظر: المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

[3] محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار – عيون البصائر- م . س ، ص 69 .

* للاطلاع على محتوى الفتوى الصادرة في 14 جوان 1938، ينظر: تركي رابح ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية- 1931/1956- المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ، ط.1، الجزائر 2004 ، ص 49 و 50 ،

لم تعد مقاومة الاحتلال، من أجل إحياء المقومات التي استهدفتها معاول الاستعمار، أسلوب عمل لدى الإبراهيمي، بل أصبحت غاية مفضلة و ضالة منشودة تبذل دونها رقاب و أموال، و كل نفيس و غال. ذلك أن وجود الأمة يتوقف على تثبيت مقوماتها و تصحيح عقيدتها، كما يزول بانعدامها و ينتهي بانتفائها. يقول الإبراهيمي في هذا الشأن:« و لا توجد الأمّة إلا بتثبيت مقوماتها من جنس، و لغة، و دين، و تقاليد صحيحة، و عادات صالحة، و فضائل جنسية أصيلة، و بتصحيح عقيدتها و إيمانها بالحياة، و بتربيتها على الاعتداد بنفسها، و الاعتزاز بقوتها المعنوية، و المغالاة بقيمتها و بميراثها، و بالامعان في ذلك كله حتى يكون لها عقيدة راسخة تناضل عنها، و تستميت في سبيلها، و ترى أن وجود تلك المقومات شرط لوجودها؛ فإذا انعدم الشرط انعدم المشروط.»[1]

إلى هذا الحد كان الإبراهيمي حريصا على إحياء الذاتية الجزائرية في نفوس الجزائريين، أمينا في تثبيت أسسها، مستميتا في الدفاع عنها، لأنها تمثل –ببساطة– الشخصية الوطنية بسماتها و خصائصها التي تميزها عن غيرها من الأمم.

4- الديمقراطية:

إن مفهوم الديمقراطية القائم على أن الشعب هو مصدر كل السلطات، و أنه السيد في الحكم و التشريع ، أصبح في ممارسات الاحتلال الفرنسي شعاراً أجوف لا يؤدي إلى غرضه الشريف ، و لا يحقق معناه النبيل على أرض الجزائر. فباسم الديمقراطية تقترف أبشع الجرائم و تهدر أبسط الحقوق، و تنتهك الحرمات، و هذا ما أدى بالإبراهيمي إلى انتقاد ديمقراطية فرنسا بقوله:« لم تظلم هذه الكلمة ما ظُلمت في هذه العهود الأخيرة، فقد أصبحت أداة خداع في الحرب و في السلم، جاءت الحرب فجندها الاستعمار في كتائبه، و جاء السلم فكانت سرابا بقيعة [فلاة]، و لقد كثر أدعياؤها و مُدّعوها و الداعون إليها؛ و المدّعي لها مغرور، و الداعي إليها مأجور،

[1] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار –عيون البصائر- م . س ، ص 64 .

و الدعي فيها لابسٌ ثوبَي زور. أصبح استعمار الأقوياء للضعفاء ديمقراطية، و تقتيلهم للعزّل الأبرياء ديمقراطية، و نقض المواثيق ديمقراطية.»[1]

لم تكن فرنسا الاستعمارية ديمقراطية إلا في مظهرها الخارجي الذي تتكلف في تزيينه و تلميعه لمغالطة الرأي العام و مخادعته في الداخل و الخارج. أما في جوهرها، فكانت « مستبدة تأخذ بالقوّة، و تضرب بالعنف، لا تبالي أن تدوس المبادئ و المقدسات لنصرة الباطل، و خذلان الحق. و إن صنيعها هذا يفسد على الناس في الجزائر أمور دينهم و دنياهم جميعا، فكأن هذه الهيئة التي كانت تهيمن على الجزائر يومئذ، لم تك إلا شرذمة من المفسدين.»[2]

ويشبه الإبراهيمي ديمقراطية فرنسا بصلاة المنافقين الذين يبرزون الخير و الرشاد، و يضمرون الشر و الفساد، فيقول: « إن الديمقراطية عند حكومة الجزائر كصلاة المنافقين، لا تزكي نفسا، و لا تنهى عن فحشاء. و تفضلها صلاة المنافق بأن فيها من الصلاة مظهر الصلاة فإن الديمقراطية–عند الأمم التي تنتحلها و تزعمها لنفسها– تتجلّى في عدة مجالى أرفعها الانتخاب، فهو عندهم العنوان الواضح للحرية، و الرهان اللائح على إطلاق الإرادة، و الميزان العادل لاختيار الشعب.»[3]

و إذا كانت الانتخابات التي دأبت فرنسا على إجرائها في الجزائر أيام الاحتلال، تعتبرها ديمقراطية، تمثل إرادة الشعب، فإنها لا تعدوا أن تكون لعبة مسلية تعبث بها يد المكر و التزوير، فتصير نتائجها إلى ما يخدم مصالح فرنسا و طموحاتها الاستعمارية.

يحدث هذا، و العالم المتواطئ مع قوى البغي و الطغيان يجتمع في باريس تحت مظلة الأمم المتحدة، و يعلن إقراره لائحة "الإعلان العالمي لحقوق الإنسان" في 10 ديسمبر 1948م.*

وهنا نسأل: كيف تسمح فرنسا لنفسها احتضان دورة أممية في عقر دارها للإعلان عن حقوق الإنسان ، وهي في الجزائر تحتل بلدا، و تغتصب أرضا، و تصادر

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار –عيون البصائر- م . س ، ص 508.
[2] - عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر، م . س ، ص131 .
[3] - محمد البشير الإبراهيمي ، م . ن ، ص 343 .
* ينظر: فاضل الجمالي، نحو تجديد البناء التربوي في العالم الإسلامي ، م . س ، ص 25 .

حقوق شعب بأكمله ظلما و قهرا، و تسومه سوء العذاب؟

أليس من المنطق الذي تستسيغه العقول البشرية، و تؤيده الشرائع السماوية، أن تعلن فرنسا منح استقلال الجزائر و سائر مستعمراتها ساعة إقرارها باحترام حقوق الإنسان؟ لكنها لم تفعل، ذلك أنها كانت تعتبر الجزائر قطعة منها، و شأنا داخليا لا يجوز مناقشته في المحافل الدولية، و هي على هذا النحو كانت تتجاهل حقائق التاريخ، و تتمادى في لجم الأصوات المطالبة بالاعتراف بحق الشعب الجزائري في تقرير مصيره.

تلك هي أهم الموضوعات التي عالجتها المقالة عند الإبراهيمي، باعتبارها أداة إعلامية و أدبية و تربوية و سياسية، كان لها دورها الفعال في التأثير في الساحة الوطنية بما كانت تملكه من خصائص فنية راقية سنتناولها في المبحث التالي.

رابعا : الخصائص الفنية للمقالة عند الإبراهيمي:

يعد الإبراهيمي أحد كبار الكتاب المقاليين العرب، الذين نهضوا بهذا الفن ووثبوا به إلى مستوى راق يعيد لهذا الفن التراثي جلاله و رونقه. فقد استطاع هذا الفن أن يؤدي على يده رسالته الحضارية، و يثبت أن وظيفتها الإعلامية لا تعني بالضرورة تغييب قيمتها الجمالية. و عليه، فقد اتسمت المقالة عنده بجملة من الخصائص الفنية التي يمكن إجمالها فيما يأتي:

1- السخرية.

2- النزعة التعليمية.

3- قسوة الخطاب وحدته.

4- أسلوب المقارنة.

5- الاقتباس و التضمين.

و فيما يأتي، تحليل لهذه الخصائص:

1- السخــرية:

يعد أسلوب السخرية أبرز هذه الخصائص التي وظفها الإبراهيمي في مقالاته لمخاطبة الخصوم بقصد كشف دسائسهم و فضح مخططاتهم و إحباط أعمالهم حتى يصدعوا للحق.

غير أن السخرية في أدبه « درجات يرتفع بعضها فوق بعض، من التهكم الساخر إلى الاقذاف المفحش، و هي تتبع في ذلك درجة انفعال الكاتب و ثورته.»[1] فقد تصل أحيانا إلى مستوى اللهجة العنيفة، ذلك أن استخدام أسلوب السخرية – كما يكشف "عبد الملك مرتاض"– هو في ذاته « ضرب من العنف، فإنما العنف، وقصُ الخصم بقذائف من الكلام، و قصمُ ظهره بسهام من القول؛ في حين أن السخرية تهكم معنوي شديد اللذع، ثقيل الوطء، عنيف الوقع.»[2] و من ذلك قوله في أهل الطرق و مشائخها: « و لعل أسخف طور مر على الطرقية في تاريخها هو هذا الطور الأخير. فقد أصبح من أحكامها أن شيخ الطريقة لا يلد إلا شيخ طريقة. و هم – قطع الله دابرهم– لا يعرفون من السنّة إلا تناكحوا تناسلوا إلخ، فكثر نسلهم و كثرت بكثرته (مشائخ الطرق).»[3]

و من الشخصيات التي تعرض لها الإبراهيمي بالتهكم و السخرية الحادة فيما يشبه السباب أو الشتم، "عبد الحي الكتاني" و" محمد العاصمي". فأما الأول فقد أفرد له مقالة بعنوان: "عبد الحي الكتاني ما هو؟ و ما شأنه؟" جاء فيها :« و على هذا يقال في جواب من هو عبد الحي؟ هو مكيدة مدبّرة، و فتنة محضرة.»[4]

أما الثاني الذي عيّنته الإدارة الفرنسية مفتيا للمذهب الحنفي بمدينة الجزائر وقتئذ، فقد هاجمه الإبراهيمي في مقال بعنوان: "التقرير الحكومي العاصمي–ملاحظات عامة–" يستهله بالحديث عن الإدارة الفرنسية و مطبختها العجيبة التي طبخت تقرير العاصمي، فيقول:« في الإدارة الجزائرية العليا مطبخة – ليست كالمطابخ– تطبخ فيها

---

[1] - محمد المهداوي ، البشير الإبراهيمي نضاله و أدبه ، م . س ، ص 140 .
[2] - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، م . س ، ص 384 .
[3] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار ، م . س ، ج .1، ص 176
[4] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، عيون البصائر، م . س ، ص 539 .

الآراء و الأفكار في كل ما دقّ و جلّ من شؤون المسلمين، والقائمون على هذا المطبخ طهاةٌ يحسنون الفن.»[1] ثم يردف الإبراهيمي قائلا: "في هذا المطبخ طبخ التقرير العاصمي ملفوفا بتوابله، و فيه ولد محفوفا بقوابله؛ فجاء كما رأيناه و فيه طعم الإدارة و لونها و ريحها، و لو نطق لشهد بالمطبخ و الطابخ.»[2]

ثم تخيل الكاتب أن الإدارة الفرنسية أنشأت معملا لصنع الرجال، و فيه صنع العاصمي. فهو على هذه الحال آلة صماء، فاقدة للإرادة، يحركها صاحبها كما يشاء، يقول في ذلك: « و في تلك الإدارة نفسها معمل لصنع الرجال على أشكال و مقادير مخصوصة، لا يشترط في المادة الخام إلا أن تكون ذات قابلية و استعداد، و طوع و انقياد... و في هذا المعمل صنع العاصمي و امتحن، فكشف الامتحان عن استيفاء الخصائص و الصلاحية للاستعمال، و أصبح –بعد استكمال التجربة و الاختبار– موظفا في إحدى هذه الوظائف (المدّخرة لوقت الحاجة و لمن تدعو إليهم الحاجة) و هي الإفتاء الحنفي بالجزائر، أي مفتي الجامع الحنفي بالجزائر، إذ لم يبق من الحنفية فيها إلا جامع يحمل هذه النسبة.»[3]

و من تعنيف اللهجة، يتدرج الإبراهيمي إلى استخدام عبارات قاسية و مؤذية في قرع الخصم و تجريحه تصل حد الإقذاع المفحش. و يتجلى ذلك في وصف العاصمي بـــ « ابن السياسة لصلبها و لرحمها، و لكنه ولد من غير السبيل المعتاد، على رأي عبد الحي الكتاني.»[4]

غير أن الكاتب لم يستهدف بسخريته هذه الأشخاص في ذواتهم بقدر ما كان يستهدف المشروع الاستعماري الذي وكلوا به، فغدوا أبواقا له و حراسا عليه. يتضح ذلك فيما ذكره في صدر مقالة له بعنوان: "هل دولة فرنسا لائكية؟" و هو تعليق على كلمات في خطبة ألقاها الوزير الوالي "نيجلان" بعين صالح. جاء فيها: « لم نتعرّض في يوم من الأيام لأعمال الوالي العام الحالي، و لم نعلّق على خطبه بحرف، لأننا قوم نعمد في مقاومتنا إلى المبادئ لا إلى الأشخاص، و لا نتوجه في حربنا إلى رجال

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، عيون البصائر، م . س ، ص 87 و88.
[2] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
[3] - م . ن، ص 88 .
[4] - م . ن ، ص 90 .

الاستعمار، بل إلى الاستعمار الذي يتكلمون باسمه، فإذا زال الاستعمار رجع هؤلاء الرجال ناسا كالناس، أو ما توا كمدا عليه.»[1]

و مما لا ريب فيه أن أسلوب السخرية عند الإبراهيمي يعدّ ملمحا فنيا رائقا، تتجلى فيه النكتة الطريفة، و العبارة الخفيفة، و الحجة الدامغة، و الحقيقة البلجاء، و الحس النقدي العميق، و الأسلوب المتألق الجميل. و قد ساعده على ذلك « اطلاع واسع على عيون الأدب العربي و أمهاته، كما ساعدته حافظة نادرة تختزن ما تقرأ و تلتقط ما تسمع.»[2] ناهيك عن ثقافته المتبحرة في علوم الدين و اللغة.

2- النزعة التعليمية:

يتميز خطاب الإبراهيمي بنزعته التعليمية التي تخص القضايا الوطنية المصيرية، و تتناول التربية و التعليم و التوجيه و الإرشاد. و قد تجلّت هذه « النزعة في معظم المقالات التي كتبت خلال هذه الفترة في " الشهاب" و "البصائر" بسلسلتيها الأولى و الثانية. و قد تتمثل في مقالات الإبراهيمي الذي كان يحشوها بمعلومات كثيرة، يغنم القارئ منها و يفيد.»[3] و لعل امتلاك الكاتب لثقافة موسوعية عميقة في الأدب على وجه أخص، أعانه على استثمار إمكانات اللغة بشكل بارع. و يمكن أن نمثل لذلك بهذه الفقرة التي عبّر فيها عن رفضه المطلق و تصديه الصارم للجنة "فرانس – إسلام " و التي دعا إلى تكوينها المستشرق الفرنسي" لوي ما سنيون" محاولا بذلك تجسيد دمج المجتمع الجزائري المسلم في الكيان الفرنسي، إذ يقول: « كلمتان أكرهتا على الجوار في اللفظ و الكتابة، فجاءت كل واحدة منهما ناشزة على صاحبتها، نابية عن موضعها منها، لأنهما وقعتا في تركيب لا تعرفه العربية، و لا يقبله الذوق العربي.»[4] و يقصد عبارة " فرانس – إسلام " التي لا تقبلها التراكيب العربية النحوية المختلفة، فيقول : « في العربية تركيب الإسناد، و الإسلام لا يرضى أن يُسند إلى فرنسا الاستعمارية، و لا أن تسند هي إليه؛ و في العربية التركيب الإضافي،

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار- عيون البصائر- م . س ، ص 95 .
[2] - عبد الله ركيبي، تطور النثر الجزائري الحديث (1974/1930) ،ط.3 ،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر1983 ، ص 149 .
[3] - عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، م . س ، ص 390 .
[4] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار – م . ن ، ص 350 .

و الإسلام لا يسمح أن يضاف إلى فرنسا، و لا أن تضاف هي إليه؛ و في العربية التركيب الوصفي، و الإسلام لا يقبل أن يوصف بالفرنسي و لا أن توصف فرنسا بـــ"الإسلامية ؛ و في العربية التركيب المزجي، و الإسلام و فرنسا كالزيت و الماء، لا يمزجان إلا في لحظة التحريك العنيف، ثم يعود كل منهما إلى سنّته من المباينة و المنافرة "[1] إنه تفكير سليم يعتمد البرهنة العقلية المستوحاة من القواعد النحوية لإثبات استحالة إيجاد علاقة بين الإسلام و فرنسا. و بهذا المنطق السديد و البيان الساحر، تنساب اللغة عند الإبراهيمي في كثير من كتاباته الأدبية.

3- قسوة الخطاب و حدته:

من خصائص اللغة عند الإبراهيمي، قسوة الخطاب و حدته في مواجهة المحتل بغرض تعريته من كل القيم الإنسانية التي يدعيها في الظاهر و يعمل على مخالفتها في الواقع، فيصفه بأبشع الصفات و أقبح الصور كقوله: " الاستعمار سل يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح."[2] و كقوله أيضا: " و الاستعمار كله رجس من عمل الشيطان."[3]

4- أسلوب المقارنة:

و كذلك نجد الكاتب يعتمد أسلوب المقارنة بين الأوضاع المماثلة لتوضيح أفكاره و تجلية معانيه، فقد كان هذا الأسلوب يشكل قاعدة فكرية يمكن إدراجها في منهج التفكير عند الرجل، فقد عقد سلسلة طويلة من المقارنات خلال مقالاته، نذكر منها:

- بين الحاكم و المحكوم. " إننا إذا حاكمناك إلى الحق غلبناك، و إذا حاكمتنا إلى القوة غلبتنا؛ و لكننا قوم ندين بأن العاقبة للحق لا للقوة."[4]

- بين الأحزاب الجزائرية و الأحزاب الأوروبية. "إن من الغفلة والبله أن نقيس أحزابنا بالأحزاب الأوروبية؛ فإن تلك الأحزاب ظهرت في أمم استكملت تربيتها

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار –عيون البصائر- م . س ، ص 350

[2] - م . ن ، ص 47.

[3] - م . ن ، ص 59 .

[4] - م . ن ، ص 63 .

و صحّحت مقوماتها...و أين نحن و أحزابنا من ذلك ؟.»[1]

لقد استطاع الإبراهيمي أن يحقق – من خلال توظيفه لأسلوب المقارنة – نتائج إيجابية ذات أبعاد حضارية و نضالية تنم عن شجاعة في الطرح، و حكمة في المعالجة، و إحاطة واسعة بعلوم اللغة العربية و أساليبها.

5- الإقتباس و التضمين:

و من ملامح الأسلوب عند الإبراهيمي، الإقتباس و التضمين و الاستمداد من التراث العربي عامة و القرآن الكريم و الحديث الشريف خاصة. و لعل الإبراهيمي أن يكون « كاتب المقالة الجزائري الوحيد، و ذلك على امتداد يقارب أربعين عاما، الذي كان يمتلك القدرة على توظيف محفوظه الغزير من التراث شعرا و نثرا، و قواعد و نوادر؛ فيصطنعها في كتاباته لتتناص معها.»[2] فتعطي أسلوبه دفعا جميلا و توظيفا ملائما.

إن الدارس لأدب الإبراهيمي، لا يجد صعوبة في اكتشاف ظاهرة الاقتباس التي طبعت كتاباته – و هي ظاهرة من ظواهر التناص المعروفة في النقد المعاصر – لا سيما الاقتباس من القرآن الكريم، إذ يمكن أن نذكر منه على سبيل المثال لا الحصر، قوله في الحكومة الفرنسية: « و إن مثل الحكومة كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر، فلما كفر قال إني بريء منك.»[3] و هو اقتباس من قوله تعالى: « كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنْسَانِ أُكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِي بَرِيءٌ مِنْكَ، إِنِي أَخَافُ اللَهَ رَبِ العَالَمِين.»[4] فداعي الاقتباس هنا هو المماثلة بين عمل الحكومة الفرنسية في إغواء جزء من الشعب الجزائري و استعماله في خدمة مصالحها الاستعمارية، ثم الغدر به و التخلي عنه، تماما كما يفعل الشيطان عندما يوسوس للإنسان، حتى إذا أهلكه تبرأ منه و ادعى خوف الله. فالتشبيه هنا غرضه تعرية المحتل و الكشف عن حقيقته في مخادعة أتباعه و المكر بهم.

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار –عيون البصائر- م . س ، ص 66 .
[2] - عبد الملك مرتاض ، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر، م . س، ج.1، ص 161 و 162 .
[3] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار م . ن ، ص 249 .
[4] - سورة الحشر، آية 16 .

أما الأمثلة و الشواهد على استمداد الإبراهيمي من الحديث الشريف فهي كثيرة و متنوعة، نذكر منها هذه الفقرة من مقالة له بعنوان "الدين المظلوم" جاء فيها:« و لو أن إخواننا أنصفوا الحق و أنصفونا لكان حظنا منهم الإعانة و التنشيط على هذا الجهد الذي نبذله، و هذا الجهاد الذي نقوم به، فإن لم يكن هذا فعدم الوقوف في صف الحكومة، هو أضعف الإيمان»[1] و لعله من الواضح أن الكاتب اقتبس من الحديث الشريف القائل:" مَنْ رَأى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَاليُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ بِلِسَانِهِ. فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وَ ذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ"[2] . فالصورتان متطابقتان لأن حال المؤمن مع المنكر هو نفسه حال الجزائر مع الاحتلال و أعوانه، و الكاتب هنا في معرض النصح و التحريض على اتخاذ موقف من الاحتلال البغيض، إن لم يكن بالثورة و الجهاد كان بالحياد و عدم الوقوف في صفه، و هذا أقل ما يمكن تقديمه للوطن.

أما الشعر، فقد كان حضوره جليا في آثار الكاتب، و توظيفه بديعا في ثناياها على نحو يعكس مقدرة الرجل العجيبة على الحفظ و التركيز. و من ذلك قوله:« يا عيد ..... بأي حال عُدت، و بأي نوال جُدت .»[3] و العبارة من بيت للمتنبي يقول فيه:

« عيدٌ بأي حال عدت يا عيدُ بما مضى أم لأمر فيك تجديدُ؟»[4]

إننا نستشف نبرة حزينة تنم عن تذمر الكاتب مما حل بفلسطين الجريحة و مقدساتها الدينية من مظالم غير مسبوقة، فنغّصت على المسلمين شعورهم بفرحة العيد، و عطّلت دواعي بهجتهم و سعادتهم فيه.

و في موضع آخر نجده يقول: « و الدين المظلوم في زماننا هو الإسلام في الجزائر: مظلوم من أهله، إذ لم يدافعوا عنه، و لم يأخذوا له بحقه من ظالمه ... و ظلم ذوي القربى أشد مضاضة، و أشنع غضاضة.»[5] فالعبارة الأخيرة هي صدر بيت معلقة "طرفة بن العبد" التي قال فيها:

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار – عيون البصائر- م . س ، ص 139 .
[2] - ينظر: صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق: عصام الصبابطي و غيره ، دار الحديث، ط.4 ، القاهرة 2001، ج.1، ص 297 .
[3] - محمد البشير الإبراهيمي ، م . ن ، ص 467 .
[4] - البيت من قصيدة أنشدها المتنبي يوم عرفة قبل رحيله بيوم واحد من مصر التي أقام بها عاما كاملا بجوار" كافور"، ينظر: المتنبي ، ديوانه - شرح : عبد الرحمان البرقوقي - دار الكتاب العربي ، بيروت 1980 ، ج . 2 ، ص139 .
[5] - محمد البشير الإبراهيمي، م . ن ، ص 138 .

« و ظلمُ ذوي القربى أشدُّ مضاضة على المرء من وقع السهام المهنّد.»[1]

أراد الكاتب أن يصور الحالة التي آل إليها الإسلام بعد أن تحامل عليه أبناؤه قبل أعدائه، و القصد هو التذكير و التحذير معا من مغبّة الاستمرار في السير على هذا النهج و بالأساليب نفسها.

و أما الأمثال العربية، فلم يعدم الإبراهيمي استحضارها واستخدامها في أسلوب لغوي متين، يجمع بين « التعبير عن الواقع و معالجة قضاياه، و بين الجمال الأدبي في الصياغة فتأتي المقالة مفيدة و ممتعة في آن واحد.»[2] فقد كتب في مقال له بعنوان " عادت لعترها لميس* ": « و لميس هذه في مورد المثل هي امرأة كانت لها عوائد شر تعتادها، و أخلاق سوء تفارقها ثم تقارفها، لغلبة الفساد فيها و صيرورته أصلا في طباعها – و العتر هو الأصل– فسيّرت العرب فيها هذا المثل.»[3] و لميس عند الكاتب هي فرنسا التي تكاد لا تثبت على مبدأ واحد حتى تعود إلى أصلها الحقيقي و طبعها الغالب في حكم المستضعفين بمنطق الاستبداد و القوة، و العبث بالقوانين إلا ما كان في خدمة مصالحها.

و يجدر بنا أن نقف عند هذا الحد لاعتقادنا أن التمثيل بنماذج أخرى قد يطيل هذا الفصل أكثر مما ينبغي، لذلك نفضل أن نختمه بالتأكيد على أن الإبراهيمي يظل يمثل في نظرنا و في نظر كثير من الدارسين مدرسة مقالية متميزة، أسهمت في نشر الوعي الديني و الاجتماعي و السياسي، لكن صورة هذا الوعي لا تكتمل إلا إذا استحضرنا شكلا آخر كانت له أهميته البالغة في شحذ الهمم و إيقاظ النفوس، ألا و هو الخطابة التي سنتناولها بالتفصيل عنده في الفصل الثاني.

---

[1] - البيت من معلقة طرفة بن العبد (538 / 564) ينظر: مفيد قمحة ، شرح المعلقات العشر، دار و مكتبة الهلال ، بيروت 2003 ، ص118.
[2] - محمد مهداوي ، البشير الإبراهيمي - نضاله و أدبه – م . س ، ص133 .
[3] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار – عيون البصائر- م . س ، ص 341 .
* المثل مثبت في "مجمع الأمثال" للميداني ، دار مكتبة الحياة للطباعة و النشر ، بيروت ، ط .2 ، ج.1 ، ص 625 .

الفصل الثاني

الفصـــل الثاني

الخطـــابـة

أولا : الخطابة الدينية

ثانيا : الخطابة الثقافية

ثالثا : الخطابة السياسية

رابعا : الخصائص الفنية للخطابة عند الإبراهيمي

1- الارتجال

2- الحماس

3- الخروج عند المألوف

4- الاقتباس

أ- القرآن الكريم و الحديث الشريف

ب- الشعر

5- الإطناب و التكرار

6- الاعتناء باللفظ وحسن العبارة

الخطابة:

شهدت الخطابة على عهد الإبراهيمي ازدهارا كبيرا و تطورا ملحوظا بفضل نشاط الجمعيات و النوادي الثقافية و انتشار الصحف السيارة. و قد ساعدها في ذلك ظهور نخبة من الأدباء والمصلحين في جمعية العلماء المسلمين ، يدعون إلى أفكارها، و ينشرون مبادئها بين الناس ، و يأتي في « مقدمة خطباء الإصلاح الذين شهروا بالفصاحة والبيان الشيخ " عبد الحميد بن باديس"،و البشير الإبراهيمي و " الطيب العقبي و " أحمد توفيق المدني " ، وغيرهم من ممن بقيت بعض أثارهم مسجلة في صحف جمعية العلماء مثل " الشهاب " و"البصائر" و "السنة " و" الصراط " و " الشريعة " و غيرها من المصادر. »[1] والذين وجدوا فيها أفضل أداة و أحسن أسلوب لبث تلك الأفكار في مرحلة خطيرة من حياة الشعب الجزائري ، و حبلى بالأحداث الفكرية و السياسية التي عكست جانبا مهما من أدب المقاومة الوطنية في الجزائر .

و يأتي الإبراهيمي في طليعة أولئك الخطباء و بلغائهم ، ذلك أن الخطابة بلغت على يده شأوا بعيدا بفضل ما تميّز به من فصاحة لسان و عرض بيان ، و سرعة بديهة و قوة حافظة . و هي في ذلك كله تستمد أصالتها و قوّتها من العصور الذهبية لهذا الفن .

و لعل اهتمام الإبراهيمي بالخطابة و كلفه بها كان نتيجة لشعوره بأهميتها في تلبية حاجة الجمعية إلى طرح فكرتها و عرض فلسفتها على المجتمع. لذلك ألفينا الجمعية تتخذ قرارا في هذا الشأن يوضحه الإبراهيمي بقوله : «و في الاجتماع الإداري السابق للمؤتمر قرر المجلس أن يسن في اجتماع هذا العام سنّة أخرى صالحة حتى تكون له ميزات محسوسة تلك السنة هي أن يخصص يوم كامل في آخر الاجتماع للخطب و القصائد، و فتح هذا الباب لكل مستعد من الحاضرين بشرط أن تكون الخطبة مكتوبة قابلة للنشر، غير خارجة عن دائرة الأدب و العلم و الدين»[2] و لما جاءت السنة الموالية (سبتمبر 1935) عقدت الجمعية مؤتمرها بنادي الترقي ، وخصص اليوم الأخير فيه لسماع الخطب والتمرن عليها استعدادا للقيام بمهمة الدعوة و الإصلاح ، يقول الإبراهيمي

[1] ـ عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، م . س ، ص 23 .
[2] ـ محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، م . س ، ج . 1 ، ص 156

في هذا الصدد: « و قد نقد هذا القرار ...و تمت أعمال المؤتمر الرسمية في الأيام الثلاثة الأول، و كان اليوم الرابع حافلا بالخطب المتنوعة على نظام مقرر، خطب فيه نحو عشرين خطيبا. »[1]

و لما كانت الخطابة ذات أهمية بالغة ، و منزلة عالية عند الأمم ، فإن الإبراهيمي قارنها بالتمثيل حين قال : "التمثيل و الخطابة عند الأمم الحية توأمان ، و أخوان شقيقان. و أن منزلتهما من دواعي التهذيب و التربية الفاضلة لأرفع منزلة، و أن مكانتهما من بين مقومات الأخلاق لمنزلة الطعام و الشراب من بين المقومات الجسدية. و ما بنيت نهضة من النهضات الأخلاقية في الأمم الجديدة إلا و للتمثيل و الخطابة في بنائها القسط الأوفر و الحظ الأول . »[2]

لقد شغف الإبراهيمي بالخطابة و أجاد أساليب التعبير فيها ، و توسلها لنشر دعوته بين الجماهير العريضة التي كانت محدودة المستوى في الأغلب ، و لا يتاح لها أن تقرأ كل ما تكتبه صحف الجمعية السيارة .

تنقل الإبراهيمي في ربوع كثيرة، و خطب في مناسبات متعددة داخل الوطن وخارجه ، غير أن هذه الخطب لم تجمع ، فقد ضاع معظمها و لم يبق منها إلا القليل. ويفسر محمد عباس هذه الظاهرة بقوله : « و المؤكد أن الميزة الغالبة على هذه الخطب هي الارتجال، لأن صاحبها ظلّ صِنْوَ أسفار،و كانت ظروف السفر و الترحال تحول بينه و بين تحضير هذه الخطب ، علاوة على قدرة الإبراهيمي اللامتناهية في الارتجال والخبرة الفائقة في إدارة الكلمة ... فتعددت خطبه بتعدد المناسبات، و لعل هذا هو السبب المباشر، أن ضاعت في ذلك خطب لا تحصى إلى جانب محاضرات و دروس متنوعة لا تعد ، كان لها ثقلها في الميدان الأدبي و الثقافي . »[3]

إن صفة الارتجال التي طبعت الإبراهيمي ، كانت تؤدي غرضها و تصيب حيث تتصل بجمهور السامعين ، لكنها لم تجد سبيلها إلى التدوين كي يطالعها القراء إلا لماما ، وعلى الرغم من ذلك ، فإن ما بقي منها يبين مستواها الراقي الذي احتلته في الساحة

---

[1] ـ محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، م . س ، ج . 1 ، ص 157
[2] ـ م . ن ، ص67
[3] ـ محمد عباس ، البشير أديبا ، م . س ، ص 185

الأدبية الجزائرية و العربية ، مما جعل الإبراهيمي خطيبا من الدرجة الأولى ، يتبوأ في هذا الميدان مكانة مرموقة جعلته « ينتمي إلى مدرسة البلغاء العرب و كتابهم و خطبائهم المشهورين بالقدرة على توليد المعاني و الاحتفال الذي يأتي عفو الخاطرة ، أو يقصد لذاته أحيانا »[1]

و يتفق جميع الدارسين على أن الإبراهيمي كان يمتلك قدرات خطابية لا تجارى ومهارات بيانية لا تبارى ، فقد « كان رحمه الله إماما في العربية و بلاغتها ، تفقه في أسرارها ، وتغذى بأدبها و استنار بقرآنها ، و كان خطيبا مصقعا ، يهزّ القلوب ببيان ساحر، يعيد للأذهان ما كان للخطابة العربية من سلطان ، في عهد قس بن ساعدة وسحبان »[2]

ولا يخْفِي عبد الملك مرتاض إعجابه بشخصية الإبراهيمي الأدبية من خلال بعض النصوص التي عثر عليها و أثبتت لديه زعامة الرجل في فن الخطابة و منزلته التي بلغها في هذا الفن . فيقول : « إن هذا الخطيب كان شديد العارضة ، فصيحا ، لسنا ، ساعده على ذلك محصول من اللغة و فير ، و إلمام بالأمثال و براعة في حسن إجرائها في مضاربها ، و معرفة عميقة بطرائق الكلام ، وقدرة على التصرف فيه »[3] .

أما محمد مهداوي فإنه يرى أن الإبراهيمي جمع بين ثقافة الخطابة و صفات الخطيب . فيقول « اتصف الإبراهيمي بصفات كثيرة ، منتزعة من صفات الخطباء، من بلغاء العرب ، منها استعمال العمامة على رأسه ، و ارتكازه على العصى حينما يقف خاطبا ، ثم جهارة صوته و فصاحة لسانه و هي جميعا من صفات الخطباء العرب»[4]

لم تكن الخطابة عند الإبراهيمي غاية تقصد لذاتها بغرض المتعة الفنية فحسب ، وإنما كانت كذلك أداة يبث من خلالها فكرة الإصلاح في عقول السامعين و يستميلهم بها ، فهي وسيلة و غاية معا ،فالإبراهيمي إذن « أديب مصلح لا عالم مصلح فقط، والفرق بيت الأديب و العالم أن الأول يعبر عن مشاعره و عواطفه بلغة جميلة موحية و هدفه إحداث اللذة الأدبية و الإمتاع إلى جانب فكرة معينة يهدف تصويرها . بينما تنصب عناية الثانى

[1]- عبد الله ركيبي ، الخطابة في النثر الجزائري الحديث، مجلة الأصالة، العدد 25، جامعة الجزائر، جوان 1975، ص 64.
[2]- عبد الرحمان شيبان ، الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي ، مجلة الثقافة العدد 87 ، ماي 1985 ، / . س ، ص 73
[3]- عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر ، م . س، ص 282
[4]- محمد مهداوي ،البشير الإبراهيمي ، نضاله و أدبه ،م . س ، ص149

على الجانب العقلي و التفكير المتزن و الوضوح في التعبير لا بهدف اللذة الفنية و إنما بهدف توصيل الأفكار ، فاللغة عنده أداة و وسيلة بينما هي لدى الأديب وسيلة و هدف. »[1]

و للإبراهيمي خطب كثيرة ألقاها في مناسبات مختلفة عالج من خلالها قضايا دينية و ثقافية و سياسية. و فيما يأتي تفصيل لها .

أولا : الخطابة الدينية :

إن النظرة الدينية هي السمة البارزة في خطب الإبراهيمي ، ذلك أنها كانت تهدف إلى تصحيح العقيدة الإسلامية في أذهان الناس و ترسيخها في قلوبهم لأنها الخطوة الأولى لتغيير الإنسان من وضع يتسم بالجمود و الاستكانة و الرضى بالواقع المعيش ، إلى وضع يحفل بالحركة و الحيوية و التطلع نحو الأفضل . كما كانت تدعو إلى ضرورة التمسك بمبادئ جمعية العلماء في إطار العروبة و الإسلام و الوطنية، و توحيد صفوف الشعب الواحد ، و كذا مقاومة الاحتلال إلى أن يتحقق النصر .

ومن الخطب الدينية الرائعة التي تميزت بجمال لغتنا و جلال موضوعها، خطبته التي ارتجلها بمناسبة اختام تفسير ابن باديس للقرآن الكريم في حفل بهيج أقيم بقسنطينة سنة 1936 [2] و قد استهلها بقوله : « أيها الملأ الكرام : ما أشرقت شمس في الجزائر الحديثة على مثل يومكم بالأمس، و لقد مضى بجلاله و روعته و لم ينطق في وصفه لسان بكلمة و لا اختلجت في نعته شفتان بحرف ، لا زهدا فيه و لا عدم عرفان لحقه و لا غبنا لحقيقته ، كيوم شوقي الذي قال فيه :

غُبِنَت حقيقتُه ، و فات جمالُها باعَ الخيال العبقري الملهَم *

و إنما هو كلام الله و بيت الله عقدا الألسنة بجلالهما و حبسا النفوس على جمالهما ، فجاء اليوم و جاءت كلية الشعب يقضيان من ذلك حقا غير مغفل . »[3]

على هذا النحو يستهل الإبراهيمي خطبته بالتنويه بفضل تلك الليلة المباركة التي ختم فيها ابن باديس تفسير كتاب الله . لذلك ، و من شدة تأثر الإبراهيمي بهذا الحدث

---

[1] - عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، م . س ، ص 28 ، 30

[2] - ينظر : محمد مهداوي ، البشير الإبراهيمي ، نضاله و أدبه - م . س ، ص 153

[3] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج . 1 ، ص360

* أحمد شوقي ، ديوانه ، دار العودة ، بيروت ، أغفل التريخ والطبعة ، ج . 2 ، ص 187

الجليل ، راح يعبر عن مشاعره الفياضة التي ساورته و هو يقف خطيبا بين الجموع إلى حد نسي أو تناسى معه أن يصدر خطبته بالبسملة كما جرت عادة الخطباء بعد الإسلام . و لعله في هذا يذكرنا بخطبة زياد بن أبيه المشهورة التي سميت بالبتراء ، مع اختلاف الحال و طبيعة المقال .

و يقف الإبراهيمي عند عنصر الزمان – الأيام – مستعرضا لمعانيها ، كاشفا لحقائقها، و موضحا أن العبرة فيها ليست بعدد السنين و الحساب ، و إنما تنطوي عليه من صفحات عز و مجد في تاريخ الشعوب و الأمم . يقول الإبراهيمي في هذا المعنى : « لسنا نعني بأيام الأمم ، هذه الأيام المتعاقبة التي يجمعها نسق الأسبوع و تعرف بالأعلام و تمتاز بمراتبها العددية في الشهر ، فقد مرّت الآلاف منها على الأمم من غير أن تجمعهم جمعها على مأثرة تكسبهم عزّا ، و من غير أن توحدهم آحادها على عمل يرفع لهم ذكرا،ثم لا يكون زيادتها إلا نقصا في أعمار الأفراد و إبلاء للجديد من حياة الجموع . و إنما نعني هذه الأيام التي هي لمْعٌ في الدهور ، و شيات في غرر العصور ، هذه الأيام التي تعرف بما يقع فيها من الأعمال، لا بما يوضع لها من الأعلام ، و تذكر بآثارها في الأمم ، لا بموقعها من الأسبوع أو الشهر ، هذه الأيام التي تطول و تتسع حتى تستغرق القرون و تستوعب الأجيال على حين يبقى غيرها محدودا بمطلع الشمس و مغربها. »"[1]

و كأن الإبراهيمي ، حين عمد إلى خاصيتي الاستطراد و الإطناب في توظيفه لعنصر الزمان ، أراد أن يفرغ ما في هذا اللفظ (الأيام) من معاني يعزّز بها فكرته ويدعم بها رأيه بهدف الإقناع و التأثير في السامعين و استمالتهم إليه دون أن يخل ذلك بالأسلوب ، أو ينزل به عن أدبيته التي ظلت مسيطرة على النص، و هي ميزة تقوم عليها طبيعة هذه الخطبة حين تجمع بين الفكر و العاطفة ، لأن قوام الفكر البراهين العقلية، ومجال العاطفة الانفعالات الوجدانية .

و يحاول الإبراهيمي أن يرفع منزلة هذا – اليوم – و يعلي مكانته لدى الشعب الجزائري المسلم ، فيقارن بينه و بين ذكرى يوم بدر العظيمة ، و التي غيرت وجه

[1] ـ محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج . 1 ، ص360

التاريخ الإسلامي و قضت بالتوحيد على مظاهر الشرك و الظلم و القهر ، و أسست لمعاني الحق و العدل و المساواة ، ليثبت من خلال العلاقة بين الحادثتين ، صفة الخلود و البقاء لهما على مرّ الزمان و المكان . فيقول : « إن أحدا من المسلمين لا يجهل يوم بدر و لا يجهل – و إن كان عاميا – أثره في ظهور التوحيد على الشرك ، و لكن قليلا منهم من يعرف أن اسمه يوم كذا و أن نسبته من الشهر كذا ، و قد غربت شمس بدر منذ مئات الآلاف من الأيام و جرّ عليه الفلك أذيال عشرات الآلاف من شركائه في الاسم ، فلم يعف له رسما و لم يطمس له أثرا . و مات معناه الزمني المحدود و لكن معناه التاريخي النفسي لم يمت بل هو باق ما بقي الإسلام، طويل العمر ما طال،واسع المعنى ما اتسع. »[1]

و حين ينتقل الإبراهيمي إلى الحديث عن اللغة العربية و ذخيرتها الواسعة ، فإنه يتفنن في انتقاء الألفاظ و العبارات ، و توليد الأفكار و المعاني مبررا مقدرته اللغوية و براعته الأدبية ، و حافظته الواعية إذ يقول : « و لقد علّمتنا لغة العرب فنّا في مصاص الأشياء فقهنا منه أن من النساء عقائل، و أن في الأموال كرائم ، و أن في الجواهر فرائد، و أن في النجوم دراري ، و أن في الشعر عيونا ، و أن في الذخائر أعلاقا إلى آخر ما يجري على هذا النسق ، حتى إذا وصلنا إلى الأيام ، و هذا أشد – من كل شيء – ارتباطا بشؤوننا ، لم نجد لمصاصها في اللغة إلا أوصافا يتعاورها اشتراك الموصوفات ، و يتجاذبها اختلاف الاعتبارات ، ثم يذيلها شيوع الاتصاف و تبذل الاستعمال حتى تقصر عن التأدية ، خصوصا حين يفيض الوصف التاريخي على الوصف اللغوي ، و إن من معجزات القرآن تسميته ليوم بدر بيوم الفرقان .

و لكن يسلينا أن ما قصرت فيه اللغة فلم تأت فيه بوصف يليق بجمالها و جلال هذه الأيام ، و قد وفى به التاريخ فلم نحفظ من أيام الأمم الكثيرة إلا أياما قليلة فكان ذلك منه تعبيرا فصيحا على أن هذه الأيام هي الخوالد من بين الأيام البائدة . و هي الغرر في الكثرة البهيمة ، وهي المشهودات و غيرها غفل . و كان ذلك منه وضعا تاريخيا

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج . 1 ، ص361

يخصص الأوضاع اللغوية . فإذا قلنا هذا يوم خالد و يوم أغرّ و يوم مشهود اطمأنت النفوس إلى إتمام التأدية بمراعاة الوضعين التاريخي و اللغوي . »[1]

ثم يواصل الخطيب إشادته بهذا اليوم الذي عده ميلادا جديدا لأمة بأكملها، هي الأمة الإسلامية التي اكتشفت فيه حقيقة ذاتها ، و مكانة و جودها ، و محرك نهظتها و ازدهارها ، بعدما استغلت ردحا طويلا من الزمن جثم فيه المستعمر على صدرها و عاث فيها فسادا . و ها هي في هذا اليوم تنتقض انتفاضتها التاريخية لتعلن فيه صحوة ضميرها و يقظة و عيها و تمسكها بدينها و لغتها و رفضها للمحتل و نبذها لثقافته .

و في ذلك يقول : « أيها الإخوان : إن يومكم الذي نتحدث عنه هو اليوم الأغرّ المحجل في تاريخ الجزائر الحديث و لا أبعد إذا قلت إنه اليوم الأغرّ في قرون من تاريخ الإسلام. هذا اليوم الذي يجب أن نؤرّخ له في الطور الجديد من أطوار نهضتنا العلمية الدينية ، و نؤرّخ به لمبدإ ازدهارها و إثمارها و نموّها و إبدارها . هذا اليوم الذي التقت فيه الأمة حول دينها و لغتها فأثبتت أنها أمة مسلمة عربية يأبى لها دينها أن تلين فيه للعجم ، و تأبى لها عربيتها أن تدين فيها للأعاجم . هذا هو اليوم الذي تعلن فيه الأمة إنابتها إلى ربها ، و تكفيرها عن ذنبها و رجوعها إلى الله رجوع عبد أوبقته جرائره ، و افتضحت سرائره ، و انقطعت أواصره ، و عزّ مغيثه و ناصره ، و ظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، فرجع على الطريق التي منها هرب . فإن هروب هذه الأمة من الله هو تفلتها من كتابه و بعدها عن هدايته ، و التماسها الوصول إليه على غير طريقه ، فضلّت و تاهت قرونا و ها هي ذي تفيء إلى الله على طريق كتابه و سنة محمد و أصحابه و عسى هادي الحائرين أن يعود عليها بعوائد برّه و إحسانه. »[2]

ثم يشرع الخطيب في بيان منهج ابن باديس في التفسير ، فيبدي إعجابه الشديد بهذا المنهج الذي ربطه صاحبه بالعصر و نأى به عما ألصق بالقرآن من الترّهات و الخرفات التي سادت في المجتمع الجزائري و ابتعدت به حقيقة الدين الإسلامي

[1] ـ محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج . 1 ، ص361
[2] ـ المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

و أصوله الصافية ، لذلك وصف تفـــسير ابن باديس بأنه تفـــسير سلفي لا لكونه تفسيرا قديما أكل عليه الدهر وشرب ، و صار هو يردده ، و إنما لكونه يرتبط بمصادره الأصلية النقية ، التي لم تشبها شوائب التدجيل الطُّرقي و لا التشدق الجدلي ، و عليه راح الخطيب في السياق نفسه ينتقد الوضع الثقافي المزري الذي آل إليه عامة الشعب و خاصتهم و ذلك في انتشار التعصب الطائفي و المذهبي و اتـــباع الإسرائيليات و الخوض في المجالات اللفظية و العقيمة و تبلبل عقول الطلبة الدارسين و تشوشها نتيجة لهذه الطرائق الفاسدة المتبعة في تدريس أمور الدين . و في هذا الشأن يقول الخطيب : « هذا هو اليوم الذي يختم فيه إمام سلفي تفسير كتاب الله تفسيرا سلفيا ليرجع المسلمون إلى فهمه فهما سلفيا ، في وقت طغت فيه المادة على الروح و لعب فيه الهوى بالفكر ، و هفت فيه العاطفة بالعقل ، ودخلت فيه على المسلم دخائل الزيغ في عقائده و أخلاقه و أفكاره ، وفي أمة تقطعت صلاتها بالسلف و ضعف تقديرها للقرآن ، فأصبح ملهاة آذان و مشغلة لسان ، و أصبح حُفّاظها يقرأونه للتبرك أو يتّجرون به في المقابر ، و عوامها ينزلونه منزلة البصل و الكراث * فيستنشقون بحروفه من أمراض سببتها الحرارة أو جلبتها البرودة ، و علماؤها يدرسونه بلغـــة المصطلحات العرفية ، و يتناولونـــه بأذهان حشيت بالأفكار الطائفية ، و التعصبات المذهبية ، و المحامل الجدلية ،و التوجيهات اللفظية ، و بكتب ملئت بالإسرائيليات المصنوعة و الآثـــار الموضوعة و النظريـــات ، و الطلبة – و هم صرعى هذه الفتن – يتلقونه بألسنة جافة البيان العربي و صرفتها العُجْمَةُ في منهاج غير منهاج العرب ، ففسد الذوق و اختلّ التصور – و بأفكار غطّى عليها الجمود و سدّ عليها منافذ التفكير – و بنفوس ركبها الملل و السأم ، فرضيت بسماع مالا يفهم و تلقي مـــالا يعقل ، و هان الزمان في حسابها فأصبحت تنفق منه جزافا ، و اختل تقدير الأشياء عندها فأصبح كل مقروء علما و كل قارئ عالما.»[1]

---

[1]- محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، م . س ،ج . 1 ، ص 362 .

* الكراث : هو بقل خبيث الرائحة ، من فصيلة الزمبقيات ، يشبه الثوم و يزرع في المناطق المعتدلة . ينظر : المنجد في اللغة و الأعلام ، دار المشرق ، بيروت 2002 ، ط.39 ، ص679 .

ثم يأسف الخطيب لحال هذه الأمة التي انحط مستواها إلى الدرك الأسفل حتى غدت تجر أذيال التخلف و الهزيمة ، في حين كان أسلافها موضع إكبار و إجلال من قبل العدو و الصديق ، و ليس هذا و لا ذاك إلا نتيجة طبيعية لموقفها من القرآن و الدين ، و يتضح هذا المعنى جليا في قول الخطيب : « إن الأمة الإسلامية التي يقرأ الناس أخبارها في التاريخ فيقرأون المدهش المعجب ، و يرى الناس آثارها في العلم والتشريع و الأدب و الحكمة فيرون الطراز العالي البارع ، فيستوي المحب و المبغض في الاعتراف بأن أمة هذه أخبارها و هذه آثارها لهي الأمة حق الأمة ، إن تلك الأمة ما كانت أمة بذلك المعنى و تلك الأوصاف إلا بالقرآن . فالقرآن هو الذي رباها و أدبها و زكّى منه النفوس، و صقّى القرائح ، و أذكى الفطن ، و جلا المواهب ، وأرهف العزائم ، و هذّب الأفكار ، و أعلى الهمم ، و استفزّ الشواعر، و استثار القوى ، و صقل الملكات ، و قوّى الإرادات ، و مكّن للخير في النفوس ، و غرس الإيمان في الأفئدة ، وملأ القلوب بالرحمة ، و حفّز الأيدي للعمل النافع و الأرجل للسعي المثمر ، ثم ساق هذه القوى على ما في الأرض من شرّ و باطل و فساد فطهرها منه تطهيرا وعمرها بالخير و الحق و الصلاح تعميرًا . »[1]

ثم ينتقل الإبراهيمي إلى المقارنة بين حال العالم قبل مجيء الإسلام و بعده، و بين حال الشعب الجزائري قبل مجيء ابن باديس و بعده فيقول : « و إن هذا العالم الإنساني لم يشهد منذ برأه الله على ظهرها إفسادًا عامًا و شرّا مستحكمًا و طاعونًا أخلاقيًا جارما إلا مرتين ، على كثرة ما شهد من الطواعين الجسمانية . أما إحداهما فكانت قبل الإسلام يوم كان العالم الإنساني كله فريسة للأثرة و الاستعباد و الاستبداد و الفساد والإفساد ... و لكن الله – جلت قدرته – تداركه ، و به رمق ، بالإسلام دين السلام و كتابه القرآن كتاب العدل و الإحسان ، و برسوله الأمين يحمل منه للعالم المثخن الدواء الشافي ، و يمسح على مواقع الألم منه بالكف الكافي . فما هي إلا فترة حتى أصبح العالم يمرح في السعادة و يسبح في النعيم و ينعم بالأخوة و التسامح و يتقلب في أعطاف العدل.

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، م . س ،ج . 1 ، ص 362

و أما الثانية فهي في عهدكم هذا . » [1] و يقصد هذا العهد ، عهد عبد الحميد بن باديس الذي بعثه الله رحمة للأمة الجزائرية ، فهو باني نهضتها الحديثة ، و باعث مجدها التليد ، و ما ذلك إلا بما بثه في النفوس من وعي صحيح و فكر نيّر و فهم سليم للإسلام ، تجلى في تفسيره للقرآن الكريم تفسيرا عصريا منهجيا ، إضافة إلى نشاطاته العلمية والإصلاحية الأخرى .

و يظهر الإبراهيمي بمظهر الناقد الاجتماعي و المحلل التاريخي حين يطرق المسائل الجوهرية التي تعاني من مشاكلها الناس ، فيعيد أسبابها و يشخص عواقبها ثم يبين سبل العلاج ضاربا أمثلة من التاريخ الإنساني ليثبت بها صواب فكره و سداد رأيه حيث نحس بـ « قدرة الخطيب على الإقناع و استخدام المنطق للوصول إلى غايته ... كذلك فإنه في كافة خطبه يصدر عن روح عربية أصيلة تؤمن بالقومية العربية و بالتاريخ العربي و الحضارة الإسلامية . » [2] فإنه حين يستعيد الماضي ، يعرض صورة الإنسان الذي كان يعيش شرا مستطيرا نتيجة لجهله للقيم الدينية و الأخلاقية.غير أنّ المفارقة العجيبة أن العلم صار يتوسل لتقريب الأقطار وإلحاق الأضرار ، حيث تستعمر الأوطان و يعتدي الإنسان على أخيه الإنسان في ذاته و ماله و عرضه .

و لما كان الحق مبدأ إنسانيا يستسغيه المنطق و ينطق به كل لسان في كل مكان ، زهق هذا الحق باسم العدالة و الأخوة و المساواة و سائر الشعارات الزائفة و الفارغة . ثم نشأ عن هذا الظلم مشكلة الفقر التي لم تجد من يقدم لها حلا أو يضع لها حدا . فاستفحل شرّها و عم خطرها أرجاء واسعة من الأرض بسبب الاستعباد و الاستبداد و العسف و البغي . و كان من نتائج هذا السلوك الشّاذ و المجحف أن تتصدع العلاقات الإنسانية و يفكك نسيجها الطبيعي . يقول الخطيب في هذا المعنى : « و لو أنكم تستشهدون التاريخ : أي المرّتين كانت أشرّ و أدهى و أمرّ ، لقال لكم غير متجانف لإثم : إن شرّ المرتين آخرتهما . و لساق لكم من الحجج ما لا تستطيعون له دفعا . فإن الشرّ الأول كان من بعض دواعيه الجهل ، أما هذا الشرّ فكل دواعيه العلم . و قد كان الشر يعرض على

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، م . س ،ج . 1 ، ص 363 و 364

[2] - عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، م . س ، ص 34

الناس باسمه و في ثوبه الحقيقي فأصبح يعرض عليهم باسم الخير و ثوب الخير. و قد كان العالم متباعد الأجزاء متقطع الأوصال. و في تباعد الأجزاء تقليل من بواعث الشرّ، فأصبح العالم مزدحما حتى ليكاد يلتحم.ومن ازدحامه و التحامه نشأت معضلته الاجتماعية الكبرى و هي مشكلة الأغنياء و الفقراء التي لم يفلح في حلها علم العلماء و لا حكمة الحكماء و لا قوة الأقوياء و لا دهاء الدهاة ، و التي تفاقم خطبها و اضطرم لهيبها حتى أصبح بنو آدم المتآخون في نسبه فريقين مضطغنين يتربص كل فريق بأخيه دائرة السوء. و يا ويل هذه الأرض إذا انفجرت الأحقاد بين أبنائها . »[1]

و يضيف الإبراهيمي سببا آخر من شأنه أن يزيد في تمزيق الروابط الإنسانية و هو العصبية . فالعصبية ممقوتة مهما كان لونها لأنها تلغي الآخر، و في التاريخ أخبار مهولة و أحداث مروعة أحدثتها العصبية الحاقدة . و قد تجاوز هذا الاعتبار لتصل إلى العنصرية المقيتة . و هنا إشارة ضمنية إلى الاستعمار الفرنسي و إن كان لا يسميه لفظا لأن التلميح كفاه و أغناه عن التصريح . فالفرنسيون « هم الذين أثاروها شعواء في القرن الماضي ، و بذروا بذورا عنصرية علمية و فلسفية امتدت آثارها إلى القرن الحاضر» [2] و قد أطلق بعض مثقفيها مزاعم تجعل الجنس الآري متفوقا عل الجنس السامي بهدف تبرير جرائم المستعمر البغيض الذي لا زال يزعم أن كان له دور إيجابيا بالجزائر إبان الاحتلال . و في هذا دليل على التعصب الجنسي الأعمى المرفوض الذي ميّز فرنسا و يميزها إلى اليوم. يقول الإبراهيمي : « و قد عرفنا التاريخ أن أصل البلاء بين البشر جاء من عصبياتهم المختلفة . و كان مما يهون تلك العصبيات أنه محدودة و أنها تعالج بعصبيات أخرى فيخف ضررها و تتلاشى قوّتها . و لكن مشكلة اليوم أن تلك العصبيات التي كانت تنفع حينا وتضرّ أحيانا ذابت كلها في عصبيتين جامحتين كلتاهما ضرر وكلتاهما شرّ. »[3]

وبعد هذا التحليل العميق لأزمات الأمم وعللها ، والكشف الدقيق لأسباب شقائقها وبلائها،يعرض الخطيب بمهارة علاج تلك الأدواء و المصائب،و يقدم حلا جذريا يخرج

---

[1] ـ محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، م . س ،ج . 1 ، ص 364
[2] ـ إبراهيم مدكور ، في الفلسفة الإسلامية ، م . س ، ص16
[3] ـ محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، م . س ،ج . 1 ، ص 364

البشرية المعذبة إلى السعادة و الرحمة و الغنى فيقول : « إن رحمة الأرض آتية من السماء ، و قد جاءت أديان السماء فعلّمت الفقير كيف يرضى و يصبر، و علمت الغني كيف يحسن و يرحم ، فلماذا لا يرجع بنو الأرض إلى حكم السماء و رحمته ؟ و لماذا لا يلتمسون مُثُل الإحسان الكاملة في القرآن ؟»[1]

و يبدو الخطيب و كأنه في حالة من الحزن ، آيسا من هذا المصير الذي آل إليه الإنسان و هو يعلم ما في القرآن من منافع تعود عليه بالخير و تخلصه من مشاكله كلها لما يحمله الإسلام من معاني العدل و الإحسان و البرّ و الرحمة و العدالة الاجتماعية ، من شأنها أن تؤهله لقيادة العالم و عمارة الكون. فالإسلام هو أصلح نظام لتسيير شؤون العالم و تصريف أموره على نحو أفضل * ، ذلك « لأن رسالة الإنسان في الحياة لا تحدد من خلال حاجاته الاستهلاكية الإنمائية ، و إنما لابد من نزعة دينية متأصلة داخل النفس، ترد في نهاية الأمر إلى حاجة الإنسان الأبدية العميقة إلى قوة أكبر من قوته المحدودة الزائلة ، تكون له سندا صوب نشاطه الحضاري . »[2] و هو ما يعبر عنه مالك بن نبي بالفكرة الدينية و آثارها في تكوين الحضارة مستندا إلى أفكار بعض العلماء و على معطيات التاريخ بصورة عامة إذ يقول : « فالحضارة لا تبعث – كما هو ملاحظ – إلا بالعقيدة الدينية ، و ينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها ، و لعله ليس من الغلو في شيء أن يجد التاريخ في البوذية بذور الحضارة البوذية، و في البرهمية نواة الحضارة البرهمية . فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء ، يكون للناس شرعة و منهاجا ... فكأنما قدر للإنسان ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية أو بعيدا عن حقبته ، إذ حينما يكتشف حقيقة حياته الكاملة ، يكتشف معها أسمى معاني الأشياء التي تهيمن عليها عبقريته و تتفاعل معها »[3]

---

[1] ـ محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، م . س ،ج . 1 ، ص 364.
[2] ـ سليمان الخطيب ، مفهوم الحضارة في الإسلام ، م . س ، ص72
[3] ـ مالك بن نبي ، شروط النهضة ، م . س ، ص 56
* للإبراهيمي مقالة بعنوان : أصلح نظام لتسيير العالم الإنساني اليوم هو الإسلام . ينظر : الآثار ، م . س . ج . 4 ، ص 65 .

و لعل الخطيب أدرك هذا المعنى جيدا و أيقن أن الرحمة آتية من السماء ، فنصح مخلصا للعالم إلى إتباع القرآن و العمل بمقتضاه إذا أراد حقا أن يبرأ من مرضه و يشفى من سقمه و يؤسس لقيم الصفح و التآلف و التعاون على البرّ و التقوى إذ يقول : « هذا داء العالم البشري فأين دواؤه ؟ و هذا مرضه العضال فأين طبيبه ؟ و هل يتداركه الله بلطفه فيهدي البشر إلى إتباع ما جاء به القرآن الكريم من تسامح و تعاون على الخير »[1]

إن تبليغ الرسالة الإسلامية إلى الناس كافة أضحى ضرورة ملحة و أمانة واجبة ما دام الإسلام يمثل خشبة النجاة للبشريـــة الغارقـــة في الشرّ و الحيف سرمـــدا . و على المسلمين تدارك ما فاتهم و أن يعرضوا الحق على الناس و يؤيدوا هذا الواجب بالحكمة و الموعظة الحسنة كما أداه أسلافهم من قبل لما تشربوا العقيدة السمحة فكانت سرّ قوتهم، و مبعث نهضتهم فما لانت لهم قناة و لا غمض لهم جفن حتى أسسوا أعظم حضارة في التاريخ ، و أعلنوها دعوة عامة كما « أعلنها النبي عليه السلام و خلفاؤه الراشدون

و تابعوهم الأبرار في صدر الإسلام و لم يمض ربع قرن من التاريخ الهجري حتى قامت بيّنات الواقع على حقيقة هذه الدعوة الإنسانية الإسلامية ، فدان بالدين الجديد أناس من جميع الأقوام و السلالات ، و لم تنقض على الهجرة ثلاثة قرون حتى كان في عداد المسلمين ساميون و آريون و حاميون و طورانيون ، عرب و فرس و ترك و هنديون و صينيون و إفريقيون من السود و الأثيوبيين »[2] كما أمروا بالمعروف و نهوا عن المنكر فساد العدل و حصحص الحق و عم النفع و الخير في كل بلاد و صلها الإسلام و دعوته.

و لما كان لكل بداية نهاية ،أفل نجم الحضارة الإسلامية كما أفل غيرها في الأفق ، فضعفت عقيدتها و تقلص ظلها و دال مجدها وزال سلطانها حتى عجزت فيه أن تحمي بيضتها و ترد الحملات الاستعمارية المتكالبة عليها ، فنتج عن هذا السقوط أن غاب دورها الريادي و القيادي للعالم كما غاب عن العالم خير كثير ، مما حدا بالإبراهيمي أن يوجه لومه على مسلمي زمانه قائلا : « و يا أيها المسلمون، أنتم أطباء هذه المعضلات

---

[1]- محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، م . س، ج . 1 ، ص 364

[2] - عباس محمود العقاد ، دراسات في المذاهب الأدبية و الاجتماعية ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ص175.

و لكنكم جاهلون .... و لو كنتم حاضرين حضور سلفكم لمشاهد العالم و منازعاته العامة لوقفتم – كما وقفوا – بعقائدهم وسطا بين التناهي و التقصير ، و بزكاتهم المرضية حكما بين الغني و الفقير ، و برحمة الإسلام سدا بين الآجر و الأجير ؛ وإذا لزرعتم في طول العالم و عرضه الخير و الرحمة،و كشفتم عن أقويائه و ضعفائه كل كرب و غمّة. و إذا لرفعتم عن العالم هذه الآصار و الأغلال و فزتم من بين حكمائه و علمائه بتحقيق نقطة الإشكال . »[1]

و لما كان حال المسلمين على عهد الإبراهيمي يبعث على الحزن و الشفقة ، كحال عزيز قوم حين يغدو ذليلا ، نبه الخطيب إلى ضرورة الرجوع إلى القرآن ، فهو مصدر قوتهم و مبرر و جودهم و سرّ تحررهم ووثبتهم إذ يقول : « أحيوا قرآنكم تحيوا به، حققوه يتحقق و جودكم به . أفيضوا من أسراره على سرائركم و من آدابه على نفوسكم و من حكمه على عقولكم تكونوا به أطباء و يكن بكم دواء. »[2]

و يفضل الإبراهيمي أن يختم كلمته منوها بفضائل أخيه عبد الحميد بن باديس ، ممجدا لأعماله الخالدة في الدين و اللغة و العلم . و لو أن الخطيب أسهب في الحديث عن القرآن كثيرا إلى درجة كاد معها أن ينسى موضوع خطبته لو لا أن تدارك هذا الموقف في الخاتمة و كأن كلام الخالق شغله عن كلام المخلوق :يقول في هذا : « و قد توزعتني الخواطر حين قمت : أأسلك ما سلكه الخطباء و الشعراء من تمجيد أخينا بما هو أهله ؟ و لو أني جريت في هذا المضمار و أسلس لي الكلام قياده ، كان في ذلك الوفاء لأخينا المبجل ، و الجفاء ليومنا الأغرّ المحجل . و إن أنا قمت بما يوجبه الوفاء ليوم القرآن قصرت في حق أخ اعتقد أنّ ما قاله الشعراء و الخطباء في حقه قليل ، و كيف تفي حفلة مثل هذه ، محدودة الساعات ، بتمجيد رجل طوّقت هذا الوطن مننه . فإن قمت ببعض ما يجب للقرآن و ليوم القرآن فحسبي في التنويه بأعمال أخي الأستاذ أن هذا اليوم بعض حسناته »[3]

---

[1] ـ محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، م . س ، ج . 1 364 و 365
[2] ـ م . ن ، ص 365
[3] ـ م . ن ، ص 365 و 366

على هذا النحو ينهي الإبراهيمي خطبته الغرّاء هذه التي تنم عن قوة بلاغية، وحلاوة بيانية، و عمق نظرته و بعد فكرته.

و من جملة الدلالات التي تنطوي عليها الخطبة ما يأتي:

– البعد المحلي المتمثل في تكريم شخصية وطنية علمية و دينية كان لها دور نهضوي في بعث الهمم و إيقاظ النفوس .

– البعد الإنساني المتمثل في الإشارة إلى وجوب التخلي عن النزاعات العصبية المدمرة للإنسان و التمسك بقيم الحق و الإخاء و العدل و المساواة و الاحترام في بناء العلاقات الدولية، و كأن الخطيب يدعو إلى تأسيس مبدأ الحوار بين الثقافات ، و هذا ما جعله يشدد على فساد الأنظمة القائمة في العالم التي تنتهك حقوق الإنسان و تمتهن كرامته، و يدعو في المقابل إلى إحياء مُثُل الحضارة الإسلامية .

ثانيا : الخطابة الثقافية:

تشكل الخطابة الثقافية القسط الأكبر و الحظ الأوفر لهذا الفن، و تعنى بقضايا الفكر و الثقافة و الأدب بشكل عام. و تتمثل غالبا في " افتتاح دروس التفسير أو ختمها. و قد وقع بعض ذلك في تلمسان و قسنطينة، ثم في تأبين الشخصيات الأدبية أو إحياء ذكريات وفاتها، و في تدشين المدارس العربية الحرة "[1]

و قد كانت هذه المناسبات مقصد الأدباء و الخطباء، يأتون إليها من كل أنحاء القطر الجزائري، و يلقون فيها ما جادت به ملكاتهم و تفتقت به قرائحهم في فن القول على نحو يؤكد بقاء الثقافة الجزائرية و استمرارها، و يثبت تمسك الشعب الجزائري بأصالته و اعتزازه بانتمائه الحضاري العربي الإسلامي، و إيمانه بأن " كل فكرة ترمي – و لو بطريقة غير مباشرة – إلى اقتطاع الجزائر من جسم العروبة و نسبها إلى وحدة غير وحدتها، و إنمائها إلى ولاية غير ولايتها الطبيعية تعد فكرة مردودة أصلا و منطقا وشرعا "[2]

لقد ظلت الجزائر منذ قرون خلت، وفية للعالم العربي لأنها جزء منه، تجمعها به الوحدة الفكرية و الثقافية و اللغوية التي تأصلت عبر التاريخ بعد الفتوحات الإسلامية، و التي حاول المحتل عبثا القضاء على الشخصية الوطنية الجزائرية و ذلك بعزلها عن نسبها و ماضيها، و فك ارتباطها بتراثها العربي الإسلامي.

و لكن على الرغم من " الحواجز التي كان يقيمها الاستعمار، فلقد بقيت الصلة و التأثر، فالوهابية و الأفغاني، و محمد عبده، و رشيد رضا، كان تأثرهم جليا في الفكر الإصلاحي في المغرب و بشكل خاص عند قادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كل ذلك بسبب الوحدة الدينية و القومية و اللغوية"[3]

---

[1] - عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر، م.س ، ص 286 .
[2] - عبد الرحمان بن العقون، مذكراتي، دار النشر دحلب، الجزائر 2000، ص 97.
[3] - أسعد السحمراني، الاستبداد و الاستعمار و طرق مواجهتهما عند الكواكبي و الإبراهيمي، م.س، ص41.

و إذا كانت محاربة فرنسا للثقافة العربية في الجزائر هو مخطط استعماري قديم* ،استند في تنفيذه إلى وسائل ثقافية من خلال المدارس و مؤسسات الدعاية الفرنسية بهدف تلقين مبادئ الحضارة الغربية، فإن مقاومة هذا المخطط من قبل العلماء و الأدباء الجزائريين أسهم في تطور الخطابة و انتقالها من الحديث عن موضوعات مكررة و مستهلكة إلى التطرق لقضايا فكرية و ثقافية و أدبية.

و من نماذج الخطب الثقافية، خطبة ألقاها الإبراهيمي بمناسبة مهرجان شوقي بالقاهرة** يفتتحها بالتحية و الدعاء بالحياة لحماة العروبة و العربية فيقول: « حياكم الله و أحياكم، و أبقاكم للعروبة تحيون مآثرها و تجددون مفاخرها، و العربية توفون بعهودها، و تقومون بحقوقها، و تعمرون مواتها، و تنشرون أمواتها، فتخطون للباقين طريق الأسوة الحسنة من سير الماضين، و تدلونهم على أقدار الرجال و مواقف الأبطال.»[1]

و يبدو الخطيب من خلال هذه المقدمة متفائلا لما لمسه من مستوى راق بلغته العربية و آدابها فنطقت به ألسنة الخطباء و عبرت عنه أقلام الكتاب و الأدباء، فكان ذلك من أمارات توحيد صفوف العرب و لم شعثهم. يقول في هذا المعنى:« ففي هذه الأيام كثر ترداد الساسة و الخطباء و حملة الأقلام لكلمة العروبة و القومية العربية و جميع الألفاظ التي اشتقت من كلمة " عرب " و عسى أن يكون هذا إيذانا من الله بوحدة العرب فألهم الألسنة و الأقلام ترداد هذه الكلمات كما ألهم أمية بن أبي الصلت و جماعة من زعماء العرب في الجاهلية ترداد الكلمات الدينية قبل البعثة المحمدية إرهاصا للإسلام و تنبيها على إظلال زمانه... و من حسن الذوق لكل من يعمل في جمع شملها الشتيت أن تساق الشعوب العربية إلى غايتها المرجوّة لمثل هذا النوع من التفكير الذي هو الدواء الوحيد لما رماها به الاستعمار من ضروب التخدير.»[2]

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، م . س ، ج.5 ، ص 226.

[2] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

* عمل الاستعمار - منذ غزوه أرض الوطن- على تخريب القيم الروحية للشعب الجزائري، و صده عن الثقافة العربية و الإسلامية، و عزل اللغة العربية و إضعافها نظرا لما تشكله من خطر على بقائه في الجزائر. ينظر محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر، أغفل التاريخ ، ص 278.

** أقيم هذا المهرجان في شهر أكتوبر سنة 1958.

ثم ينتقل الخطيب إلى الحديث عن الأمة العربية مرة أخرى، فيربط بين ماضيها و حاضرها، كاشفا سياسة الاستعمار في تفريق شعوبها و تمزيق وحدتها ليسهل عليه تنفيذ مشروعه الاستعماري و تحقيق أهدافه الدنيئة. فيقول:«إن هذه الأمة العربية هي هدف الاستعمار قبل كل شعوب الأرض، فهو لذلك لا يزال يعمل على تفريق أجزائها و تطفيف جزائها، و قد بلغ منها ما أراد بكيده و سحره حتى ينسيها ماضيها و أمجادها.»[1] و ينبّه الخطيب محذرا إلى أن المعاناة التي عاشها أهل المشرق و المغرب هي واحدة، و السبيل إلى التخلص منها هو واحد أيضا، و يتمثل في الإقتداء بالسلف الصالح و الأخذ بأسباب قوته و مصادر هيبته، و عدم التقيد بتقليد الغرب و مجاراته على غفلة من أمرهم حيث يقول:« فمن فروع التعبئة العامة للوقوف في وجهة (الاستعمار) و الدفع في نحره أن نصرف هذا الجيل الذي فتنه الغرب بقوته عن طريق هذه الفتنة، و أن نبين له ما يجهله من أن هذا الشرق مطلع الأنوار و معدن الأسرار، و أن نعالجه من هذا الكسل العقلي الذي رماه بالجهل و الجمود، و أنه إن أراد أن يبني العلم و البيان و القوة على أسسها الصحيحة فليتلمسها من معادنها في أسلافه و لا يأخذها بالتقليد للغرب و الاستعارة من الغرب.»[2]

و بعد هذا الربط البديع بين ماضي الأمة العربية و حاضرها، ينتقل الخطيب إلى الحديث عن الشاعر أحمد شوقي فيمتدحه بقوله:« ليت شعري، هل كان شوقي يدري حيث نظم هذا البيت:

هَل كلامُ الأنام في الشَّمس إلاَّ أنَّهاَ الشَّمسُ، ليسَ فيهاَ كَلاَمُ*

أنه سيصبح أحق ممن قيلت فيه؟ فقد وصل شوقي بشعره حينما اقتحم به جميع الميادين إلى مرتبة من مراتب الخلد لا يستطيع وصفها إلا هو بمثل هذا البيت»[3] ثم يسترسل الخطيب على هذا النسق كاشفا تأثر الشاعر بأبي الطيب المتنبي و تفوقه عليه في

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، م.س،ج.5، ص 227 .

[2] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

[3] - ، المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

* البيت من قصيدة قالها شوقي في مدح السلطان العثماني عبد الحميد ، و عنوانها: ضيف أمير المؤمنين . ينظر : أحمد شوقي ، ديوانه ، م.س، ج .1 ، ص 240.

أغراض شعرية كثيرة، فيما يشبه موازنة نقدية تنم عن حسن ذوقه و درايته بالشعر وأساليبه. فيقول: "لقد دأب شوقي بتقليد المتنبي في أول أمره فجاراه، وما كبا وما قصّر، ثم شآه في التشبيب الصادق و الغزل الرقيق، ثم طاوله فطال عليه في وصف الآثار الباقية عن الحضارات الداثرة، و في التغني بالأمجاد الغابرة لبني جنسه أو بني وطنـــه أو بني دينه، على حين كانت عبقرية المتنبي لا تتجاوز به مدح شخص يجود، أو شجاعة في وصف حروب و انتصارات قد يكون الغناء فيها لغير الممدوح، و لا تبرز العبقرية إلا في الحِكَم التي سجلها و الأمثال التي سيَّرها، أما الوصف الذي تتبارى فيه قرائح الشعراء، و تتجارى سوابقهم فيه فليس للمتنبي فيه كبير قيمة إذا استثنينا قصيدته في شعب بوان و قصيدته في وصف الحمى و في وصف الأسد و في قطع قليلة من شعره."[1]

و الحقيقة أن المتنبي لم يكن الشاعر الوحيد الذي راض شعره خيال شوقي و صقل قريحته الفنية في بداية نشأته الأدبية، بل هناك شعراء آخرون كان شوقي يحاكيهم و يصطنع طرائق تناولهم للأغراض الشعرية و يتبين أصول تفكيرهم فيها فـــ" قاده ذلك إلى التوكؤ على معانيهم سواء في معارضاته أو في سائر أقواله، فكثرت عنده المعاني المطروقة و الصور المقلدة، تحتشد حولها وجوه و أجيال من طوائف الشعراء."[2] غير أن اقتصار الإبراهيمي على ذكر المتنبي دون غيره من الشعراء في تكوين شعرية شوقي و إنمائها، يعود في نظرنا لاعتبارات أدبية نذكر منها على سبيل المثال:

– ربما كان الخطيب يريد أن يثبت عبقريته الشعرية فاستعار من أمجاد التراث العربي و عظمائه شخصية المتنبي و شهرته في الآفاق، و وضعها أمام مكانة شوقي ليوازن بينهما، ثم يؤثر أحدهما على الآخر بطريقة تجعل الاقتصار على دليل واحد كافيا لتحقيق الغرض المقصود.

[1] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، م.س، ج.5، ص 227 .
[2] - بطرس البستاني، أدباء العرب في الأندلس و عصر الانبعاث، دار مارون عبود، بيروت 1989، ج.3، ص 350 .

– و قد يكون الأمر مرده إلى مراعاة مقتضى الحال، ذلك أن المتلقي ينتمي إلى النخبة المثقفة، فأوجب عليه ذلك عدم الإسهاب في تناول جميع المؤثرين في شخصية أحمد شوقي، فاقتصر على ذكر المتنبي دون سواه. و كما هو معلوم، فإن الإيجاز يستعمل في « مخاطبة الخاصة، و ذوي الأفهام الثاقبة، لأنهم يجتزئون باليسير من القول ... مثل ذلك في المواعظ و الوصايا، لتكون أيسر نقلا و حفظا.»[1]

و مهما يكن، فإن تعلق الخطيب بأحمد شوقي، و حفظه لكثير من أشعاره، لدليل يفسر مدى إعجابه بالشاعر و اهتمامه البالغ بثقافة المشرق و مكانتها من نفسه إذ يقول:«و رأيي في شوقي معروف في المشرق و المغرب بين خلصائي من الأدباء وخلطائي من المتأدبين، فلم أزل – منذ كان لي رأي في الأدب – أغالي بقيمة شوقي في الشعراء السابقين و اللاحقين، و ربما شاب هذا الرأي مني شيء من الغلو في مقامات الجدل و المفاضلة بين شعراء العربية و ما كنت اتهم نفسي بعصبية لشوقي، و لا كان الناس يتهمونني بتحيز، لأنني كنت قوّاما على شعر شوقي* استحضره كله و استظهر جله، حتى ليصدق علي أنني راوية شوقي بالمعنى الذي كان يعرفه أسلافنا في الراوية.»[2]

و أياً يكن الدافع الذي حدا بالخطيب إلى الثناء على شوقي، فإن شعره هذا يمثل أحد الروافد الهامة في صقل موهبته و تكوين شخصيته الأدبية.

لقد كان الخطيب يملك حافظة متميزة أذهلت الأدباء و النقاد، فقد استوعب جيد المحفوظ من الشعر و النثر، و وظفه « توظيفه الخاص، كلما واتته الفرصة و لاق بها المقام. و هو مذهب زمرة كبيرة من العلماء و الأدباء، ممن توارثوا فنون الأدب و الثقافة العربية من عصورها المختلفة، و اعتدوا بها و استعانوا بطاقاتها التي استلهمتها عقولهم، فجرت بها ألسنتهم و أقلامهم. »[3]

---

[1] - غنيمي هلال ، النقد الأدبي الحديث ، دار العودة ، ط.1، بيروت 1982، ص 206.

[2] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، م.س، ج.5، ص 227 و 228 .

[3] - محمد عباس، البشير الإبراهيمي أديبا، م.س، ص 199 .

* يقصد " الشوقيات" ، و هي ما طبع من شعر شوقي، و تشتمل على منظومه في القرن التاسع عشر (1888-1898) ، و قد قسمت إلى أبواب في الأدب، و التاريخ، و الوصف، و المديح، و المراثي، و الخصوصيات (خصوصيات الشاعر). و لما أعاد شوقي طبع ديوانه عام 1926، أقيمت له حفلة بهذه المناسبة، و بويع على إمارة الشعر، و كان من الشعراء الذين حضروا الحفل و بايعوا الشاعر: شبلي ملاط، و خليل مطران، و أمين نخلة و حافظ إبراهيم، ينظر: إليا الحاوي، أحمد شوقي أمير الشعراء، دار الكتاب اللبناني، ط.2، بيروت 1980، ص 6 .

غير أن الإبراهيمي لم يكن أديبا فذا لمجرد اطلاعه الواسع على عيون الأدب القديم و الحديث، و إنما لامتلاكه – علاوة على ذلك – استعدادات فطرية و خبرات مكتسبة من قبيل الذكاء الوقاد، و البصيرة النافذة، و العزيمة القوية، و الثقافة الواسعة. و لعل هذا ما أهّله أن يكون بحق أحد رواد النهضة الأدبية في الجزائر و صانعي مجدها التليد بعد الحرب الكونية الأولى، إذ دعا إلى احتذاء شوقي و محاكاته في شعره تدريبا للناشئة على قرض الشعر و صقل ذائقته الأدبية بوصفه ينبوعا من ينابيع البيان و البلاغة. يقول الإبراهيمي في هذا المعنى: « و ما كادت تلوح النهضة الأدبية في الجزائر بعد الحرب العالمية الأولى، و يكتب لي أن أكون أحد قادتها حتى كنت أول الداعين دعوة جهيرة إلى الإئتمام بشوقي و إلى احتذاء طريقته و السير على نهجه في الأدب العربي، و أول الدالين على روائع شعره. و لما جدّ جدّ تلك النهضة و تعددت المدارس العربية على يد جمعية العلماء الجزائريين، و قدر لي أن أكون المشرف على توجيهها مكّنت لشعر شوقي في نفوس الآلاف من الناشئة الجزائرية، فأنبتت تلك النهضة من أولها على أدب شوقي و شعره.»[1] و لعل السبب في تقديم الخطيب لشوقي على غيره من الشعراء، يعود لروعة « حكمه و أمثاله و حسن تصويره و دقة وصفه، و لسهولة مدخله على النفوس، و إن آلافا عديدة ممن ارتقوا و لو قليلا في سلم الأدب ليحفظون من غرر شوقي و سوائر أمثاله ما يُجَمِّلُونَ به كتاباتهم و خطبهم و مجالسهم للمذاكرة، و إن كثيرا من الشعراء الذين أنجبتهم النهضة الجزائرية ليرتسمون خطى شوقي و يسيرون على هداه، و تلوح عليهم مخايله و سماته.»[2] كما يعزو الخطيب هذه الأفضلية لشوقي لما يتميز به شعره من « تمجيد للإسلام و بيان لآثاره في النفوس و تغن بمآثره و أمجاده و افتنان في مُثله العليا التي قاد بها أتباعه إلى مواطن العزة و السيادة.»[3]

إذن فالسر في إيثار الإبراهيمي لشوقي يعود إلى اعتبارات فنية و عقيدية معا، مما جعله يمثل في نظره النموذج الرائع و الأمثل للناشئة الجزائرية.

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، م.س، ج.5، ص 228 .
[2] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[3] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

و على الرغم مما يحتله شعر شوقي من منزلة رفيعة في قلوب الجزائريين إلا أن الخطيب ينكر عليه ثناءه على فرنسا و إشادته بشعاراتها المعروفة. يقول في هذا الشأن: «و مع تأثر الجزائر الشديد بشعر شوقي و عقيدتها التي لا تتخلخل في شاعريته، و مع اعترافها بأنه أول من هزّ هذا الشرق العربي ببدائعه و آياته فإن أدباء الجزائر ما زالوا يعتبون عليه، بل ما زالوا ينقمون عليه مدحه لفرنسا و افتتانه بحضارتها المزيفة و تخطيه الأصول التاريخية التي لا تعترف لفرنسا ببعض ما نوه به شوقي من فضائلها، فهو يقول:*

دَمُ الثُّــوار تعــرفهُ فِــرنسا و تعلمُ أنه نــورٌ و حقٌ

جــرَى في أرضها، فيه حياةٌ كَمُنهَلِّ السَّماءِ و فيه رزقُ

(وَ حُرِّرَت الشُّعوبُ على قناها فكيف على قناها تُستَرَقُ؟) »[1]

و يردف الخطيب معاتبا شوقي على سقطته تلك التي حابى بها فرنسا و أنكر تاريخها الملطخ بدماء الشعوب فيقول :« سامحك الله يا شوقي، أي شعب تحرر على قنا فرنسا، فإن كان بعض ذلك فهو من باب الربا الفاحش؛ تأخذ فيه فرنسا أكثر مما تعطي و ليس خالصا لوجه الحرية و التحرير. »[2]

و لعل ما ذهب إليه الخطيب من انتقاد لاذع لشوقي لا يقلل من قيمته الشعرية، و إنما هو عتب الأخ على الأخ حين تبدر منه زلّة لسان و يخونه التوفيق في ما يأتي من ضروب الكلام، ذلك أن ما جاء على لسان شوقي في تمجيد حضارة فرنسا، آلم الخطيب أيما إيلام، و هو يعلم يقينا ما تمارسه من قهر للشعوب و نهب للثروات. إن حقائق التاريخ تؤكد أن فرنسا كانت أول من قاد الهجمة الاستعمارية الصليبية الشرسة على العالم العربي و الإسلامي خلال القرن التاسع عشر و بداية القرن العشرين، و أول من حمل لواء الاستبداد و الاستعباد إلى أوطان آمنة بحجج واهية و شعارات خاوية ليس لها في الواقع من أثر.

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، م.س، ج.5، ص 229.

[2] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

* هي قصيدة معروفة ب " نكبة دمشق" ألقاها الشاعر في حفلة أقيمت لإعانة منكوبي سوريا في جانفي 1926 و مطلعها:

سَلامٌ مِنَ صَبَا (بَردَى) أرقّ و دَمـعٌ لا يُكَفكَفُ يا دِمَشقُ.

ينظر: أحمد شوقي ، ديوانه ، م . س ، ج . 2 ، ص 74 .

إن إشادة الشاعر بفرنسا و ثناءه عليها، لا يفسره – في نظرنا – إلا حبَّه لها و إعجابه بها، فقد جلس شوقي على مقاعد الدراسة مع أبناء فرنسا، في مونبيليه و باريس ليتفقه في الحقوق و الآداب الفرنسية، و يتعرف على ما يدور في ذلك البلد من نزعات و اتجاهات، قد يكون لها أثرها السلبي على تفكيره نتيجة الانفتاح المفرط على الآخر، و الانبهار بأنوار حضارة الغرب و ثقافته.

و يجدر بنا أن نذكر في هذا المقام بموقف آخر لشوقي غير مشرف حين زار بلادنا و مكث بها أربعين يوما للاستشفاء و لما رجع إلى القاهرة علق على الجزائر بقوله: "ولا عيب فيها، سوى أنها قد مسخت مسخا، فقد عهدت مسّاح الأحذية فيها يستنكف النطق بالعربية و إذا خاطبته بها لا يجيبك إلا بالفرنسية."[1] فشوقي لم يلتق في الجزائر إلا بماسح أحذية ليأخذ منه ذريعة لإصدار حكم ارتجالي و قاس على الجزائر. و قد رد عليه ابن باديس في حفلة تأبينية نظمت لأجل شوقي و حافظ، عندما قال: " إلا أن فقيدنا العزيز (شوقي) لو رأى من عالم الغيب حفلنا هذا لكان له في الجزائر رأي آخر. و لعلم أن الأمة التي صبغها الإسلام و هو صبغة الله، و أنجبها العرب و هم أمة التاريخ، و أنبتتها الجزائر و هي العاتية على الرومان و الوندال. لا تستطيع و لن تستطيع أن تمسخها الأيام و نوائب الأيام "[2]

لقد كان نقد الإبراهيمي – على موضوعيته – لطيفا غير عنيف، ذلك أن شوقي إذا أخطأ فإن خطأه لا يلبث أن يذوب في بحر حسناته، فكم كان له في الحادثات التي ألمت بأمته من وقفات جليلة، تكفر عن هناته و هي قليلة.

و في سياق الخطب الثقافية التي ألقاها الإبراهيمي، خطبة بعنوان (كلمة باسم الأعضاء الجدد)* ارتجلها بمناسبة تعيينه عضوا جديدا عاملا بمجمع اللغة العربية، و قد بدأها بقوله: " أيها الإخوة الكرام: حياكم الله و بياكم، و أدامكم و أحياكم، و أبقاكم للعروبة تصونون عرضها، و تستردون قرضها، و للغة العرب تجمعون شتاتها،

---

[1] - صالح خرفي، المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، م.س، ص 83 .

[2] - المرجع نفسه، ص 87 .

* ألقيت هذه الخطبة في مجمع اللغة العربية بالقاهرة في الدورة الثانية و العشرين في حفل تنصيب أحد عشر عضوا من مختلف الأقطار العربية بتاريخ 12 مارس 1962. ينظر: محمد البشير الإبراهيمي، الآثار ، م . س ، ج .5 ، ص 292 .

و تحيون مواتها، و ترعون – على تجهم الأحداث، و سفه الوارث– متاتها، و لهذا المجمع تعلون بنيانه و ترفعون على العمل النافع أركانه»[1]

وبعد هذا التمهيد الذي لفت فيه انتباه الحضور مدحا و إطراء و ترحيبا، انتقل إلى صلب موضوع خطبته، فتحدث عن أهمية اللغة العربية و مكانتها في توحيد الشعوب العربية والحفاظ على مقومات شخصيتها وخصائص ثقافتها مما يوجب إيلاءها العناية اللازمة و الرعاية التي تستحقها إذ يقول: "أيها الإخوة: إن هذه اللغة العربية الشريفة التي طرقنا خيالها المؤوب، ثم أسمعنا داعيها المثوب، فاجتمعنا على بساطها اليوم من جميع أقطار العروبة، هي الرحم الواصلة بيننا وهي اللحمة الجامعة لخصائصنا وآدابنا، فمن بعض حقها علينا أن نبلها ببلالها، وأن نرعى حقها في كل منسوب إليها، كما أن من بعض حقها علينا أن نخف لنجدتها، كلما مسّها ضر أو حَزَبَهَا أمر."[2] وهو في ذلك يشير إلى وحدة الانتماء القومي ووحدة المصير المشترك بين الشعوب العربية التي يجمع بينها، فضلا عن العرق والجغرافيا و التاريخ ، جامع اللغة، فدور"اللغة في تكوين القوميات والمحافظة على شخصيتها الخاصة لا يمكن التقليل من شأنه، لأننا نرى معظم التجمعات الموجودة في عالمنا هي أساسا تجمعات لغوية."[3] وعلى المنوال نفسه، توجه الخطيب إلى المشرفين على الحفل شاكرا سعيهم في التنظيم والاستقبال، ومنوها بجهودهم في تعزيز مكانة اللغة العربية و حرصهم على خدمتها لكونها لغة رسالة خالدة و حضارة شامخة سادت العالم زمنا طويلا، يقول: "وإن ما قمتم به اليوم من هذا الاستقبال المتهلل، واللقاء المرحب المؤهل، بإخوانكم أعضاء المجمع الجدد، هو فن جميل من البر بالعربية في أبنائها، يرضي الله الذي اصطفاها ترجمانا لوحيه، ويرضي محمدا صلى الله عليه وسلم الذي أدى بها أمانة الله، وبلغ بها رسالته إلى خلقه، ويرضي يعرب ونزارا اللذين سكبا بها التغاريد العذبة الجميلة، في آذان الأجيال، وتركاها كلمة باقية في الأعقاب، ويرضي أسلافكم الذين ساسوا بها العقول، وصقلـــوا بها الأذهان، والقرائح وراضوا على بيانها الألسنـــة، ودونوا بها

[1] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، م.س ، ج.5، ص 292 .
[2] - المصدر نفسه الصفحة نفسها .
[3] - تركي رابح ، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، ط. 2، الجزائر 1981 ، ص 33 .

العلم و الحكمة، و خطوا بها التاريخ، و شادوا بها الحضارة الشمّاء التي لا تطاول، و وسعوا بها آفاق الخيال العربي، و رققوا ببيانها العواطف الكثيفة، و حدوا بها ركب الإنسانية حينا فأطربوا.»[1]

كانت اللغة العربية قبل إنشاء المجمع، هدفا لسهام الأعداء و تجاهل الأبناء، متخلفة عن ركب الأمم المتقدمة حتى اجتمع لها فريق من العلماء المخلصين الذائدين عن حوض العروبة و الإسلام، فأسسوا هذا المجتمع لخدمة لغة الضاد و تطويرها. و في ذلك يقول الإبراهيمي: « لقد كانت العربية قبل اليوم و إن رباعها لمجفوّة، و إن قصاعها لمكفوّة ... لقد كانت تلقى الأذى من الغريب المتنمّر، و من القريب المتنكّر، فيخف لنصرتها أفذاذ من أبنائها الأوفياء، و جنودها المجهولين، و لكن لا يسمع لهم صوت لتفرقهم في أقطار العروبة المتباعدة، حتى ظهر هذا المجمع.»[2]

ثم يسرد الإبراهيمي المراحل التي مرّ بها المجمع قبل انضمامه إليه ليصبح عضوا من أعضائه البارزين فيقول: « فسعى في إعادة شبابها [أي العربية] و تجديد معالمها، و جمع أنصارها، على تعثر خطواته في السنوات الأولى لإنشائه، كشأن كل ناشئ، ثم ما زال يقوى و يشتد، و كلما انضمت إليه طائفة من رجال العربية و فرسان بيانها انتعش و شاعت فيه الحياة، و وخزته الخضرة من جوانبه، ثم ما زال المدد يتلاحق و العدد يتكامل، حتى وصل إلى الحالة التي هو عليها اليوم، و إنا لنرجو فوق ذلك مظهرا، و إن هذا المجمع إذا اطّرَدَ سيره، و تم إتمامه ليَكونَنَّ أداة فعّالة في وحدة العرب، و لا عجب فأقوى جامع لكلمة العرب كلام العرب، و لئن تم ذلك لتكونن هذه الأسرة أعز رهط في العرب.»[3]

إن اللغة تعكس حضارة الأمة و ثقافتها، و تمثل شخصيتها التي تميزها عن غيرها من الأمم، فليس في « العالم أمة عزيزة الجانب تقدِّم لغة غيرها على لغة نفسها، و بهذا لا يعرفون للأشياء الأجنبية موضعا إلا من وراء حدود الأشياء الوطنية.»[4]

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، م . س ، ج .5 ، ص 292 .
[2] - المصدر نفسه، ص 293 .
[3] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
[4] - مصطفى صادق الرافعي ، وحي القلم، م . س ، ج . 3، ص 34 .

و إذا كانت اللغة مقوما أساسيا لهوية الأمة و ثقافتها، فإن الحفاظ عليها يحقق وجود هذه الأمة و حياتها، لذلك عكف الاستعمار في الجزائر محاولا استئصالها حتى يقضي على شخصية الشعب الجزائري، و يطمس هويته العربية الإسلامية. فإذا تحقق له ذلك، سهل عليه إذابة هذا الشعب في بوتقة ثقافته حتى يقطع نهائيا أواصره بالعروبة و الإسلام. غير أنه لم يفلح في بلوغ مسعاه ذلك، و فشل في تحقيق مبتغاه، على الرغم من نجاحه في نهب ثروات البلاد و سلب خيراتها، يقول : « و لقد حارَبَنا على أرضنا و أقواتنا و كل وسائل الحياة عندنا فأفلح، و لكنه حينما حارب لغتنا و تدسس إلى مدب السرائر و مكامن العقائد من نفوسنا باء بالهزيمة، فلا خوف بعد اليوم و قد تنبه رب البيت فخاب اللص، و باء بالفشل و الخيبة.»[1]

تنوعت أساليب الاستعمار في محاربة اللغة العربية باعتبارها لغة دين و وطن، فلم يسمح المحتل بتعليمها و تعلمها، و وضعها موضع اللغة الأجنبية، و عاملها على هذا الأساس، حيث سنّ ضدها القوانين الجائرة، و ضيّق عليها سبل الانبعاث، و فرص الانتشار. كما منع دخول الكتب العربية من المشرق ليمعن في خنقها و قطع أنفاسها بغرض تحطيم الشخصية القومية للشعب الجزائري و تجريده من « أهم و أخطر أسلحة المقاومة المعنوية التي جعلته يحتفظ – رغم المحن و الاضطهاد– بكيانه العربي الإسلامي»[2]

لقد شرعت فرنسا في تنفيذ مخططها هذا منذ زمن احتلالها أرض الوطن* و جمعت له من العدة و المكر ما لو أصيبت به أي لغة أخرى في الأرض، لتلاشت و اندثرت و أصبحت خبرا بعد كان. و لكن العناية الإلهية التي اختارت اللغة العربية لسانا لهذه الديار، فتكفلت بحفظها و صونها من أن تنالها يد المحتل بالطمس و المحو، هيأت رجالا أفذاذا استماتوا في الدفاع عن هذه اللغة حتى أظهروها على كل ما سواها. و في هذا الصدد، يذكر الخطيب للجمهور الحضور من العلماء، مختلف الوسائل التي

[1] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، م.س، ج.5، ص 294 .

[2] - رابح تركي، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية، م.س، ص 94.

* إن سياسة محاربة فرنسا للغة العربية كادت أن تفرغ البلاد من العلم، و لما فتحت أبواب المدارس في وجه الجزائريين سنة 1883م ، كان التعليم بها فرنسيا بحتا، لأن الجزائر - في نظر المحتل – ليست إلا قطعة فرنسية. ينظر : محمد الطمار، تاريخ الأدب الجزائري ، م . س ، ص 263.

جربتها فرنسا في الجزائر للقضاء على اللغة العربية، فيقول : « و أبرز الأمثلة لحرب الاستعمار للعربية منعه لتعلمها في الجزائر، و حكمه بأنها لغة أجنبية في بلدها، و منعه للكتب العربية التي تطبع في الشرق العربي من الدخول إلى الجزائر، ما ذلك كله إلاّ لغاية واحدة هي إضعافها ثم الإجهاز عليها، و ما جرى في الجزائر جرى في أقطار العروبة على اختلاف في الشكل، و الاستعمار كله ملّة واحدة.»[1]

ثم يشير إلى ظاهرة لفتت نظره و عدّها من عوامل العناية الإلهية لحفظ اللغة في الجزائر، ألا و هي تلك المحطات الإذاعية التي أنشأها الاستعمار لبث القرآن الكريم ذرّا للرماد في العيون، و مخادعة أبناء الأمة، محاولة منه لتجميل صورته بدعوى الحفاظ على حقوقها المشروعة، و لم يعلم أنه بذلك كان يمكّن للغة العربية دونما قصد منه أو دراية. و في ذلك يقول : « و أنا مازلت أتلمح العامل الإلهي لحفظ هذه اللغة، و حفظ الإسلام الذي يحميها و تحميه – أتلمح هذا العامل – في هذه المذاييع التي ينفق عليها الاستعمار أموالا طائلة لتذيع القرآن في العواصم الكبرى فتبلغ أطراف العالم في كل ليلة ... إنه لعمركم انتصار للعربية، و إن كان للاستعمار فيه مآرب أخرى يقصدها أولا و بالذات، و لكن الدعاية للعربية بعمله هذا حاصل غير مقصود، بل مناقض لقصده.»[2]

و لا يبالغ الخطيب الذي عشق العربية و تاه في حبها، و نافح من أجلها، أن يطالب الأعضاء الحاضرين في الحفل، بالذود عن لغتهم بقوة، و التفاني في خدمتها بسخاء، كما حذّر من أي تقصير أو خذلان لأن ذلك لا يجرُّ على أمتهم إلا المهانة و الدنيّة و سوء المصير، إذ يقول: « إن أسرة المجمع أصبحت أسرة عربية لا تخالطها عجمة، و لا يطرق ساحتها دخيل، و لا يداخل نسبتها إقراف و لا هجنة، فلنعمل للغتنا بأنفسنا، و للنسكب عليها عصارة أرواحنا و لنضاعف جهودنا، و لنشدد حيازيمنا، و لنشحذ عزائمنا، و لنوجه كل قوانا لخدمتها و الذب عن حرماتها، و لنعلم أنه إن

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ،ج . 5 ، ص 294 .
[2] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

أصابها سوء و نحن عصبة إنا إذن لخاسرون، و لسنا لعدنان و لا لقحطان إن سيمت العربية ضيما و نحن حماة ثغورها»[1]

و تأسيسا على هذا الفهم، فإن مصير الشعوب العربية و مستقبلها، هو رهن لغتهم. فلا مندوحة لهم إذن، من التمسك بها و التعصب لها تحقيقا للذات، و تعبيرا عن الشخصية الثقافية و الفكرية لأنه إذا " قويت العصبية، و عزّت اللغة، و ثارت لها الحمية؛ فلن تكون اللغات الأجنبية إلا خادمة يرتفق بها، و يرجع شبر الأجنبي شبرا لا مترا، و تكون تلك العصبية للغة القومية مادة و عونا لكل ما هو قومي؛ فيصبح كل شيء أجنبي قد خضع لقوة قاهرة غالبة، هي قوة الإيمان بالمجد الوطني و استقلال الوطن.»[2]

لا جرم أن اللغة المشتركة بين الأفراد، هي أساس قوميتهم، و دليل نسبهم، و معيار عاطفتهم، فإذا وهنت فيهم النزعة إلى لغتهم، تراهم يخجلون من قوميتهم، و يصعرون الخد لسلفهم و تاريخهم و تراثهم العظيم، و ينعتون هذه اللغة بأقبح النعوت، و يرون فيها سبب تخلفهم و تأخرهم. يقول الخطيب في ذلك: "إن اللغة العربية كالدين يحملها من كل خلف عدوله، لينفوا عنها تحريف الغالين، و زيغ المبطلين، و انتحال المؤولين، و أنتم أولئك العدول، فانفوا بجد و إخلاص عن هذه اللغة زيغ المبطلين من هذا الجيل الذين أصبحوا يتنكرون لهذه اللغة و يعفرون في وجهها، و قد فاتهم أن يحصلوا منها على طائل، فأصبحوا يرمونها بالعقم و الجمود، و عدم المسايرة لركب الحضارة، و يرتضخون لكنة، لا هي بالعربية و لا هي بالصالحة لأن تخلف العربية و يتمردون على البيان العربي، و على مناحي الشعر العربي، و عروضه و قافيته و رويه، و يلوون ألسنتهم بالسوء في ذلك كله.»[3]

إن وجود هذه الفئة الغريبة عن مجتمعنا، هو نتيجة أفرزها المخطط الاستعماري الهادف إلى محو الشخصية العربية الإسلامية، و تكوين نخب هجينة تتلقى ثقافة غربية تجعلها تتنكر لانتمائها الحضاري، و تستخف بكل ما هو أصيل، و تهلّل لكل ما هو

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م .س،ج .5، ص 294.
[2] - مصطفى صادق الرافعي ، وحي القلم ، م . س ، ج .3، ص 35 .
[3] - محمد البشير الإبراهيمي ، م . ن ، ص 294 و 295 .

دخيل، تكريسا لمبدأ تقليد المغلوب للغالب و مجاراته، و الانسياق وراء بريق مدنيته الزائفة.

لقد سخّر المحتل شتى الوسائل لاستقطاب هذه الفئات، ففتح لها أبواب مدارسه في الجزائر، و أرسل بعثات منها اتجهت صوب " باريس لاستكمال دراستها الفرنسية، و قليل هم أفرادها ... و هي التي تكونت منها النخبة الجزائرية التي جسّمت سياسة الذوبان في الوطن الأم»[1] مما أدى بها إلى فقدان هويتها و تهميش حضورها و كينونتها و استبدال ذلك كله بثقافة الآخر، هذا الآخر الذي مارس عليها احتلالا جديدا و خطيرا بعد اغتصاب الأرض و الوطن، و هو الاحتلال العقلي الذي يميت في النفس عزّتها و كرامتها، و يبطل طبيعة التمايز بين البشر، و يقضي على كل أشكال المقاومة و أسبابها. و لعل هذا ما أشار إليه الإبراهيمي في خطبته و حذّر منه، موجها كلمة شكر في الأخير للسلطات المصرية على احتضانها لحفل تنصيب أعضاء المجمع الجدد و تهيئة الظروف المناسبة له حيث يقول : "ثم نتقدم بالشكر لشعب الجمهورية العربية المتحدة و حكومتها و رئيسها على احتضانهم للقومية العربية التي هي مدد هذا المجمع، و حسن رعايتها للغة العربية التي هي وظيفة هذا المجمع، بل على إمدادهم لهذا المجمع بوسائل الحياة.»[2] . كما انتهز الخطيب هذه المناسبة الثمينة ليزف إلى أسماع الجمهور الحاضر فيها باقتراب موعد التحاق الجزائر بالمجموعة العربية – و الجزائر ساعتئذ على أعتاب الحرية و الاستقلال – و إسهام أبنائها و أبناء المغرب العربي في تفعيل دور المجمع و ترقيته بما يستجيب للطموحات و الآمال المعلقة عليه، خدمة للغة العربية الشريفة و التمكين لها، إذ يقول: " أيها الأخوة : أنا سعيد بأن أتكلم في هذا اليوم، و في هذا المحفل ووطني الجزائر مقبل على استقلاله الذي اشتراه بالثمن الغالي، و ستلتحق الجزائر بالركب العربي عن قريب ، و سيخرج من أجيال المغرب عمار لهذا المجمع، وحماة لهذه اللغة الشريفة، و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته.»[3]

[1] - صالح خرفي، المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث، م .س ، ص61 .
[2] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س، ج . 5، ص 295 .
[3] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

و على الجملة، فقد كانت الخطابة الثقافية عند الإبراهيمي تمثل أهم وسيلة من وسائل المقاومة ضد المحتل، لإسهامها في تعميق نظرة الإنسان الجزائري إلى ذاته المتميزة، بما يضمن له المحافظة على شخصيته الوطنية بكل مقوماتها الحضارية.

و إذا كان الإبراهيمي قد سخَّر الخطابة الثقافية لإفشال مخططات الاحتلال الفرنسي و مؤامراته الرامية إلى استئصال مكونات الهوية الجزائرية و طمس معالمها، فإن له في الخطابة السياسية ما يعضد مقاصده تلك، و هو ما سنتناوله في المبحث اللاحق.

ثالثا : الخطابة السياسية:

تمثل الخطابة السياسية في أدب الإبراهيمي مرحلة متقدمة من النضج السياسي و الوعي القومي في تسجيل الصراع البطولي للشعب الجزائري في وجه المحتل.

فحين يتعلق الأمر بالخطابة السياسية في الجزائر، فإن الذهن ينصرف إلى الإبراهيمي الذي سبق الجميع في فضح سياسة القمع و الإرهاب الفرنسية، و كشف دسائسها، و تصوير فضائحها و تبيان وسائلها و أساليبها في تنفيذ مشاريعها، و هو ما يعكس شجاعة الرجل في مقاومة الاستعمار بالكلمة الصادقة، و الفكر النيِّر الحصيف، و المبدأ الثابت الذي لا يحيد .

و من نماذج خطب الإبراهيمي السياسية، خطبته التي ارتجلها أمام الوفود العربية و الإسلامية بباريس، حيث عقدت الأمم المتحدة إحدى دوراتها هناك عام 1952 م*، و تبدأ هذه الخطبة بعبارات التحية و التقدير على عادة خطبه السابقة ثم التمهيد للحديث عن الأخوة و صفاتها المستمدة من تعاليم الإسلام إذ يقول : « حضرات أصحاب المعالي الوزراء، حضرات أصحاب السعادة و العزّة، حضرات الزملاء حملة الأقلام، حضرات الإخوان: هذه ليلة ارتفعت فيها الكلف، و غاب عنها العواذل، و غفل عنها الرقباء – إن شاء الله – فاسمحوا لي أن أخرج عن الوضع المتعارف في رسوم الخطاب، فأنا بصفتي رجلا مسلما دينيا أمثل الإسلام في بساطته و سماحته و اعتباراته الروحية، يحلو لي أن أخاطبكم بما جاء به الإسلام في آدابه الراقية، ومثله العليا، و هو وصف الأخوة، فأنا حين أخاطب إخواني الكرام الذين أتاح لي الحظ السعيد أن أقف أمامهم في هذه اللحظة، لا يحلو لي إلا أن أخاطبهم بهذا الوصف الجليل وهو وصف الأخوة الذي منذ فقدناه لم نجد أنفسنا، و كأننا حبات انقطع سلكها فانتثرت

* أقامت شعبة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بباريس ، في مساء الثلاثاء جانفي 1952م ، مأدبة عشاء بنزل " العالمين "(دوموند) في شارع الاوبيرا على شرف الوفود العربية و الإسلامية في الأمم المتحدة و ألقيت في هذا الحفل ثلاث خطب : الأولي للأستاذ عبد الرحمان عزام الأمين العام لجامعة الدول العربية ، و الثانية للأستاذ محمد البشير الإبراهيمي رئيس جمعية علماء الجزائر ، والثالثة للأستاذ فارس الخوري رئيس الوفد السوري . ينظر : محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار م . س . ج . 2. ص . 464 .

فأصبحت كل حبة منها في كف لاقط، فمعذرة إلي إخواني الذين اعتز بأخوتهم إن خرجت عن النمط المألوف في رسوم الخطاب، وخاطبتهم بيا أيها الإخوان»[1]

إن تأكيد الإبراهيمي على صفة الأخوة في مخاطبة سامعيه، أملته ظروف موضوعية، استطاع أن يتصرف معها بحكمة و ذكاء، فالسامعون لم يكونوا على دين واحد، فمنهم المسلمون و المسيحيون العرب و غيرهم، و لا سبيل إلى استمالة قلوبهم و كسب عواطفهم، أهدى من رفع شعار الأخوة [يا أيها الإخوان] الذي يجمع كلمة الجميع، و يوحد هدفهم في الحرية و الكرامة فيقول:« أيها الإخوان المتلاقون على هوى واحد هو هوى الوطن الجامع: المتعبدون بعقيدة واحدة هي عقيدة تحرير هذا الوطن الجامع، الطالعون كالكواكب من أفق واحد هو هذا الشرق الذي اطلعت سماؤه الشمس و القمر، و أطلعت أرضه الأنبياء و الحكماء.»[2]

ثم قدم الخطيب باسم جمعيته التي يتشرف برئاستها و قيادتها و باسم شعبتها المركزية بباريس التي هيأت لهذا اللقاء الحميم ظروف انعقاده و فرص نجاحه، تحيته الخالصة للحاضرين، و التي ينم فيها عن عاطفة صادقة غذتها العقيدة الإيمانية و الإستقامة الفطرية ، إذ يقول :« أحييكم باسم جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، و باسم شعبتها المركزية بباريس، تحية العروبة التي أكرم ما أنجبت البشرية من سلائل، و تحية الإسلام، الذي هو أصفى ما تشظت عنه صدفة الوحي من لآلئ، و تحية الشرق الذي اعتقد مخلصا أنكم أزكى نباته ، و إنكم الصفوة المختارة من بُناته.»[3] لينتقل بعد ذلك إلي الحديث عن الجزائر الجريحة و الصابرة ، و عن صلتها بالشرق الإسلامي لأنها جزء منه، فيتفنن في وصف هذه العلاقة بخياله اللامع الذي يخرج الأفكار – مهما كانت عميقة – في روعة من الرونق و الجمال ، و بأسلوب يأسر القلوب و يستولي على النفوس إذ يقول :« و أحييكم باسم الجزائر العربية المسلمة المجاهدة الصابرة التي هي غصن فينان من دوحة الإسلام، و فرع ريان من شجرة

[1] - البشير الإبراهيمي ، الآثار ، م . س ،ج . 2 ، ص 464 و 465 .
[2] - المصدر نفسه ، ص465 .
[3] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

العروبة، و زهرة فوّاحة من رياض الشرق، تغرّبت هذه الزهرة كما تغرّبت قبلها نخلة عبد الرحمان الداخل* ، فلم تشنها غربة، و مازالت متصلة بالشرق الإسلامي، تستصبح بأنواره، و تتغنى بأمجاده، و تعيش على ذكرياته، و هي علي صلة بالشرق متينة، كانت و مازالت متمسكة بحبله إلي أن يرث الله الأرض ومن عليها»[1]

و يبدو اعتزاز الخطيب جليا بالانتماء القومي للجزائر وصلتها بالمشرق، و اعتداده القوي باللغة العربية التي رسّخها الإسلام على أيدي الفاتحين من أمثال عقبة بن نافع و المهاجر بن أبي دينار و غيرهما. و يرى الإبراهيمي أن قدوم بني هلال إلى هذه البلاد – على خلاف ما روّج له بعض المؤرخين غير المنصفين – أسهم في تعريب اللسان و تنوير الأذهان، إذ يقول : « و مازالت [الجزائر] قائمة على غرس عقبة و المهاجر و حسان بن شريك، بالتعهّد و الحفظ، و مازالت ناطقة بلسان هلال** بن عامر بن صعصعة منذ طغت موجة أبنائه عليها ... تلك الموجة التي يسميها المؤرّخ المجحف إغارة على الأوطان، و تخريبا للعمران، ويسميها المؤرّخ المنصف إنارة للأذهان و تعريبا للسان، فحيثما حلّ هلال من سهولها حلّت العروبة، و أينما سار، سار في ركابه البيان العربي الذي من بقاياه ما تسمعون.»[2] .

و يواصل الخطيب مؤكدا وحدة الصف بين أبناء الجزائر مهما كانت خلافاتهم، لأن ما يجتمعون عليه أقوى و أعظم مـــما يختلفون فيه، وهذا هو المعنى الحقيقي للأخوة الذي لا يكتسب الطابع المحلي الضيق، و إنما يتجاوزه ليرتبط بالعالم العربي

---

[1] – محمد البشير الإبراهيمي: الآثار ، م . س ، ج .2 ، ص 465 .

[2] - المصدر السابق ، الصفحة نفسها.

* هو عبد الرحمان بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان ، ولد بدمشق سنة 731 م ، دخل الأندلس بعد سقوط دولة الأمويين، بويع بالإمارة في قرطبة سنة 765 م ، توفي 788 م. وله شعر وجداني جميل منه هذه الأبيات التي يعبر فيها عن شوقه الحار إلى المشرق – بلده أصلي – وذلك من خلال نخلة رآها بقرطبة فهيجت أشجانه و أثارت مواجعه ، فراح يقول :

تَبَـــدّتْ لنا وَسْطَ الرَصافة نخلة تَنَاءَتْ بأرض الغَرْبِ عن بلد النّخْل
فقُلْتُ شَبيهي في التّغَرُّبِ و النَوَى و طُول التّنَائي عنْ بَنِيّ و عن أهْلي
نشـــأتِ بأرضٍ أنْتِ فيها غَرِيبَةٌ فمِثْلُكِ في الإقصَاءِ و المُنتَأى مِثْلي

ينظر : عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملاين ، ط .1 ، بيروت : 1981 ، ج.4 ، ص 81 و 82 .

** بنو هلال : أصلهم من مضر، استقروا بالجهة الشرقية من النيل بمصر، و قد عمّ ضررهم في الصعيد، فأراد المستنصر بالله الفاطمي أن يتخلص منهم و ينتقم من الملك، المعز بن بلكين الصنهاجي بسبب انفصاله عن الدولة الفاطمية بمصر، فأرسلهم إلي إفريقيا لمحاربة الصنهاجيين، فهزموا جيوش المعز و اكتسحوا سائر بلاد إفريقيا حتي حدود المغرب الأقصى، و لكن على الرغم من موجة التخريب والدمار التي صاحبت أعمالهم، إلا أن لهم الفضل الكبير في تعريب البلاد و القضاء على اللهجات المحلية بها. ينظر: عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب العربي الكبير – العصر الإسلامي– م . س ، ج . 2 ، ص 666 / 673 .

و الإسلامي. و يذكر الخطيب سامعيه أنهم لو زاروا بلاده لتحققوا من ذلك بأنفسهم. فيقول:" هذه هي الجزائر أحييكم باسمها، والتي ترون أبناءها أمامكم بين شيخة و شباب، يلتقيان في غاية واحدة، و إن نَزَغَ بينهما الشيطان، فكما ينزغُ بين الأخوين و لكنهما في النهاية إلي التجمع و الاتحاد، و هؤلاء أبناء الجزائر الذين أحييكم باسمهم يا إخواننا، و استحي أن أقول: يا ضيوفنا، فإننا جميعا في دار غربة، و كم وددنا لو اجتمعت هذه الوفود في دارنا (الجزائر) فترون ما يشرح صدوركم، و يبهج خواطركم من ارتباط الجزائر بالشرق و العروبة و الإسلام. "[1]

إن اجتماع الوفود العربية و الإسلامية في تلك الليلة و في ذلك البلد من أجل مناقشة قضايا أوطانهم بالدرجة الأولى، يعد حدثا هاما و مميزا، نال من إعجاب الخطيب ما جعله محتارا في أمره لا يكاد يصدق ماتراه عيناه فتساءل مبديا إحساسه بالدهشة و الإعظام قائلا :" أيها الإخوان ... أيها الزملاء حملة الأقلام أحقيقة ما ترى عيناي أم خيال؟ إخوة طوّحت بهم الأقدار، وفرّقتهم صروف الدهر في الأقطار، حتى ما يلتقي رائح منهم بمبتكر، ثم يجتمعون في هذه الليلة و في هذه البلدة على غرّة و على غير ميعاد، كما تجتمع أشتات الزهر في إبّانها و في مكانها، تختلف منها الألوان و الأشكال و يجمعها الشذى و الطيب و الجمال"[2]

و بعد تلك المقدمة الطويلة المشتملة على آيات الترحيب، و معاني الأخوة، الحافلة بأسباب البلاغة الرفيعة، يدخل الخطيب موضوعه و يفتحه على سياسة فرنسا باعتبارها رمزا للاغتصاب و الاضطهاد و الاستبداد، معلنا أنه لا يغفر لها مادامت تتمادى في إراقة الدماء و استباحة الحرمات و امتهان الكرامة الإنسانية، فيقول : " أحق أن باريس – و هي منبع شقائنا، وهي الصفحة العابسة في وجوهنا– تنزل لحظة عن عادتها فتتيح لنا أن نجتمع بين حناياها هذا الاجتماع الرائع؟ فلولا حقوق للأوطان في أعناقنا، ولولا عهود يجب أن نرعاها لديارنا، لكنَّا نغفر لباريس جميع

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، م . س ، ج . 2 ، ص .465 .
[2] - م . ن ، ص 466 .

ما جرّتهُ علينا من جرائر، ونمحو لها بهذه الحسنة جميع السيئات.»[1] ثم يرفض قائلا : « و لكن تأبى علينا ذلك دماء في تونس تسيل، وشعب في المغارب الثلاثة يعذب، و شباب تفتح له السجون و المعتقلات، و تغلق في وجهه المدارس و المعابد، ودين في الجزائر ممتهن الكرامة، فهيهات أن نصفح عن باريس أو نصافحها بعد أن جنينا المرّ من ثمراتها، و هيهات أن يدعوها عاصمة النور من لم تغشه منها إلا الظلمات، و هيهات أن يلقبها دار المساواة من لم تعامله إلا بالإجحاف» [2].

ثم التفت إلي هيئة الأمم المتحدة و نعتها بالعجز و القصور و رأى أنها أداة تزكي الاستعمار و تسوغ الاحتلال و تحاك فيها المؤامرات الدولية و لا تقرر فيها مصائر الشعوب. يقول في هذا الشأن:« رمى الشرق باريس بهذه الأفلاذ فخاطبوا الأمم و خطبوا في منظمة الأمم، هذه المنظمة التي سميت بغير اسمها و حليت بغير صفتها، و ما هي إلا مجمع يقود أقوياؤه ضعفاءه، ويسوق أغنياؤه فقراءه، و ما هي إلا سوق تشترى فيه " الأصوات " بأغلى مما كانت تشترى به أصوات " الغريض " و" معبد *"، غير أن الأصوات القديمة كانت فنّا يمتزج بالنفوس، وموسيقى تتسرب إلى الخواطر؛ أما هذه الأصوات فإنها تنصر الظلم، و تؤيد الاستعلاء و الطغيان، و شتان ما بين الصوتين، و تباع فيه الذمم و الهمم بيع البضائع في السوق السوداء، و ما هي إلا مجلس نصبوه للشورى فكان للشرّ و عقدوه للعدل و التناصف فكان فيه كل شيء إلا العدل و التناصف » [3] .

و على الوتيرة نفسها يتدرج الإبراهيمي بأفكاره مستعرضا الفوارق القائمة بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية و كلاهما مر بهذه الديار(الجزائر) وأصاب كل واحد منهما قدرا من « التراث الذي تسلمه الإنسانية إلي الشعوب جيلا بعد جيل مهما اختلفت لغاتهم و أزماتهم، فإن ثمرة الفكر تتجاوز حدود الزمان و المكان »[4] غير أن الحملات الأولى للغزو الأجنبي على الشمال الإفريقي لم تحمل معها من القيم و المبادئ

[1] -. - محمد البشير الإبراهيمي ، الأثار م . س ، ج .2 ، ص466.
[2] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
[3] - المصدر نفسه، الصفحة نفسها .
[4] - محمد زكي العشماوي، دراسات في النقد المسرحي و الأدب المقارن ، م . س ، ص 9 .
* " الغريض" و" معبد" مغنيان مشهوران في تاريخ الموسيقى و الفن العربي.

ما يكفل لها البقاء و دوام الاستقرار في المناطق التي استولت عليها ، بل كانت سلوكاتها و تصرفاتها تغدي روح المقاومة ضدها و تبرّر الثورة عليها، و لما جاء الإسلام و فتح هذا الشمال الإفريقي، وجد فيه سكانه ما يستجيب لمطالبهم الروحية و المادية، فاعتنقوه و فتحوا له قلوبهم و عقولهم، يحدوهم إيمان قوي لا يرضى عن هذا الدين بديلا. يقول الخطيب:« لم يؤثر الفاتحون المتعاقبون على الشمال الإفريقي، ولا أثرت الأديان الراحلة إليه، جزءا مما أثر الإسلام، و أثرت العروبة، وذلك لأن الفاتحين لهذا الوطن قبل الإسلام إنما جاءوه بدين القوة و شريعة الاستغلال، أما الإسلام فقد جاء بالعدل و الإحسان ، و جاء وافيا بمطالب الروح ، و مطالب الجسم ، وجاء لإقرار الإنسانية بمعناها الصحيح في هذه الأرض ، لذلك كان سريع المدخل إلى النفوس، لطيف التخلل في الأفكار ، قوي التأثير على العقول ، و لذلك طال في هذا الشمال أمده ، و سيبقى مادامت الفوارق قائمة بين الإنسان و الحيوان »[1] .

لقد أدرك الخطيب أن سياسة " فرِّق تسد "، هي شرّ ما سيست به الأمم، و ابتليت به الشعوب و الأوطان، لذلك ظل ينافح على الوحدة بين أقطار المغرب العربي الكبير، و يراهن عليها نظرا لما تملكه من عوامل وحدتها من لسان و دين و أرض و سماء و هواء، فيقول: « وإنَّ هذا الشمال الإفريقي كلّ لا يتجزأ تربط بين أجزائه دماء الأجداد، ولسان العرب، ودين الإسلام، وسواحل البحر في الشمال، وجبال الرمال في الصحارى، وسلاسل الأطلس الأشم في الوسط، و اتحاد الماء و الهواء و الغداء، و إنها لخصائص تجمع الأوطان المتباينة، فكيف لا تجمع الوطن الواحد؟ إن تفرق هذه الأجزاء لم يأت من طبيعتها و إنما جاء من طبائعنا الدخيلة، ومن تأثراتنا الغريبة بالدخلاء، و إنني متفائل بأن هذه الليلة ستكون فاتحة خير لعهد جديد و اتحاد عتيد، ونور من الرحمة و الإخاء ينتظم المغارب في سلك.»[2]

و كعادته في كل خطاب، جدد الإبراهيمي متفائلا دعوته إلي اتحاد كبير يضم العرب و المسلمين مشرقا و مغربا. و أهاب بالحاضرين أن يكونوا المنطلق المأمول

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج . 2 ، ص 467
[2] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

لهذه الوحدة الواعدة، و أن يجعلوا من ليلتهم تلك آخر ليلة يطوون بها زمن الفرقة و التمزق و التشرذم، إذ يقول: « إنني متفائل بما يتفاءل به السائرون المدلجون من انبلاج الفجر، فعسى أن يتحقق هذا التفاؤل فتكون هذه الليلة أول خيط في نسيج الوحدة الإفريقية التي هي آخر أمل للمتفائلين مثلي، و إن العنوان الدال على ما وراءه هو اجتماع حركات الشمال الإفريقي في هذا المحفل الزاهر، و إن البشير بتحقق هذا الأمل هو امتزاجنا بإخواننا الشرقيين حول هذه الموائد و من بركاتهم أن تجتمع حركاتنا كلها في صعيد واحد، و كلها لسان يعبر و قلب يفكر، و آذان تسمع، و إنا لنرجو أن تكون قلوبنا غدا غير قلوبنا بالأمس، و أن نفيء إلى الحق الذي أمر الله بالفيأة إليه، " إِنَ اللهَ لاَ يُغَيِّرْ مَا بِقَوْمٍ حَتَى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ* " »[1]

ثم ينتقل إلى الحديث عن هدف الاستعمار في القضاء على تاريخ الجزائر و ماضيها بغرض فصلها عن مقومات الثقافة العربية و الإسلامية، و عزلها عن كل الشعوب التي تنتمي إلى تلك الثقافة حتى تسهل السيطرة عليها و إخضاعها للحضيرة الفرنسية ما دامت فرنسا تعتبر الجزائر قطعة منها، لذلك راهنت على أن ينسى الجزائريون ماضيهم محاولة تضليلهم لأنها تزعم أن هذا الماضي محض خيال لا يمكن التأسيس عليه، في حين لا تجد فرنسا حرجا في أن تمنح لنفسها حق تعظيم ماضيها و تبجيل رجالاتها و عظمائها الذين صنعوا لها تاريخا ظلت تعتز به دهرا مديدا، يقول الخطيب في هذا المعنى: « يقول المستعمرون عنا: إننا خياليون، و إننا – حين نعتزّ بأسلافنا- نعيش في الخيال، و نعتمد على الماضي، و نتكل على الموتى، يقولون هذا في معرض الاستهزاء بنا، أو في معرض النصح لنا، وأنا لا أدري متى كان إبليس مذكرا . ما يرمون إليه، أنهم يريدون أن ننسى ماضينا فنعيش بلا ماضٍ، حتى إذا استيقظنا من نومنا أو من تنويمهم لنا، لم نجد ماضياً نبني عليه حاضرنا، فاندمجنا في حاضرهم، و هو كل ما يرمون إليه، و سلوهم... هل نسوا ماضيهم؟ إنهم يبنون حاضرهم على ماضيهم، إنهم يعتزّون بآبائهم و أجدادهم، إنهم يخلّدون عظماءَهم في الفكر و الأدب و الفلسفة

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م .س ، ج . 2 ، ص 467 .
* سورة الرعد، آية 12 .

و الحرب و الفن، إنهم لا ينسون الجندي ذا الأثر فضلا عن القائد الفاتح، و هذه تماثيلهم تشهد و هذه متاحفهم تردِّدُ الشهادة.»[1]

حاول المحتل جاهداً محو معالم الحضارة الإسلامية من سجل التاريخ، فعمد إلى التمكين لثقافته في نفوس و عقول أبناء الأمة بغرض تكوين أجيال مدجّنة خاضعة لسلطانه، تتودّد إليه و تتقرّب، لأنها لا تعرف عن ماضيها شيئا مذكورا، جاهلة شخصيتها الأصيلة، فـ: « عدم الوعي بهذه الشخصية لا يخرج الأمة فقط من زمانها و محيطها الخاص، بل يطردها من الزمان و العصر الذي تعيش فيه، مما يفرض عليها معارك وهمية، شبحية، لا تؤدي إلا إلى المزيد من مخاصمة الذات و تبديد الطاقات و ضياع الرؤية الصائبة.»[2] كما سعى الكتاب الغربيون إلى تشويه التاريخ العربي الإسلامي، و إفراغه من محتواه العلمي و الأدبي و الإنساني بوجه عام، حتى إذ صغر شأن التاريخ في أعين أهله، احتقروه و ذموه و أعطوا الدنيّة فيه.

يقول الخطيب في هذا المعنى: « ألا إنهم يذكّرون أبناءهم بماضيهم و يلقنونهم سير أجدادهم و أعمالهم، و أنهم يذكرون أبناءنا المتأثرين بعلومهم و صناعاتهم بذلك، و يأتونهم بما يملأ عقولهم و نفوسهم حتى لا يبقى فيها متسع لذكريات ماضينا و أسلافنا، و إن الواحد من هذا الصنف من أبنائنا ليعرف الكثير عن "نابليون" و لا يعرف شيئا عن عمر، و يحفظ تاريخ " جان دارك"* عن ظهر قلب، و لا يحفظ كلمة عن "عائشة" و "خديجة"، وإن هذه لهي الخسارة التي لا تعوض.»[3]

لم يكن الغرب يوما منصفا و لا مخلصا للحق و الحقيقة حينما حاول إنكار مآثر المسلمين في التطور الفكري و جهودهم في خدمة الحضارة الإنسانية في مختلف العلوم و الفنون، و لم يتوقف – الغرب – عند حد الإنكار، بل تعداه إلى القيام ببث الشكوك و الريب حول ماضي المسلمين المشرق و تشويه أسماء علمائه حتى يضعف السلف في قلوب الأجيال و تنقطع حلقة الوصل بين الماضي و الحاضر. و من المؤسف أن

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج . 2 ، ص 467 و 468.

[2] - محمد محفوظ، الحضور و المثاقفة ، م . س ، ص 106.

[3] - محمد البشير الإبراهيمي، م . ن ، ص 468 .

* جان دارك : Jeane d'arc (1412-1431) هي بطلة فرنسية قسّيسة، ساعدت الملك شارل السابع و ردّت الإنجليز عن حصار أورليان سنة 1429 ، قبض عليها و أحرقت في أورليان. ينظر: المنجد في اللغة و الأعلام ، م . س ، ص 196 .

تتحقق في ناشئتنا بعض هذه الغايات الاستعمارية، فيفتتن أبناؤنا بالثقافة الأوروبية، و بأنوارها و أعلامها، يقول الخطيب: « و إني أتخيَّلُ أنَّ لهم في تحريف الكثير من أسماء أعلامنا مأرباً يوم كانوا يأخذون العلم عنا، كأنهم ألهموا من يومئذ أن الزمان سيدول و أن دورة الفلك علينا بالسعد ستنتهي، و أننا سنعود إلى الأخذ عنهم، فحرفوا أسماءنا لتشتبه على أبنائنا، فلا يعرفون أن " إفرويس " هو "ابن رشد"، **و أن** " افينسن" هو "ابن سينا"، و أن " جيبرال طال" هو "جبل طارق"، و هكذا يتكلم أبناؤنا اليوم بهذه الأسماء، و هكذا ينطقون بها، و لا يهتدون إلى أصحابها حتى يقيّض الله لهم من يكشف الحقيقة، ثم يبقى أثر الشك في نفوسهم، لما يصحب تثقيفهم الأجنبي من تحقير لجنسهم و حكم على تاريخهم بالعقم الفكري.»[1] أما العلاج الذي يراه الإبراهيمي مناسبا لمواجهة تلك المصيبة التي نبّه إلى خطرها، يكمن في توحيد تلقين الناشئة ثقافتها العربية الإسلامية في ظل تعدد الثقافات الذي أفرزته ظروف استعمارية مختلفة في المشرق و المغرب. فيقول: « ... و أن دواءها الوحيد تثقيف أبنائنا تثقيفا عربيا شرقيا موحّدا، و أقول موحدا لأنني أعتقد أن الخلافات السياسية التي مني بها الشرق، يرجع معظمها إلى اختلاف الثقافات، فالمثقف ثقافة انكليزية يحترم انكلترا، و المثقف ثقافة فرنسية يحترم فرنسا، و هكذا وزّعنا الاحترام على الغير، فلم يبق من احترامنا لأنفسنا شيء، و كأننا استبدلنا بجنسيتنا الواحدة جنسيات متعددة، كلّها غربية عنّا، و كلّها مجمعة على اهتضامنا و هضمنا .»[2] ثم يردف قائلا: « و لو لا نزعات موروثة عن الأجداد الذين قهروا الرومان في إفريقيا، و دفعوا الصليبيين عن الشرق، لم يبق لنا من ذلك التراث الغالي شيء، بفعل التجهيل الذي هو غاية الاستعمار فينا، و بفعل هذه التعاليم الغريبة عنا.»[3] كما حذر الخطيب من إضاعة الوقت في الجدال العقيم و توجيه اللوم إلى غيرنا لأن ذلك لا يجر منفعة و لا يدفع ضرا. فالمحتل لا يؤمن إلا بالقوة التي تخضد منه الشوكات النافذة ، و تقلّم أظفاره الخادشة، لذلك وجب الإعداد له بما يكفي لردعه و دحره، و جعل كيده في نحره إذ يقول: « ليس من سداد الرأي أن يضيع الضعيف

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج .2 ، ص 468 .
[2] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
[3] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

وقته في لوم الأقوياء، و ليس من المجدي أن يدخل معه في جدل. إن من تمام معنى اللوم أن يتسبب في توبة، أو يجر إلى إنابة، و نحن نعلن أن القوم لا يتوبون و لا يذكرون، فالواجب أن نلوم أنفسنا على التقصير، و نقرعها عن الانقياد لآراء هؤلاء القوم و لإرشادهم.»[1] ثم يشبه حالة من يلوم المستعمر و يطمع في توبته بحال الخروف الذي يعتب على الذئب و يرجو منه توبته، و هيهات ذلك، فإن الذئب لا يصلح معه إلا تقليم أظافره و تكسير أنيابه حتى يؤمن شرّه و يتصاغر ضرّه، و في هذا الشأن يقول: «... أما لومنا إياهم فهو لوم الخروف للذئب، و أما طمعنا في توبتهم فهو طمع الخروف في توبة الذئب، فإن أردتم أن تروا المثل الخارق من توبة الذئب فقلّموا أظفاره، و اهتموا أنيابه، كذلك إن أردتم توبة القوي فاحتقروا قوّته، و احذروا أن تكونوا زيادة فيها، فإنه يتصاغر ثم ينخذل، ثم يساويكم فإذا هو أقل منكم و أضعف. إن هذه هي الأمثال التي يعقلها الطغاة، و إن هذه هي التوبة التي يجب أن يُحملوا عليها حملا، و يلجأوا إليها إلجاءً.»[2] كما أشار الخطيب إلى أن الغزو الثقافي الذي مارسه الاحتلال على شعوب المنطقة، أخطر من الاستعمار العسكري، لأنه يفتك بالمقومات و عناصر الهوية التي تحفظ لهذه الأمة وجودها و تضمن لها بقاءها. فالمحتل لم يتوان في استعمال أساليبه المعروفة و وسائله المكشوفة لضرب الثقافة العربية الإسلامية المتغلغلة في نفوس أبنائها، طمعا في القضاء عليها، لأنه كان يعلم علم اليقين أن استمرار بقائه في هذه الأرض مرهون بإزالة تلك القيم الحضارية و محوها من الوجود نهائيا. و قد أتيح له أن يهاجم الأمة من الداخل ليستأصل جذور حياتهم من منابتها، فهو لا يتصرف في مواقفنا الوطنية و الدينية إلاّ لأنه: « درس أوضاعنا النفسية دراسة عميقة، و أدرك منها مواطن الضعف، فسخّرنا لما يريد، كصوايخ موجهة، يصيب بها من يشاء»[3] و من بين تلك الأساليب المستعملة في تنفيذ هذا المخطط، إضعاف هيبة العلماء في نفوس العامة حتى لا تجتمع على رأي، و لا تحتكم إلى شرع، و تشجيع البدع و الخرافات إمعانا في تجهيل الأمة و ضرب عقيدتها و كذا توسيع دائرة الخلاف

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج .2 ، ص 469 .
[2] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
[3] - مالك بن نبي ، شروط النهضة ، م . س ، ص 159 .

بين الناس في مسائل دينية قديمة عفّ عنها الزمن. فنشأ عن ذلك كله تقسيم للأوطان و زوال للملك و تمكين للأجنبي على الاحتلال و السيطرة، يقول الخطيب في هذا الصدد: « إن القوم درسونا و فهمونا، و تيقّنوا أننا لن نضيع و لن نفنى ما دمنا متمسَّكين بالعرى القوية من الإسلام و العربية و الشرق، فرمونا بالوهن في مقوماتنا حتى تضعضعت و بدأوا بالدين فسخّروا علماءه بوسائل شتى حتى أضعفوا سلطانهم و أزالوا هيبتهم من نفوس المسلمين.»[1] و يحصر الخطيب عوامل الضعف التي دبّت في جسد الأمة فيما يأتي:

1- النبش في ماضينا عن عوامل الخلاف و ما ليس من الدين من نعرات قومية و عصبيات قبلية و محاولة إحياءها ليلهو بعضنا ببعض.

2- العمل على نشر البدع المحدثة و تشجيع الظواهر الاجتماعية السلبية من عبادة الأولياء و ممارسة السحر و الشعوذة و إسناد أمر الدين لغير أهله.

3- انحطاط العالم الإسلامي و تخلفه حضاريا منذ القرن التاسع الهجري، و أفول علومه الإسلامية أمام طغيان مد العلوم المادية الغربية.

4- العمل على تزهيد المسلمين في علوم دينهم و ترغيبهم في العلوم المادية فقط.

5- استمالة الأعيان من القوم و إغرائهم بالمال ثم بث العداوة فيما بينهم، و صرف انتباههم عن عظائم الأمور ليلهوا بصغائرها، و عن كل ما يهم أمر الأمة و أمر المحتل. و يلخص لنا كل ذلك الخطيب بقوله: « و وجدوا ثغرا قديمة من ضلالاتنا فيه فوسّعوها و أدخلوا فيه ما ليس منه، و شجّعوا البدع المحدثة في الدين بتشجيع أهلها، و أعانهم على ذلك كله الانحطاط العام الذي ابتليت به العلوم الإسلامية من المائة الثامنة إلى الآن، فكاثروا بعلومهم المادية حتى غمروها و زهدوا أهلها فيها و أصبحت عقيمة جامدة ثم عمدوا إلى الكبراء فأغووهم بالأموال و الألقاب و الرتب، و أغروا بينهم العداوة و البغضاء، و شغلوهم بالتوافه عن العظائم، و ببعضهم عن الأجنبي، و بأنفسهم عن الشعوب، فما استفاقوا و ما استفقنا إلا و أوطاننا مقسمة.»[2] لقد كان هذا

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، ج .2 ، ص 470 .
[2] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.

الانقسام هو سبب محنة شعوب المنطقة و مصيبتها. فالاستعمار سعى جاهدا إلى تفتيت الأمة الواحدة إلى دويلات صغيرة و ضعيفة، لا تقدر على الصمود و دفع العدوان الخارجي عليها. و الحقيقة أن التجزئة السياسية فرضت على " الوطن العربي بعد أن انهارت الإمبراطورية العثمانية ... و كان الاستبداد العثماني قد هيأ لذلك على الأقل بإضعاف المجتمع و تجريده من مناعته و التسبب بتخلفه و تفككه الاجتماعيين."[1] فقسمت المنطقة إلى مناطق نفوذ للاستعمار الغربي و بسط هيمنته.

و قد لجأ هذا الاستعمار إلى استعمال وسائل عديدة في ترسيخ التجزئة، منها التعليم و التبشير و التجارة و غيرها لإخضاع الشعوب و استغلال خيراتها. و نهب ثرواتها، يقول الخطيب في هذا المعنى: " إن النقطة التي ابتدأ منها بلاؤنا و شقاؤنا هي أنهم أرادونا على الانقسام، و زيّنوه لنا كما يزيّن الشيطان للإنسان سوء عمله، فأطعناهم و انقسمنا، فوسعوا شقة الانقسام بيننا بأموالهم و أعمالهم و آرائهم و علومهم، و لم يتركوا أداة من أدوات التقسيم إلا حشدوها في هذا السبيل ... ثم عمدوا إلى خيرات الأرض فاحتكروها لأنفسهم، و استخرجوها بعقولهم المدبّرة، و أيدينا المسخّرة، فكان لهم حظ العقل، و لنا منها حظ اليد، و لو أننا تعاسرنا عليهم من أول يوم في تقسيمنا، و لذنا بكعبة الوحدة نطوف بها و نلتزم أركانها، لما نالوا منا نيلا، و لما وصلنا إلى هذه الحالة."[2]

وفي ضوء ما سبق، يخلص الخطيب إلى اعتبار الوحدة أمرا لا مفر منه للشعوب العربية و الإسلامية، إذ أرادت التحرر من ربقة الاستعمار و التطلع إلى التقدم و الازدهار. و لا يمكن تجسيد مفهوم هذه الوحدة التي يتصورها الخطيب في ظل أوضاع شاذة خلقتها عوامل التقسيم و التجزئة. فإلى جانب الحدود التي أقامها الاستعمار البغيض لتمزيق الأمة و تفكيك وحدتها، تكونت في " كل بلد عربي طبقة حاكمة لها مصالح و امتيازات و ارتباطات و طموحات خاصة، جعلتها تتمسك

[1] - حليم بركات ، المجتمع العربي المعاصر - بحث استطلاعي اجتماعي- مركز دراسات الوحدة العربية، ط.3 ، بيروت 1986 ، ص 57 .
[2] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج .2 ، ص 470 و 471 .

بالكيانات القائمة و تصارع للإبقاء عليها.»[1] و هذا عائق آخر يقف في وجه كل محاولة صادقة و جادة لتحقيق الوحدة الوطنية. و من جملة الأدوات التي يقترحها الخطيب لتنفيذ هذا المشروع الطموح، و دعوته إلى توحيد التعليم و مناهجه و ترقية الاقتصاد و تحسين ظروفه، و كذا رفع الحدود بين الشعوب العربية تعزيزا لوحدتها و تمتينا لقوتها في مواجهة الأعداء الحقيقيين الذين يتربصون بها السوء، حيث يقول: « فأول واجب علينا، بل أول نقطة يجب أن نبتدئ منها السير، هي أن نكفر بهذا الانقسام، و نكفّر عليه بضده، و هو الوحدة الشاملة لجميع الأجزاء، و كيف يكون ذلك و قد بنيت على ذلك التقسيم أوضاع جديدة و ممالك وملوك و حدود، و إن تغيير الممالك لصعب، و إن فطام الملوك عن لدّة الملك لأصعب منه؟ فلنلتمس مفتاح قضيتنا من بين هذا الركام من الأدوات البالية، و لنعتصم بالأمر الميسور، و هو أن نوحد التعليم و مناهجه، و التجارة و أوضاعها، و لنطمس هذه الحدود الفاصلة بين أجزاء الوطن الواحد، و ليرتفق بعضنا ببعضنا، فيما يزيد فيه بعضنا على بعضنا، و لنكن يدا واحدة على الأجنبي، و لنعتبر المعتدي على جزء منا معتديا على جميع الأجزاء.»[2]

ثم يهيب بالعلماء أن يقوموا بواجبهم في الدعوة إلى الإسلام و وحدة المسلمين. فهم أهل الحل و العقد في الأمة، و طريقها الصحيح نحو السعادة و الكمال. و لما كانت كلمة الحق و الجهر بها أمانة الله و عهده في عنق كل عالم مسلم، فإن ترك هذا الأصل أو السكوت عنه – حين لا يجب السكوت– يعد في نظر الإبراهيمي جبنا و خيانة يخرجان صاحبهما من دائرة الإيمان، حيث يقول: « إن أول من يجب عليه أن يؤذن بهذا الصوت جهيرا مدويا هم علماء الإسلام، فكل عالم مسلم لا يدعو إلى اتحاد المسلمين، و إلى إحياء حقائق الإسلام العالية، و إلى إسعاد الشرق بها، فهو خائن لدينه، و لأمانة الله عنده. و إن العالم المسلم الذي يسكت عن كلمة الحق في حينها و الذي لا يعمل لإقامة الحق، و لا يرضى أن يموت في سبيل الحق، جبان، و الجبن

[1] - حليم بركات ، المجتمع العربي المعاصر، م . س ، ص 58 .
[2] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج .2 ، ص 471 .

و الإيمان لا يلتقيان في قلب مؤمن.»[1] ثم يردف في بيان مسؤولية علماء الأمة و دورهم الخطير إزاء هذا الأمر الجلل قائلا: « إن عهد الله في أعناق علماء الدين لعهد ثقيل، و إن أمانة الإسلام في نفوس علمائه لعظيمة، و إنهم لمسؤولون عليها يوم تنشر الصحائف في هذه الدار، و في تلك الدار.»[2]

و يختم الإبراهيمي خطبته بكلمة قصيرة ينصح من خلالها لسامعيه و يوصيهم قائلا: « أيها الإخوان ! إن الكلام لطويل، و إن الوقت لقصير، فليكن آخر ما نتواصى به: الحق و الصبر و الاتحاد. و السلام عليكم و رحمة الله و بركاته.»[3]

و للإبراهيمي خطب سياسية كثيرة، ألقاها في مناسبات عديدة، ضمّنها أفكاره في ميدان الإصلاح و الرقي و التجديد، و تناولها بلغة استطاعت أن تعيد لهذا الفن قوته و أصالته، و للأسلوب الأدبي العربي رونقه و جماله.

رابعا : الخصائص الفنية للخطابة عند الإبراهيمي:

تتسم الخطابة عند الإبراهيمي بجملة من الخصائص الفنية التي تمنح أدبه خصوصيته الجمالية الراقية، و فرادته الأسلوبية العالية. و فيما يأتي بيان لهذه الخصائص:

1- الارتجال

2- الحماس

3- الخروج عن المألوف

4- الاقتباس من :

أ- القرآن الكريم و الحديث الشريف.

ب- الشعر.

5- الإطناب و التكرار.

6- الاعتناء باللفظ و حسن العبارة.

---

[1] -- محمد البشير الإبراهيمي ، الأثار، م .س ج .2 ، ص 472 .
[2] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها.
[3] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

1- الارتجال:

إن الارتجال سمة غالبة في خطب الإبراهيمي، لذلك ضاع معظمها إذ لم يكن يكتب هذه الخطب، و إنما كان يلقيها مباشرة أمام جمهوره، فالارتجال صفة من صفات الخطيب المقتدر الذي يعتمد على ملكاته اللغوية الخاصة، و قدراته العلمية. و ممّا هو معروف، أنه كلما كانت الكلمة مرتجلة، كان وقعها في السامع أكثر قوة و أبلغ أثرا، لأن الأصل فيها الارتجال، و مجالها السمع لا القراءة.

و الحقيقة أن الإبراهيمي لم يكن يكتب خطبه قبل إلقائها، بل كانت تسجل بعد الإلقاء استجابة لطلب المعجبين به و تعميقا للفائدة، كما تبين في خطبته التي ألقاها بمناسبة ختم حفلة التكريم للأستاذ "ابن باديس" في كلية الشعب، و قد نبّهت مجلة الشهاب في تصديرها لهذه الخطبة بما يلي: « ارتجل الأستاذ خطبته هذه فلم تصطد أقلام الكاتبين من ألفاظها إلا قليلا مشوشا لم يحفظ ترابط المعاني بين أجزائها، فألح جماعة من السامعين المعجبين على الأستاذ أن يكتب ما علق بذاكرته من ألفاظها و يضيف إليها بقلمه ما يربط بين معانيها حرصا على تخليدها في خطب الاحتفال، فحقق بكتابة ما يراه القارئ منشورا بعد هذا.»[1] ثم ورد نص الخطبة عقب ذلك.

2- الحـــماس :

تميزت خطب الإبراهيمي بظاهرة الحماس الذي « يجب أن تحتويه الخطبة أكثر من مما يحتويه المقال.»[2] و تتأرجح هذه الظاهرة الانفعالية عنده بين اللين تارة و الشدة طورا آخر بحسب ما تقتضيه الحالة أو ما يمليه الموقف. و عليه يتجه سير الخطبة نحو اللين كلما اتصل الأمر بالعقل و إعمال الفكر، كما نجد ذلك في مواضع النقد و التحليل و المقارنة و سوق الحجج، و البحث عن سبل الإقناع كقوله:« و لقد علمتنا لغة العرب

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م.س، ج . 1، ص 360 ، نقلا عن مجلة الشهاب، ج .4 ، م .14، جوان جويلية 1938، ص 277 .
[2] - محمد عباس ، البشير الإبراهيمي أديبا ، م . س ، ص 320 .

فنّا في مصاص الأشياء فقهنا منه أن من النساء عقائل، و أن في الأموال كرائم، و أن في الجواهر فرائد، و أن في النجوم دراري ...»[1] و الخطاب موجه هنا إلى ذهن المتلقي الذي ينبغي أن يكون معدا إعدادا ثقافيا مناسبا حتى يتمكن من فهم و إدراك رسالة الخطيب. و في معرض حديثه عن ماضي الأمة الإسلامية و حاضرها، يلجأ الخطيب إلى أسلوب المقارنة الذي لا يتعدى مستوى العقل أو يكاد، إذ يقول: « قارنوا بين هذه الأمة الإسلامية المطوية في بطن الأرض و في بطون الكتب، و بين هذه الأمة الإسلامية التي تدب على وجه الأرض تجدوا الفرق بعيدا جدا، ووجوه الشبه مفقودة البتة مع وجود الاشتراك في الإسم و النسبة.»[2] هذا من جهة، و من جهة أخرى تشتد نبرة الإبراهيمي كلما تعلق الأمر بالانفعال و العاطفة، فيتقاذف جملا قصيرة حافلة بالحماس و التوتر الذين يتركان أثرا عميقا في النفوس. و نجد أن هذه الحالة الانفعالية تتكرر كلما تناول حديثه مسألة الصراع بين الجزائريين و الاحتلال الفرنسي، و ذلك حين يضطرّ الخطيب إلى حث الناس على مقاومة المحتل. و يؤكد هذا الملمح الفني الشيخ محمد الغزالي بقوله: « و كان في خطابته يزأر كأنه أسد جريح، فكان ينتزع الوجل من أفئدة الهيابين، و يهيج في نفوسهم الحمية لله و رسوله، فعرفت قيمة الأثر الذي يقول: (إن مداد العلماء، يوزن يوم القيامة بدم الشهداء)»[3]

و يتدرج الإبراهيمي في استثارة العواطف و تنبيه المشاعر حتى تبلغ ذروة انفعالاتها مستعينا بصورة من الواقع المشاهد، فيقول : « و لو لا عهود يجب أن نرعاها لديارنا، لكنا نغفر لباريس جميع ما جرّته علينا من جرائر، و نمحو لها بهذه الحسنة جميع السيئات، و لكن تأبى علينا دماء في تونس تسيل، و شعب في المغارب الثلاثة يعذّب، و شباب تفتح له السجون و المعتقلات، و تغلق في وجهه المدارس و المعابد، و دين في الجزائر ممتهن الكرامة.»[4]

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج .1، ص 361 .
[2] - م . ن ، ص 363 .
[3] - محمد الغزالي ، مع البشير في القاهرة ، مجلة الثقافة ، م . س ، ص 96 .
[4] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار ، م . س ، ج .2، ص 466 .

3- الخروج عن المألوف:

كان الإبراهيمي يتصرف في مطالع خطبه فيخرج بها عن مألوف خطب العرب إذ كان يؤثر استعمال عبارة (أيها الإخوان) في نداء الحاضرين معللا ذلك بقوله: « فمعذرة إلى إخواني الذين أعتزُّ بأخوتهم إن خرجتُ عن النمط المألوف في رسوم الخطاب، و خاطبتهم بيا أيها الإخوان.»[1] و لعلَّ تأكيد الخطيب على هذه العبارة يعود في اعتقادنا إلى أسباب يمكن أن نذكر بعضا منها فيما يأتي:

أ- صدور مضمونها عن نزعة إنسانية أصلية في الإسلام و أساس هام في بناء و تماسك النسيج الاجتماعي للأمة.

ب- إن إنزال السامعين في مقام الأخوة هو تعبير صادق على مكانة هؤلاء و منزلتهم من نفس الخطيب.

ج- إن استعمال هذه العبارة و تكرارها في الخطاب، يجعل الجمهور أحرص الناس ثقة في الخطيب و أكثرهم تصديقا لكلامه.

د- توطيد علاقات الأخوة بين أبناء الأمة الواحدة مهما تعددت طوائفهم و أديانهم و مذاهبهم.

4- الاقتباس:

ا- القرآن الكريم و الحديث الشريف:

تتمثل ظاهرة الاقتباس عند الإبراهيمي في استشهاداته بالقرآن الكريم و الحديث الشريف و الشعر العربي، و هي « خاصية من خصائص الخطابة الهدف منها الاعتبار و الذكرى و إقامة الحجة و البرهان على الغاية المقصودة.»[2] أما بالنسبة لاقتباسه من القرآن الكريم، فإنه يتخذ شكلين، أولهما إيراده للآية كاملة مثل احتجاجه بالآية في معرض حديثه عن العدل في الإسلام، و الإحسان و حب الخير للناس كافة: « إنَ اللَّهَ

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج .2 ، ص 465 .
[2] - عبد الله ركيبي ، تطور النثر الجزائري الحديث ، م . س ، ص 20 .

يَأمُرُ بِالعَدْلِ و الإحْسَانِ و إيتَاءِ ذِي القُرْبَى و يَنْهَى عَنْ الفَحْشَاءِ و المُنْكَرِ و البَغْيِ يَعِظُكُمْ لعَلَكُمْ تَذَكَرُونَ»[1] من سورة النحل، الآية 90. و ثانيهما توظيفه للألفاظ القرآنية دونما إشارة لسياقها القرآني، مثل قوله:« فليكن آخر ما نتواصى به: الحق و الصبر و الإتحاد»[2] إذ يحيل هذا النص مباشرة على سورة العصر في قوله تعالى: « وَ العَصْرِ، إنَّ الإنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إلاَّ الذِينَ آمَنُوا و عَمِلُوا الصَالِحَاتِ و تَوَاصَوْا بالحَقِّ و تَواصَوْا بالصَبْرِ» . و تلك ظاهرة نلفيها كثيرا في نصوص الإبراهيمي، و تدل على تأثر عميق ببلاغة القرآن و محتواه الديني، فهي تكسب أسلوبه جمالا و رونقا و تعضد أفكاره و تقوي حجته. غير أن التلقي الجمالي لنصوص كهذه لا يمكن أن يكون له أثر إذا لم يكن ثمة توافق تواصلي بين الخطيب و المتلقي. و يمكن حصر شروط هذا التواصل في "صفة المواطنة، أو صفة الإلمام باللغة، أو الانتماء إليها.»[3] و إذا علمنا بهوية المخاطَبين الذين توجه إليهم الإبراهيمي في خطبته تلك، أيقنا أن الرجل كان يعي ما يقول.

و أما الاقتباس من الحديث الشريف. فقد كان له حظ وافر في خطب الإبراهيمي. ففي أول صلاة جمعة له بعد الاستقلال، و بمسجد كتشاوة بالعاصمة*، ارتجل الرجل كلمة جاء فيها: « يا معشر الجزائريين: إن الاستعمار كالشيطان الذي قال فيه نبينا صلى الله عليه و سلم: " إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم هذه، و لكنه رضي أن يطاع فيما دون ذلك" »[4] ثم يؤول الخطيب هذا الحديث مبينا خطر الاحتلال الذي لا ينتهي بانتهاء وجوده العسكري على أرض الجزائر ما دامت ثقافته الاستعمارية – التي عمل مخلصاً على تجذيرها في عقول و قلوب أبناء هذا الشعب – باقية حتى يصدهم عن دينهم و لغتهم إن استطاع، تماما كما يفعل الشيطان بالإنسان حيث يوسوس له في صدره، و يزين له سوء عمله ليزيغ عن الحق، إذ يقول الخطيب: « فهو قد خرج من أرضكم و لكنه لم يخرج من مصالح أرضكم و لم يخرج من

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الاثار، م . س ، ج .1، ص 365 .
[2] - م . ن ، ج .2، ص 472 .
[3] - عبد الملك مرتاض ، الكتابة من موقع العدم - مساءلات حول نظرية الكتابة - دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران ، الجزائر، ص 31 .
[4] - محمد البشير الإبراهيمي ، م . ن ، ج .5، ص 307 .
* ألقيت هذه الخطبة بمسجد كتشاوة في 02 نوفمبر سنة 1962 أمام السلطات العليا للبلاد و وفود غفيرة من مختلف الدول الصديقة و الشقيقة.

ألسنتكم، و لم يخرج من قلوب بعضكم.»[1] و بعد هذا التشخيص الدقيق لحال الأمة المثقلة بمخلفات الاستعمار يقدم الخطيب سبل العلاج و الخلاص قائلا: « فلا تعاملوه [الاستعمار] إلا فيما اضطررتم إليه، و ما أبيح للضرورة يقدر بقدرها.»[2] فالغرض من هذا الاقتباس هو إرساء صورة حقيقية لفرنسا الاستعمارية و مكائدها الدنيئة التي لا تصدر إلا عن شيطان رجيم، و يعد هذا الاقتباس ضربا من التشبيه يعادل فيه الخطيب بين حال الاستعمار و حال الشيطان إزاء من يكيد له.

و لعل شيوع ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم و الحديث الشريف في خطابة الإبراهيمي، لا سيما ما جاء في سياق المواضيع المرتبطة بالدين و الأخلاق و القيم، مرده إلى ثقافة الرجل الدينية، فقد ثقف أدب القرآن و عرف بيانه ووعي أسراره، كما عرف الحديث رواية و دراية، فكان ذلك كله أمارة من أمارات أدبه و طابعا يتميز به فنه الأصيل.

ب- **الشعـــر:**

إنَّ توظيف التراث العربي في خطب الإبراهيمي يتجلى على نحو واضح في تضمينها من شعر العرب ما يخدم غرضه و يوشّح أسلوبه. و يتخذ هذا التضمين صيغا مختلفة في نصوصه، فقد يأتي بالبيت كاملا، أو ينثره نثرا، أو يجتزئ منه عبارة. و هو في كل ذلك ينزع إلى تحقيق أغراض متنوعة بحسب السياق الذي ترد فيه هذه التضمينات، و من ذلك استشهاده بقول أحمد شوقي في معرض ذم التلاوم بين أبناء الأمة و نهيهم عنه:

« لا يَلُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى الخَطْبِ بَعْضًا أيُّهَا القَـــوْمُ، كُـــلُكُمْ أبْرِيَاءُ »*

و قد ورد هذا الاقتباس إثر قوله: « كذلك يجب أن لا نقضي أعمالنا في التلاوم، و أن لا نكون كمن قال فيهم القرآن: « فأقْبَلَ بَعْضُهُمْ علَى بَعْضٍ يَتَلاَوَمُونَ** »[3] و من

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج .5، ص 307 .
[2] - المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .
[3] -. محمد البشير الإبراهيمي ،الآثار، م .س ، ج .2، ص469.
*- هذا البيت لم يرد في ديوانه .
** - سورة القلم ، آية:30

الجدير بالملاحظة في هذا النص أن يتبع الخطيب استشهاده من الشعر باستشهاده من القرآن الكريم و في ذلك زيادة في التشنيع بالفعل الذي ينهاهم عنه.

و حين نستمع إلى قول الخطيب: « و يا أيها المسلمون أنتم أطباء هذه المعضلات و لكنكم جاهلون، و أنتم الحَكَمُ المَرْضِيُّ في هذه المشكلات و لكنكم غائبون»[1] فإن استعماله لعبارة " الحكم المرضي" تحيل المستمع – إن كان ملما بالشعرالعربي القديم و شواهده – إلى بيت الفرزدق الذي هجا به رجلا من بني عذرة احتكم إليه ، في المفاضلة بينه و بين جرير و الأخطل ، فانحاز العذري إلى جرير و فضله عليه و البيت هو:

«ما أنْتَ بالحَكَمِ التُرْضَى حُكُومَتُهُ و لا الأصِيلُ و لا ذِي الرّأيِ و الجَدَلِ»[2]

ينفي الفرزدق أن يكون الشخص الذي خاطبه أهلا للحكم، فكلامه لا ينفذ و لا يعوّل عليه و لا يرجع إليه، فعبارة (التُرْضَى) وحدها كافية أن تصرف أذهاننا إلى شعراء النقائض في الأولين و على الفرزدق تحديدا في هذا البيت الذي يُعرف به لأنه أدخل الألف و اللام (ال) – و هي اسم موصول بمعنى الذي– على الفعل و ليس على الاسم لأن من علامات الاسم أن يقبل (ال) و النداء و الإسناد إليه، أما أن تدخل (ال) على الفعل فهو عمل نادر الحدوث، قليل الاستعمال، و قد علّق على هذه المسألة صاحب (شذور الذهب) بعد إيراد البيت مباشرة، بما يلي:« قلت ذلك ضرورة قبيحة»[3] .

و الشعر عند الإبراهيمي ذكرى و عاطفة و حكمة يلتمس فيه التعبير عن عواطفه و تقوية حججه و ترصيع أسلوبه. و هو يعمد إليه متى دعت الضرورة إلى ذلك، فلا يستعمل منه في الخطابة إلا بقدر حاجة المستمعين إليه و إقبالهم عليه. فإذا أحسّ منهم فترة أمسك و رفع عنهم كلفة الاستماع إليه. و إذا شعر بشغفهم للاستزادة ألقى عليهم دررا غوالي – في ثنايا خطبه – ترجع إلى فحول شعراء العرب التي تفيض بلاغة و حكمة و ذرابة لسان.

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي، الآثار، م.س، ج.1، ص 364.

[2] - هذا البيت لم يرد في ديوانه .

[3] - ينظر:ابن هشام الأنصاري ، شذور الذهب في معرفة كلام العرب ،- تح : حنا الفاخوري – دار الجيل ، ط .1 ، بيروت 1988، ص 21 .

5- الإطناب و التكرار:

استعمل الإبراهيمي الإطناب في كثير من خطبه، غير أنه لم يكن يختص به العامة فقط و إنما هو للعامة و الخاصة معا، ذلك أن الاعتماد على الإيجاز بعرض المعنى في لفظ قليل، لم يكن يبلغ به الغاية المرجوة. لذلك عمد إلى أسلوب الإطناب و الإسهاب حتى يستوفي المعنى حقه من الإيضاح و الإبانة. و من ذلك قوله: "لسنا نعني بأيام الأمم، هذه الأيام المتعاقبة التي يجمعها نسق الأسبوع و تعرف بالأعلام و تمتاز بمراتبها العددية في الشهر، و إنما نعني هذه الأيام التي هي لمع في الدهور، و شيات في غرر العصور."[1] فالإطناب هنا أظهر المعنى في صورتين مختلفتين، الأولى مبهمة على سبيل الإجمال في قوله (لسنا نعني بأيام الأمم ... و تمتاز بمراتبها العددية في الشهر) أما الثانية فتأتي مفصلة للإجمال، و مفسرة للإبهام، و جوابا لما يتحرق السامع شوقا لمعرفته، في قوله(... و إنما نعني هذه الأيام التي هي لمع في الدهور، و شيات في غرر العصور)، و هكذا يتم المعنى و تزول حيرة السامع. فالإطناب على هذا النحو الذي يتم عند الإبراهيمي لا يراد به تحسين اللفظ على حساب المعنى، و إنما هو زيادة في الفائدة و قصد إلى الإيضاح بعد الإبهام. و ذلك نوع من أنواع الإطناب يشيع عند الخطيب . كما نشير في هذا الصدد إلى أغراض أخرى لإطناب الإبراهيمي لا يتسع هنا المقام لتناولها و منها ذكر الخاص بعد العام، و ذكر العام بعد الخاص.

و لئن وجد في خطبه بعض التكرار، فما ذلك إلا من قبيل تقرير المعنى و تجميل الأسلوب بغرض إثبات المقصود و تمكينه في نفس السامع. و التكرار اللفظي غايته عند الخطيب تأسيس لمعنى جديد، يلفت به نظر المخاطب، و يثير اهتمامه، كما أن له أغراضا عدة، نذكر منها على سبيل المثال ما يأتي:

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج .1 ، ص 360 .

أ- **تأكيد الرجاء** : نحو قوله: « تلك هي الأمة التي نرجوها و نعلّق عليها الآمال. تلك هي الأمة التي تمحو سيّئاتنا بحسناتها...»[1] فعبارته الأولى (تلك هي الأمة) هي رجاء صادق يعلّق عليه الخطيب أمله في أن تعود للأمة الإسلامية قوّتها و مكانتها بين الأمم، كي تكفل للحق أن ينتشر، و للعدل أن يسود في العالم أجمع. و في تكراره للعبارة نفسها (تلك هي الأمة) تأكيد لهذا الرجاء.

ب- **طول الفصل:** كما في قوله: « فنحن عباد الرحمن الواجب علينا امتثال أمره، و أعداء الشيطان الواجب علينا اتقاء شرّه و اجتناب مكره.»[2] فكرر (الواجب علينا) لطول الفصل بين الأول و متعلقه و هو (امتثال أمره) و الثاني (اتقاء شره) و ذلك خشية أن يكون الذهن قد غفل عما ذكر أولا.

6- الاعتناء باللفظ وحسن العبارة:

يعتمد أسلوب خطابة الإبراهيمي على حسن اختيار الألفاظ و الاعتناء بها لتكون زينة لمعانيه، فيخرج هذه المعاني – مهما كانت قيمتها- في ثوب من الروعة و الجمال، و هو مذهب طائفة من العلماء و الأدباء « ممن توارثوا فنون الأدب و الثقافة العربية من عصورها المختلفة، و اعتدوا بها و استعانوا بطاقاتها التي استلهمتها عقولهم، فجرت بها ألسنتهم و أقلامهم.»[3] و قد كان يستثمر هذه الألفاظ – أحيانا- في الزمان، فيستحضر وجودها و وظيفتها في القدم لمطابقة الواقع بالحاضر، و ينحت منها ما يخدم فكرته و يدعم به رأيه كما فعل حين قارن بين أصوات الأمم المتحدة و أصوات (الغريض) و (معبد)، – و قد مر بنا هذا النص*- فالأصوات الثانية توهم بخلاف المقصود، و الغرض هنا هو الاحتراس من فساد سياسة الأمم المتحدة المتحاملة على الشعوب المستضعفة لصالح الشعوب القوية.

و من الجدير بالملاحظة أن الإبراهيمي كان يميل في خطبه إلى اقتناء الألفاظ السهلة المألوفة و تجنب حوشي اللفظ و غريبه لمراعاة مقتضى الحال، ذلك أن جمهور

---

[1] - محمد البشير الإبراهيمي ، الآثار، م . س ، ج .1، ص 142 .
[2] - م . ن ، ص 132 .
[3] - محمد عباس ، الإبراهيمي أديبا ، م . س ، ص 199 .
* ينظر إلى صفحة 96 من هذا البحث.

سامعيه تتنوع مستوياتهم الثقافية، فقلما ترد ألفاظ غريبة الاستعمال في خطبه. و إن وردت، تأتي عفوية بغير تكلُّف و لا تصنُّع.

و على الجملة، فقد أدرك الإبراهيمي خطر الخطابة في الدعوة إلى الحق و استنفار النفوس في طلبه، فتوسلها لخدمة قضية شعبه، و تحقيق أهداف أمته، مستندا إلى نصوص القرآن الكريم، و الأحاديث الدينية الشريفة، و التراث الأدبي العربي القديم و أساليبه الفنّية العريقة، كل ذلك جعل منه خطيبا بليغا، و مصلحا كبيرا يحترم عقله و فكرته و دعوته، و يسيطر على "هذا الفن سيطرة مطلقة طوال العقد الخامس و صدراً من العقد السادس."[1] مما كان له أثر كبير في الارتقاء بأدب الخطابة و تطوره، و تحقيق الأهداف السامية من اعتماده.

[1] - عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر، م . س ، ص 283 .

الفصل الثالث

الفصـــل الثالث

تجليات التناص في مقال الإبراهيمي

أولا : التناص في النقد العربي القديم

1- الوضع اللغوي

2- التداخل النصي في المصطلح العربي القديم

أ - الاقتباس

ب- التضمين

ج- المناقضة

د- المعارضة

ه- السرقات

3 – السرقات في النقد العربي القديم

ثانيا : التناص في النقد المعاصر

1- نشأة المصطلح

2- التناص في النقد الغربي المعاصر

3- التناص في النقد العربي المعاصر

أ- المناصة

ب-التناص

ج- الميتانصية

4- تجليات التناص في مقال الإبراهيمي

أ- التناص القرآني

ب- التناص الحديثي

ج- التناص الشعري

تجليات التناص في مقال الإبراهيمي

يمثل النص النثري في الأدب العربي في الجزائر طابعا أدبيا بارزا ومتميزا ، يعكس طبيعة العوامل المؤثرة في البيئة الثقافية وانعكاساتها الفكرية والاجتماعية والسياسية الطافية على سطح المجتمع الجزائري الذي شهد إبان فترة الاحتلال الفرنسي المقيت ، مأساة حقيقة تجاوزت استعمار الأرض و استنزاف خيراتها ، واستعباد الإنسان وامتهان كرامته إلى محاولة فرض عزلة ثقافية وروحية وجغرافية على الشعب الجزائري عن العالم الخارجي بواسطة مد الأسلاك الشائكة المكهربة والملغمة التي غلق بها الحدود مع دول الجوار ، وذلك من أجل منع المثقفين من الاتصال بمنائر الحضارة العربية الإسلامية التي بقيت تتلألأ في المشرق العربي ، فتصل أنوارها ، رغم الحصار الخانق إلى ربوع الوطن ، خافتة ضعيفة حينا ، وقوية مضيئة أحيانا كثيرة .

لقد كان لهذه العزلة الثقافية آثارها السلبية على الخطاب الأدبي في الجزائر في تلك المرحلة ـ وهي الفترة التي سبقت الثورة ـ فجعلته « يقتات من نفسه ، ومن واقعه، ومن بعض ما تيسر من معارف تراثية » [1] فأصبح الشعراء يعتمدون التعابير المكرورة ،و الصور المطروقة ، والموضوعات المستهلكة كالغزل والتهاني ، من حيث أنهم « زهدوا في الحياة الاجتماعية والسياسية في الجزائر ، التي كادت أن تفتك بها الأمراض الاجتماعية ، و المكائد السياسية التي غذاها وحاكها المحتلون » [2] فوجه معظمهم وجهه شطر الزوايا القرآنية والمساجد لإحتراف مهنة التعليم ، لعله يجد فيها ما يسد به بعض حاجاته بعد أن أدركته حرفة الأدب.* فانغلقت الحركة الشعرية على نفسها، وشهدت حالة من الركود والجمود لا تحسد عليها، طيلة الفترة التي سبقت ثورة التحرير. غير أن النص النثري ـ خلافا لما أصاب الشعر ـ عرف بعد الحرب الكونية الثانية ، انفتاحا شبه كلي على النصوص القديمة بحكم الثقافة الموجهة ، التي كانت

1 - جمال مباركي ، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر ،دار هومة ، الجزائر ، أغفل التاريخ والطبعة ، ص 15
2 - عبد الملك مرتاض ، فنون النثر الأدبي في الجزائر ، م.س، 97
* كان القدماء يقولون عن الأديب إذا افتقر: " أدركته حرفة الأدب "

تمنحها الزوايا والمساجد إلى الطلاب * وعلى النصوص الحديثة الوافدة من بلاد المشرق ، والمحملة بمختلف الاتجاهات الفكرية والنقدية الغربية وآدابها . فتمخض عن ذلك ميلاد نهضة أدبية واسعة توجب التجديد في الأدب العربي وتؤسس لحركة نقدية واعدة ، ولكن في« اطار الأصول النقدية للأدب العربي بما يحفظ للشخصية الإسلامية طابعها الأصيل ويفتح أبواب الانفتاح دون الذوبان في الكيان الأجنبي » . [1] فأسهم هذا النشاط في بروز كوكبة من الكتاب الممتازين، « أثروا الحركة الأدبية و فن المقالة بوجه خاص، بما كانوا يملكون من مواهب و عبقريات ». [2] و يأتي الإبراهيمي على رأس هؤلاء الكتاب جميعا، ويتولى رئاسة جمعية العلماء المسلمين و رئاسة جريدتها ـ البصائر الثانية ـ التي يعتبرها عبد الملك مرتاض، أرقى صحيفة عربية ظهرت في وطننا من حيث الأناقة اللفظية، و الروعة الأدبية.[3] و أهاب بالأقلام أن تمدها بالمقالات التي كتبها في افتتاح جريدة البصائر الثانية، فيما بين سنتي 1947–1952م. و أشرف على طبعها بنفسه سنة 1962. و في هذه المرحلة، وصل فيها نشاط الكاتب إلى الذروة في الإنتاج الفكري و العطاء الأدبي و كأنه « شعر بهذه المؤونة الثقيلة التي هي تكليف و تشريف في ذات الحين؛ و ألزم نفسه بأسلوب معين، و عنف بقلمه على اتباع طريقة لا يريم عنها، فإذا مدرسة أدبية تعبيرية تنشأ ثم تنمو و تزهر، و إذا مذهب فني الكتابة يوجد في الجزائر » [4] . فجاءت مقالاته منحوتة كلماتها من لآلئ النثر الفني، مكثفة صورها من روائع الإبداع الأدبي ، مرصعة عبارتها بروائع الذوق الشعري ، فليس ميسورا أن « يكتب أحد في تحليل هذه المقالات دون أن يقف مبهور الأنفاس، مأسور الوجدان ، أمام تزاحم الصور و الملامح لكل كلمة من كلماته، و كل جملة من

1- محمد مصايف النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي ،المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط.2 ، الجزائر 1984 ، ص 49
2- عبد الملك مرتاض، فنون النثر الأدبي في الجزائر، م.س ، ص 86
3- ينظر: م.ن ، ص58
4 – م . ن ، ص 336

*اشتملت خطة الدراسة التقليدية في الزوايا وبعض المساجد والكتاتيب القرآنية ،على عهد الاستعمار ، زيادة عن الاهتمام بتحفيظ القرآن الكريم، تلقين الناشئة العلوم اللغوية كالنحو ، والصرف ، والبلاغة ،و الأدب ،بالإضافة إلى العلوم الشرعية كتفسير القرآن وتعليم الحديث ،و الفقه ، و التوحيد،مع القليل من علم الحساب لصلته بعلم المواريث ، و المنطق لعلاقته بالتوحيد، والفلك لمعرفة أوقات الصلاة . ينظر : رابح تركي، التعليم القومي والشخصية الجزائرية ، م .س ، ص 268 و 269

فقراته، و كل معنى من معاني بلاغته و عبقريته و حكمته » [1]

و لعل أن يكون بعضا من أسرار هذه المقدرة العجيبة التي طبعت هذه النصوص، هي اعتماد الإبراهيمي على ذاكرته الواسعة* المنفتحة على الآثار الأدبية القديمة و الحديثة ، يستمد منها تعابيره الفنية و صوره الإيجابية. فالأديب حينما لا يسعفه خياله في الإبداع ، يلجأ عادة إلى الذاكرة يغترف منها، حيث « تختزن آلاف الصور المحفوظة و القوالب الجاهزة من خلال قراءته الطويلة في التراث » [2]

و بشيء من التأمل، نستبين أن انفتاح نص الإبراهيمي ولّد تداخلا نصيا بين نصوص أخرى، أملته عليه ذخيرته الثقافية الغنية، و برع فيه خياله الخصب الذي يؤلف بين النصوص جميعا، و يربط بين حقائقها المفككة لإنتاج نصوص فريدة النسج، بديعة السبك ، قلَ مثليها في منهج الخطاب العربي المعاصر ، و هو ما أصبح يعرف في منظومة النقد الغربي" بالتناص" و هي نظرية متقدمة استطاعت بآلياتها أن تصبح أداة لنقد أي نص من أي نوع كان ، ومن أي ثقافة نبت ، على أساس أن الكاتب باستطاعته أن يفيد من معارف وتجارب الآخرين، ليعيد إنتاجها في شكل إبداعي جديد، يجعل علاقة المتلقي بالنص علاقة وجود ، فلا يتحقق إلا بذات قارئة تحمل قسطا من ثقافة ذات الكاتب تمكنها من التفاعل مع النص وحل شفراته.

من هنا تبتدئ أهمية اقتفاء الكتابات الأخرى في نص من النصوص والعلاقات النصية الموجودة بداخله ، وكيفية تحويلها.

لقد اكتشف نقاد العرب القدماء هذا المفهوم الحديث ، واستعملوه بأسماء مغايرة كالسرقات ،والنقائض، والمعارضات فـــ « لا كوه فأكثروا فيه الخوض حتى بالغوا» [3]

1- محمد الطاهر فضلاء، مجلة الثقافة ، العدد 87 ، ص 387

2- جمال مباركي ، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر م .س ، ص16

3- عبد المالك مرتاض ، الكتابة من موقع العدم ، م . ن ، ص 282

* يتمتع الإبراهيمي بحافظة خارقة للعادة ، شأن السلف من حملة الثقافة العربية الإسلامية، فقد نشأ في بيت يتوارث أبناؤه العلم طبقة عن طبقة ، فحفظ القرآن مبكرا ، والمَّ بمفرداته و غريبه ، و علومه ، كما حفظ بعض متون اللغة و الفقه كألفية ابن مالك ، وتخليص المفتاح للقزويني ، وألفية بن معطي الجزائري ، وألفيتي العراقي في الأثر و السير ، ونظم الدول لابن الخطيب ، و معظم رسائله المجموعة في كتابه " ريحانة الكتاب" ومعظم رسائل فحول كتاب المشرق و الأندلس ، مع حفظ المعلقات و المفضليات ، و شعر المتنبي كله ، و شعر ابن الرومي ،و أبي تمام، و البحتري و أبي نواس. وحفظ كتبا كاملة في اللغة و الأدب كالإصلاح و الفصيح و الكامل ، و البيان و التبيين، وأدب الكامل، وحفظ قسطا وافرا من شعر شوقي وحافظ إبراهيم. كل ذلك كان له معظم الأثر في ملكته اللغوية. ينظر: الإبراهيمي، الآثار، م. س ، ج . 5 ، ص 164 و 165 .

من غير أن يقلل ذلك من قيمة تراثنا الأدبي والنقدي ، ومن منزلته في البقاء والخلود.

وفي ضوء هذه الأفكار الجديدة ، يجدر بنا أن نتساءل: ما هي إمكانية استغلال التناص كإجراء لإنارة النص المقالي في أدب الإبراهيمي ؟

إن جانبا من الإجابة عن هذا التساؤل ، سوف تتولاه هذه الدراسة المتواضعة، تاركة المجال مفتوحا أمام تأويل المؤولين وهي عملية إنتاج مستمرة ودائمة لا تنتهي ما دامت الفروق بين الإنسان والحيوان قائمة .

أولا : التناص في النقد العربي القديم :

انتشر مفهوم " التناص " في الدراسات والبحوث النقدية المعاصرة ، وحظي باهتمام متزايد لدى المؤولين والمبدعين ، كأداة إجرائية صالحة لدراسة النصوص الأدبية القديمة و الحديثة علي السواء، لذلك ارتأينا رصد الملامح الأولى لهذا المصطلح في النقد العربي القديم.

1- الوضع اللغوي للتناص :

لم تذكر المعاجم العربية القديمة مصطلح " التناص " إلا في " تناصَ" القوم أي اجتمعوا ، أو ازدحموا ، والأصل اللغوي له هو مادة " نصص " و مجمل ما قدمه لسان العرب من هذه المادة من معان هي : البروز ، والظهور،غاية الشيء و منتهاه، و الانتقال ، الرفع و الإظهار. [1] و تكاد تلتقي هذه المعاني كلها عند معني واحد وهو البروز و الظهور. غير أن لسان العرب لا « يأتي بالمعنى الاصطلاحي الذي اكتسبه جذر(ن،ص) لدى الأصوليين وغيرهم ».[2] وقد تداركت هذا النقص بعض المعاجم العصرية مثل : المنجد في اللغة والأعلام ، فأثبت المعنى الاصطلاحي الذي هو : «مالا يحتمل إلا معنى واحد ، أو ما لا يحتمل التأويل » [3] كنص الكتاب أو السنة ، لذلك قيل :" لا اجتهاد مع النص" .

---

[1]- ينظر: محمد بن منظور ،لسان العرب ، مادة : نصص، ص 811.

[2]- محمد مفتاح ، المفاهيم معالم – نحو تأويل واقعي – المركز الثقافي العربي ، ط.1 ، الدار البيضاء 1999 ، ص 18

[3] - ينظر : المنجد في اللغة والأعلام ، م .س ، مادة نصَّ .

ومن هنا يمكن القول إن المادة اللغوية لمصطلح "التناص " قديمة عند العرب ، غير أنها لم تتجاوز حدودها المعجمية ، ولم تحدَد باسمها المعاصر كظاهرة فنية نقدية ضمن الحقل الحداثي.ذلك أن فكرة تداخل النصوص (التفاعل النصي) ليست إلا« مظهرا من مظاهر السرقات الأدبية التي عرفت في الفكر النقدي العربي القديم ، حذو النعل بالنعل ».[1] وهو ما كان نبَّه له عنترة بن شداد من قبل ، حينما كان يضيق ذرعا بإعادة وتكرار ما كان يردده شعراء العرب الذين سبقوه ولم يتركوا له شيئا يقال الشعر فيه ، ودون أن يقوله ، فتساءل :

هل غادر الشعراء من متردّم ؟ [2]

ويؤكد هذه الحقيقة امرؤ القيس حين يقول :

عُوجَا على الطَّلَلِ المُحيل لعلنا نبكي كما بَكى ابنُ حُذام[3]

وهي إشارة إلى أنه ليس أول من بكى على الأطلال ، فما فعله غير تكرار واستعادة لفعل شاعر آخر هو ابن حذام .

وقال كعب بن زهير في هذا المعنى معتبرا شعر المتأخرين ترديدا لأقوال المقدمين:

ما أرانا نقول إلاّ رجيعاً ومعداً من قولنا مكروراً.[4]

ويقول أبو تمام بعده في العصر العباسي مشيرا استنفاد الأوائل للمعاني:

يقولُ من تفزعُ أسماعهُ كمْ تركَ الأوَّلُ للآخر.[5]

ويذكر بن رشيق في العمدة قول علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : « لولا الكلام يعاد لنفد».[6]

ولما سمع المتنبي خبر اتهام الحاتمي له بالسرق ، ردَّ عليه قائلا : « فما يدريك أني اعتمدته ، وكلام العرب آخذ بعضه برقاب بعض ، وآخذ بعضه من بعض ، والمعاني تعتلج في الصدور ، وتخطر للمتقدم تارة والمتأخر تارة أخرى ، والألفاظ

---

[1]- عبد الملك مرتاض ، الكتابة من موقع العدم ، م.س.ن ،ص 287

[2]- معلقة عنترة ، شرح المعلقات السبع ، شرح مفيد قمحة ، م .س ، ص 275

[3]- امرؤ القيس ، ديوانه ، تص – ابن أبي شنب – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1974 ،ص 250

[4] كعب بن زهير ، ديوانه شرح أبي سعيد بن عبد الله السكري ، دار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة 1985 ، ص.154

[5] -أبو تمام ، ديوانه ، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت 1968 ، ط .1 ص 127

[6] - ابن رشيق ، العمدة في محاسن الشعر و آدابه ونقده - تح:عبد الحميدهنداوي - المكبة العصرية ، بيروت ، بدون تاريخ ، ط.1، ص 91

مشتركة مباحة. وبعد فمن الذي تعرَى من الاشتباه، وتفرَّد بالاختراع والابتداع،لا أعلم شاعرا جاهليا ولا إسلاميا إلا وقد احتذى واقتدى واجتذب و اجتلب.»[1] وهو يتفق بقوله هذا مع الذين يرون أن مصدر كل كلام هو كلام قبله حتى وإن كان الكشف عن التعالقات النصية ليس بالعملية اليسيرة ، فالكلام من الكلام وإن خفيت طرقه وبعدت مناسباته .فلا فكاك إذن ، في عالم التناص من تقليد اللاحق للسابق ، كأن لهذه الظاهرة الفنية ضغوطا معنوية ونفسية تمارسها على عملية الابداع ، فالأديب « لا يشكل نصه من ذاته الغفل كما يسنج العنكبوت بيته فيوصف بالوهن ، وإنما يمارس العملية الابداعية مستعينا بثقافته ، هاضما لابداع سابقيه ومعاصريه . » [2] ذلك أنه لا يستطيع ـ وإن أعنت نفسه أيما إعنات ـ أن يرقى إلى مستوى الكمال الإبداعي ، ودرجة العطاء الفني إلا باستعـــاب جهود السابقيـــن وأعمالهم ، وهو ما كان يسميـــه العرب القدامى بـــ « وقوع الحافر على الحافر... ولولا ذاك لانقطع حقا الكلام، ولتوقفت الكتابة ، ولخرست الألسنة ، ولنفد التعبير ، و لكان الناس ، إذن أصيبوا بالعيَ المبين . »[3]

2- التداخل النصي في المصطلح العربي القديم :

لقد وردت في ثراثنا النقدي مصطلحات عديدة تقارب مصطلح (التناص) ، في الحقل البلاغي كالتضمين، والتلميح، والإشارة، و الاحتذاء ، والاقتباس .وفي الميدان النقدي كالمناقضات والمعارضات، و السرقات ،كلها تحاول القبض على مستويات التداخل النصي ، وتؤكد حضور القدماء في شعر المحدثين . ولم يكتف نقادنا القدامى بإيجاد هذه المصطلحات التي تتمظهر في التعالق النصي ، بل راحوا يدققون في جزئياتها ،و يبحثون في تفاصيلها لتمييز كل تداخل عما سواه ، لذلك سنتناول بعضا منها على سبيل المثال لا الحصر .

أ- الاقتباس :

الاقتباس لغة من الفعل قبس ،والقبس الشعلة من النار ،واقتباسها معناه الأخذ منها،

---

[1] - جمال امباركي ، التناص وجمالياته في الشعر الجزاري المعاصر ، م . س ، ص 51و52

[2]- م .ن .ص 52

[3]- عبد الملك مرتاض ، الكتابة من موقع العدم ، م . س ، ص 288

و في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : « من اقتبس شعلة من النجوم اقتبس شعبة من السحر.»[1] ومن معانيه المجازية «اقتباس العلم والخبر ، أي أخذته من غيرك ولم تعرض له من لقاء نفسك »[2]

والاقتباس اصطلاحا هو أن يتضمن الكلام شعرا كان أم نثرا ، شيئا من القرآن الكريم أو الحديث الشريف بهدف إضفاء « لون من القداسة على جانب من صياغة ذلك الخطاب لما في تلك النصوص من هبة وتقديس في ذاكرة الجماعة »[3] كقول أحدهم في وعظه : « فيا أيها الغفلة المطرقون ، أما أنتم بهذا الحديث مصدقون ، مالكم لا تنطقون ، فورب السماء والأرض إنه الحق مثلما أنكم تنطقون . » [4] أما في الشعر فنحو قول ابن الرومي :

لئن أخطأتُ في مديحكَ ما أخطأتَ في منعي
لقد نزلــتُ حاجاتــي بواد غير ذي زرع [5]

وقد يكون الاقتباس من الحديث النبوي الشريف كقول أبي جعفر الأندلسي:*

لا تُعادِ النّاسَ في أوطانهمِ قلّما يُرْعَى غريبُ الوطَنِ
و إذا ما شِئْتَ عيشا بينهمْ "خالقِ الناسَ بخلقٍ حسنٍ"[6]

كما يمكن أن يأتي الاقتباس من قواعد بعض العلوم نحو قول الإمام الشافعي :

خذوا بدمي هذا الغزال فإنهُ رماني بسهمي مقلتيهِ على عَمْدِ
ولا تقتلـــــــوهُ أنا عبــدهُ وفي مذهبي لا يُقتلُ الحرُّ بالعَبْدِ

ففي البيت الثاني ضمَّن بيته قاعدة من علم الفقه التي كان يشتغل عليها.

ويتخذ الاقتباس أشكالا أخرى من المصطلحات كالتلميح والعقد والحل . فأما "التلميح" فانه يظهر في تقاطع النص مع قاعدة علمية في شتى العلوم و الفنون.

و أما "العقد" فانه يتم بتوظيف النص النثري الغائب في النص الشعري الماثل.

---

[1]- ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، م. س مادة : قَبَسَ.
[2]- محمد بن عمر الزمخشري ، أساس البلاغة تح . عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص 352
[3] - جمال امباركي ، التناص وجمالياته في الشعر العربي المعاصر ، م . س، ص 58
[4] -اقتباس من قوله تعالى : " فَورَبِّ السّماء والأرض إنهُ لحقٌ مثل ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُوَن " السورة الذرايات ، الآية 23
[5]- هذا اقتباس من قوله تعالى : "رَبّنا إنّي أسْكَنْتُ من ذريتي بوادٍ غير ذِي زَرْعٍ عند بيتكَ المُحَرّم ." سورة إبراهيم ، أية 37
6- حديث شريف .
*- ينظر : عمر فروخ ، تاريخ الأدب العربي ، م ، س ،ج .6 ، ص 529

و يتمظهر مصطلح" الحل " في نقل الصياغة من مستواها الشعري إلى مستوى النثر.[1]

ولاقتباس أوجه ثلاثة هي :

- محمود مقبول.
- مباح مبذول .
- مردود مرذول.

أما الأول فهوما كان في الخطب الدينية والمواعظ والعهود ، وما جاء في المواضع المرتبطة بالدين و الأخلاق والقيم. والثاني ما كان في الغزل والصفات والقصص والرسائل ...أما الثالث فهو ما تضمن ما نسبه اللـــه إلى نفسه من الصفات أو ما تعرض إلى نقيض ذلك كتضمين آية كريمة في معرض الهزل والمجون والسخف، تعالى الله عما يصفون .[2]

لقد تضاربت وجهات نظر العلماء حول الاقتباس ، فمنهم من أجازه ومنهم من حرّمَه بحجة التطاول على كلام الله المنزه ، غير أن سبب إقبال الخطباء والكتاب والشعراء والبلغاء ،و حماسهم للاقتباس من المصدرين المقدسين ، هو سعيهم إلى إضفاء لون القداسة على نصوصهم الأدبية ورفع مستوى أدائها الفني .ذلك أن الاقتباس ليس بقرآن حقيقة، بل كلام يماثله بدليل جواز النقل عن معناه الأصلي .

ب- التضمين :

التضمين لغة من ضمَّن الشيء أي أودعه إياه كما تـــودع الوعاء المتاع ، والميت القبر . والمضامين ما في بطون الحوامل ، والمتضمن من الشعر ، ما ضمَّنته بيتا ،و قيل ما لم يتم معاني قوافيه إلا بالبيت الذي يليه .[3]

ويلتقي المعنى اللغوي مع المعنى الاصطلاحي في أن التضمين يحدث بين نصين فيشار إلى النص الغائب باقتطاع جزء من البيت الشعري ، أو البيت، كله ويضمنه

---

[1] - ينظر جمال امباركي ، التناص وجماليته في الشعر العربي المعاصر م ، س ، ص 59

[2] - ينظر :أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة ، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع ، ط.2 ، القاهرة 2002 ، ص 334

3 - ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، م ، س ، مادة ضمَن

بلفظه ومعناه ، بغرض إحداث التأثير النفسي والبلاغي ،و يتطلب هذا وجود مستوى من الوعي لدى المتلقي .ومثل ذلك قول الحريري :

على أنّي سَأَنْشُدُ عِنْدَ بَيْعِي " أَضَاعُونِي وَأَيّ فتى أضاعُوا"

استعار الشاعر القول المضمن " أضاعوني وأي فتى أضاعوا" من قول العرجي :

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر.[1]

لقد استعمل الشعراء والكتاب التضمين كثيرا في نصوصهم الأدبية بغرض تقوية المعنى وتزيينه ، وتنبيه المتلقي للنص الغائب المضمّن ، حيث تتجلى فيه القصدية ويكون معروفا مشهورا لدى الكاتب والقارئ على السواء .

ج- المناقضة :

جاء في لسان العرب أن "النقائض" لغة جمع " نقيضة " من نقض البناء أي هدَمه. وقول الشاعر:

وكان أبو العُيُوفِ أخًا وجاراً وذاَ رحم ، فَقُلْتُ لهُ نِقَاضاً

أي ناقضته في قوله وهجوه إياي. والمناقضة في الشعر : ما ينقض به ، فينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول ،و لذلك قالوا نقائض جرير والفرزدق .[2]

وأما اصطلاحا فالنقيضة هي أن يتوجه الشاعر بقصيدته إلى شاعر آخر بغرض الهجاء أو المفاخرة فيعمد الآخر إلى الرد عليه بالمثل . فالنقيضة تعني أحيانا « المخالفة واتخاذ كل من المؤلفين طريقه سائرين وجها لوجه إلى أن يلتقيا في نقطة واحدة معينة. و هذا معنى أخر نقله النقاد العرب إلي المعنى الاصطلاحي وهو النقيضة. »[3]

ويعتري هذا الضرب شروط ثلاثة هي : الاتفاق في الموضوع والبحر والروي وحركة الروي . ومثل ذلك نقيضتا الفرزدق وجرير . قال الفرزدق متظاهرا بالوقار :

إذا جشأت نفسي أقول لها ارجعي وراءك واستحي بياضَ اللّهازِمِ

1- ينظر : جمال امباركي ، التناص وجمالياته في الشعر االجزائري المعاصر ، م، س ، ص 56

2 - ينظر : ابن منظور ، لسان العرب ، م.س ، مادة : نَقَضَ

3 - محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري – استراتيجية التناص – المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء 2005 ، ط.4 ، ص 122.

فرد عليه جرير ناقضا قوله :

أتيت حدود الله مذ أنت يافعٌ وشِبْتَ فَما ينهاك شيبُ اللّهازمِ[1]

وتشكل المناقضة بابا مستقلا في الشعر العربي، بدأ منذ الجاهلية ووصل ذروته في العصر الأموي مع الشعراء الفحول الثلاثة : الفرزدق وجرير و الأخطل. وهي وثيقة تاريخية هامة تعكس صورة لحياة العرب الاجتماعية والسياسية والثقافية .

د- المعارضة :

" عَرَضَ" لغة ، ظهر ، وعرَض الرمح يعرضه عرضا أي أظهره قال النابغة :

لهُنَّ عليهم عادةٌ قد عرفنها إذا عرَّضُوا الخطّيّ فوق الكواثبِ

وعارض الكتاب بالكتاب قابله ، والمعارضة هي المحاذاة .[2] واصطلاحا هي أن يقول الشاعر قصيدة في موضوع ما. فيأتي شاعر أخر فينظم قصيدة على غرارها، وينسج على منوالها في الوزن و القافية والموضوع ، حبًّا في الظهور وحرصا على التفوق .

والمعارضات في الشعر العربي كثيرة ،نذكر منها حادثة الاحتكام إلى أم جندب (زوجة امرئ القيس) والتي كانت بين زوجها وعلقمة بن عبدة الفحل ، حيث قالت لهما: قولا شعرا على روي واحد ، و قافية واحدة ، تصفان فيه الخيل : فقال امرؤ القيس :

خليليَّ مُرّا بي على أمِّ جُنْدُبٍ لِنَقْضِي لُبَانَاتِ الْفُؤَادِ الْمُعَذَّب

وقال علقمة :

ذهبتَ من الهُجْران في غير مَذهبٍ ولم يكُ حقاً كل هذا التجنُّبِ

وأنشداها فقالت لامرئ القيس : "علقمة أشعر منك " .فقال : باي شيئ غلَّبْتِهِ؟ قالت: لأنك قلت :

فللســوط ألْهُــوبٌ وللسّــاقِ دِرَّةٌ وللزَجر منه وقع أهوج منعب

فجهدت فرسك بسوطك، ومريته بساقك ، وأتعبته بجهدك.

وقال علقمة :

---

[1] - ينظر :عمر فاروق الطبّاع ، مواقف في الأدب الأموي ، دار القلم ، ط.1، بيروت 1991 ، ص 217

[2] - ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، م . س ، مادة :عرض

فولّى على آثارهنَّ بحاصبٍ وغَيْبَةٍ شُؤْبُوبٍ من الشدِّ مُلْهَبِ

فأدركهُـنَّ ثانيا من عنانـهِ يَمُـرُّ كمرِّ الرَّائِحِ المُتَحَلِّبِ

فلم يضرب فرسه بسوط ،ولم يمره بساق ، ولم يتعبه بزجر. فطلقها وخلف عليها علقمة فسمي الفحل.[1]

وقد يحسن أن نمثل بنموذج آخر من شعر المعارضات في العصر الحديث . وفي شعر أحمد شوقي تحديدا. فقد كان يرى أن معارضته لا تعني تجاوز الآخر بالضرورة، و إنما تعني المحاكاة في تواضع، والمماثلة في غير استعلاء . يقول في نهج البردة :

الله يشهد أنـي لا أُعَارِضُهُ من ذا يُعَارِضُ صَوْبَ القَارِضِ العَرِمِ

وإنَّمَا أنا بعض الغابطينَ ومن يَغْبِـطُ وليـك لا يَذْمُـمِ ولا يُلِـمِ [2]

وعارض شوقي أبا تمام في بائيته والتي مطلعها :

السّيفُ أصدقُ أنباءً من الكتب في حدِّه الحدُّ بين الجدِّ و اللَّعِبِ

فقـال شوقـي :

الله أكبرُ كَمْ في الفتحِ من عَجَبٍ يا خالدَ التُّرْكِ جدِّدْ خالدَ العَرَبِ[3]

وعارض أيضا أبا نواس في قوله :

حامـل الهـوى تَعِـبُ يَسْتَخِفُّـهُ الطَّـرَبُ

فقال شوقي معارضا :

حـفَّ كأسَهَـا الحَبَـبُ فهـي فِضَّـةٌ ذَهَـبُ[4]

كما عارض شوقي البحتري والمتنبي وأبا العلاء المعري وغيرهم من الشعراء . ذلك أن فن المعارضة أصبح يملأ قسما كبيرا من تراثنا العربي الأدبي والنقدي ، ويمثل جانبا مستقلا ، له شحنته الدلالية والجمالية.

---

[1] - أبو الفرج الاصبهاني ، الأغاني ، دار الثقافة ، بيروت 1983، ط .6 ، ج .11 ، ص 226 و 227

[2] - أحمد شوقي ، ديوانه ، م . س ، ج .1، ص200

[3] - م .ن ، ج .1 ، ص 59

4 – م . ن ، ج .2 ، ص9

ه- السرقات الأدبية :

إن السرقة في أبسط معانيها هي اختلاس ما للآخرين . وفي اللسان ، السارق هو من جاء مستترا إلى حرز فأخذ منه ما ليس له.[1]

وفي الاصطلاح الأدبي هو أن يعمد شاعر إلى أبيات شاعر آخر فيسرق معانيها أو ألفاظها أو صورها الفنية، وقد يسطو عليها لفظا ومعنى وصورة، ثم يدّعي ذلك لنفسه.

وموضوع السرقات الأدبية من أهم الموضوعات التي أولاها نقادنا العرب كثيرا من اهتمامهم وعنايتهم ، إذ أصبح هذا الموضوع بابا واسعا في مؤلفاتهم النقدية والبلاغية ، جمعوا فيه الشواهد والأمثلة وحددوا له مصطلحاته .

لقد كان الشعراء منذ العصر الجاهلي ، « يستعينون بخواطر بعضهم ، وكان المتأخر منهم يأخذ عن المتقدم إما عن طريق الرواية أو بحكم التأثر والإعجاب والمطالعة»[2]، وتفطنوا إلى هذه الظاهرة (السرقات) واهتدوا إلى أنها عمل مشين وقبيح ، يحط من قيمة الشاعر ويبخس فنَه حقه ومشروعيته فـــ« السرقة الأدبية لا يعمد عليها إلا صغار النفوس ، والمحرومين ممن لم يخلقهم الله ليكونوا أدباء، فتحدوا إرادته ، وحاولوا أن يكونوا هم فأمسوا من الخاسرين.»[3]

وفي ضوء هذا الفهم أراد حسَان بن الثابت أن ينفي عن نفسه تهمة السرقة ، ويؤكد أن بضاعته الشعرية هي من الجديد المبتكر ، فقال :

لا أَسْرِقُ الشِّعْرَ مَا نَطَقُوا بَلْ لاَ يُوَافِقُ شِعْرُهُمْ شِعْرِي[4]

وهذا جرير يتهم الفرزدق في قوله :

سَيَعْلَمُ مَنْ يَصِيرُ أَبُــوهُ قَيْنــاً وَمَنْ عُرِفَتْ قَصَائِدُهُ اجتلاباً[5]

ويرد عليه الفرزدق قائلا :

إنّ استراقكَ يا جريرُ قصائدي مِثْــلُ إدّعــاءِ أَبيــكَ تَنَقُّلُ[6]

---

[1]- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، م.س، مادة: سرق.
[2]- بشير خلدون، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 217.
[3]- عبد ا لملك مرتاض، السبع المعلقات، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998، ص 187.
[4]- حسان ابن الثابت، ديوانه، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص 97.
[5]- جرير، ديوانه، تح: نعمان محمد أمين طه، دار المعارف، مصر، إغفال الطبعة والتاريخ، ج.3، ص 814.
[6]- الفرزدق، ديوانه، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت 1980، ج.2، ص160.

وهذا دليل يبين تعوُّد بعض الشعراء على سرقة أشعار الغير، مما فتح الباب واسعا أمام النقاد الأوائل لتناول هذه المسألة الخطيرة في كتاباتهم من أمثال ابن قتيبة ، وابن سلام، وقدامه بن جعفر . غير أن اهتمامهم بها لم يصل إلى درجة النضج.

3- السرقات الأدبية في النقد العربي القديم :

حين ظهر الاتجاه الشعري الجديد في القرن الثالث الهجري ، ودعا إلى التجديد في المعاني والأساليب ، وجد النقاد أنفسهم أما مادة غنية يجتهدون فيها ، فاختلفوا في عدة قضايا كمسألة القدم والحداثة ، وقضية اللفظ والمعنى ، والمطبوع والمصنوع... إضافة إلى قضية السرقات الأدبية التي نالت حظها الموفور من الدراسة والبحث ، خصوصا بعد الخصومة النقدية التي ثارت بين أبي تمام والبحتري ، وكانت سببا دفع النقاد إلى تأليف « مجموعة هائلة من الكتب تناولت بالدراسة والتقصي معاني مشكلة السرقات واستعملوا لأول مرة لفظ السرقة . »[1] فقد كتبوا في سرقات أبي نواس ، وسرقات أبي تمام ، و سرقات البحتري، وأفاضوا الحديث عن المتنبي في سرقاته .

وكان القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (392هـ) ينكر السرقات الأدبية ويعدّ ذلك من « الأفكار الشائعة بين الناس ، والألفاظ المتداولة في المعاجم بين الشعراء.»[2] ، لذلك تسامح كثيرا في الأخذ المرخص من المعاني التي سبق أن طرقها الشعراء ، وحظر على نفسه بت حكم على أحدهم بالسرقة مادام توارد الخواطر مشروعا، واتفاق الهواجس ممكنا .

أما الآمدي (370هـ) صاحب كتاب "الموازنة بين الطائيين" (يقصد بهما أبا تمام والبحتري) ، فيرى أنه لا سرق في الألفاظ المباحة الشائعة ، وإنما السرق في المعاني المخترعة التي يختص بها الشاعر، ويكون بذلك قد وضع مقياسا للسرقة وهو أن « ما جرى على الألسن وشاع من المعاني أو أصبح كالمثل السائر بين الناس فإنه يعد سرقة

---

[1]- بشير خلدوان ، الحركة النقدية أيام ابن رشيق المسيلي ،م.س، ص 218 و219

[2]- عبد الملك مرتاض، الكتابة من موقع العدم ، م . س ، ص 288

إذا اشترك فيه الشاعران . »[1] فهو لم يكن يرى عيبا كبيرا في السرق ،واقترح تسمية هذا الموضوع من الاشتراك بالاتفاق في المعاني .

وأما محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي (388هـ)، فقد خصَّ السرقات بدارسة واسعة في كتابه " حلية المحاضرة " رتَّب فيه أصولها، وميّز عددا كبيرا من مصطلحاتها وطبّقها عمليا في كتابه " الرسالة الموضحة في ذكر سرقات المتنبي وساقط شعره " و" الرسالة الحاتمية في ما وافق أرسطو من شعر المتنبي". وذكر الحاتمي نحو عشرين بابا نكتفي بذكر بعض منها .

- **باب الانتقال:** و هو أن يأخذ الشاعر أبياتا لشاعر آخر.
- **باب الانحال :** و هو أن يقول شاعر أو راوية قصيدة ثم ينحلها شاعر آخر .
- **باب الإغارة:** و هو أن يعجب شاعر بشعر غيره ، فيستنزل قائلها عنها لأنها في نظره أليق بطريقتة هو.
- **باب المعاني العقم :** وهي الأبكار المبتدعة.
- **باب الموارِدة :** و هو اتفاق الشاعرين يتفقان في المعنى، ويتواردان في اللفظ ،و لم يلق أحدهما صاحبه ولا سمع بشعره .
- **باب المرافدة :** وهو أن يتنازل الشاعر عن بعض أبيات له فيرفد بها شاعر آخر ليغلب خصما له في الهجاء .[2]

ولم يقف عبد القاهر الجرجاني (417هـ) صاحب نظرية النَّظم* ، طويلا عند مسألة السرقات في كتابيه "دلائل الاعجار " و" أسرار البلاغة " ،ربما لأنه لم يكن يعد هذه الظاهرة أمرا مهما في النقد الأدبي ، ولكنه ظل يردد موقف السابقين من النقاد القدامى حول القضية ، ويعتبر أن السرقة لا تقع في عموم الغرض كوصف الممدوح بالشجاعة وحسن المظهر ، ولا تقع أيضا في تشبيهات معروفة كتشبيه الشجاع بالأسد،

---

[1]- إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، دار الثقافة ، بيروت 1986 ، ط. 5 ، ص 177

2- ينظر :م . ن ، ص257-259

* اهتدى عبد القاهر الجرجاني إلى أن الجمال ليس في اللفظ ولا في المعنى، وإنما هو في نظم الكلام أي في الأسلوب وروعته ،وفي محاولة لإثبات ذلك تحدث عن حروف العطف وقيمة الايجاز والإطناب ومطابقته بمقتضى الحال .ينظر : عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز في علم المعاني - تصحيح : محمد رشيد رضا - دار الكتب العلمية ، ط. 2 ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص 40 وما بعدها .

والجواد بالبحر، وإنما تقع السرقة في مالا يدرك إلا بالرويّة والاستنباط والتأمل .[1] وبهذا يكون عبد القاهر الجرجاني قد حدّد مواطن الاتفاق وبيّن فيما تكون السرقة فيه .

ومن النقاد المغاربة الذين طرقوا باب السرقات، وقدموا جهودا نقدية غنية فيه ، أبو علي الحسن بن رشيق المعروف بالقيرواني، والذي قام بدارسة هذه المشكلة في كتابه "العمدة في محاسن الشعر وأدبه ونقده" وفي رسالته "قراضة الذهب". فهو يرى أن السرقة على أنواع ، ويطرحها على الشكل التالي :

- سرقة اللفظ مع المعنى.
- سرقة المعنى مع تغير بعض اللفظ.
- سرقة تعتمد على تغيير بعض المعنى أو قلبه عن وجهه حتى يخفيه.

وبعد أن عدَّد ابن رشيق أوجه السرقات وبرّر لها بالأمثلة والشواهد في " العمدة " انتهى إلى الرأي الذي انتهى إليه من قبله الآمدي والجرجاني وعبد الكريم النهشلي، ذلك أن« السرقة لا تكون إلاّ في البديع المخترع الذي اختصّ به الشاعر بعينه»[2] والمعنى الخاص المخترع هو الذي لم يسبق إليه ، فإذا جاء شاعر لاحق وأخذ المعنى من السابق وأجاد فيه ، فهو أولى به من صاحبه .

تلك هي أهم مواقف النقاد العرب القدامى تجاه قضية السرقات الأدبية والتي تناولوها بتحليل رصين ينمّ عن عمق ثقافتهم وسعة اطلاعهم ، كما يدل على تمكنهم من رصد النصوص الغائبة في النصوص الحاضرة ، وتحديد وظيفتها الدلالية والجمالية .

ثانيا : التناص في النقد المعاصر :

1- نشأة المصطلح :

حاولت الدارسات المتخصصة بظاهرة " التعالق النصي " السعي إلى تأسيس مفهوم نظري وتطبيقي له ، مستفيدة من الحركة النقدية الغربية الحديثة . ذلك أن النص كما يراه الباحثون المعاصرون ، لا يمكن أن ينفصل عن الماضي والمستقبل .إنها نظرة جديدة إلى النص الأدبي تتجاوز المنهج القديم القائم على « إبراز موطن الجودة

[1] - احسان عباس ، تاريخ النقد الادبي عند العرب ، م .س ، ص 437 و438

2- بشير خلدون ، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي ، م . س ، ص 231

والرداءة في أغلب الأحيان ، نظرا لعجزها عن فهم العلاقة التي تربط بين الأشكال الأدبية والبناء الاجتماعي والثقافي . »[1]

ويبدو أن استعمال الأدباء والشعراء المعاصرين الأساطير واستحضارها في عملية الإبداع ، سمح للنصوص بالعودة إلى الماضي تستمد منه وتتفاعل معه ، مما دفع بالنقاد إلى ضرورة البحث عن أدوات جديدة لاحتواء عملية التداخل النصي . ومن هنا بدأت معالم نظرية التناص تتضح وتتبلور ، مستندة إلى كم هائل من الأبحاث والدراسات حول النص والخطاب .

ولعل أن يكون حديث " جاكبسون " (JAKOBSON)عن السنكروني (التزامني) إرهاصا متقدما في طرح مسألة التناص. فمفهوم « النظام التزامني الأدبي لا يطابق مفهوم الحقبة (L'epoque) الساذج ، نظرا إلى أن هذا المفهوم لا يتركب فقط من أعمال فنية متقاربة في الزمن ، وإنما أيضا أعمال انجذبت إلى فلك النظام آتية من آداب أجنبية أو من حقب سابقة . »[2]

وألمح "تودوروف" (TODOROV) إلى مصطلح التناص وذكر ما يدل عليه عند تحليله الشكلي للنص الأدبي في قوله « إنه من الوهم أن نعتقد بأن العمل الأدبي له وجود مستقل ، إنه يظهر مندمجا داخل مجال أدبي ممتلئ بالأعمال السابقة.»[3]

ويؤكد " تودوروف " في كتابه (الشعرية) أن الفضل في بدء الاعتراف بهذه الظاهرة التعبيرية يعود إلى الشكلانيين الروس (FORMALISTES RUSSES) الذين اعتبروا العمل الفني يدرك في علاقته بالأعمال الأخرى ، غير أن هذه الآراء لم ترق إلى تصور كامل وناضج للتناص ،و لم يحضر كإجراء في تحليل الخطاب الأدبي. ولكن " تشيلوفسكي" (CHKLOVSKI) هو من فتق « الفكرة ، ثم أخدها عنه باختين (Bakhtine) الذي حولها إلى نظرية حقيقية تعتمدعلى التداخل القائم بين النصوص.»[4]

---

[1] - جمال مباركي ، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر ، م . س ، ص121

2 - نور الدين السد ، الأسلوبية و تحليل الخطاب - دراسة في النقد العربي الحديث - دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع ، الجزائر 1997 ، ج .2 ، ص 99 و 100

3 - م .ن ، ص 100

1 - جمال مباركي ، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، م . س ، ص 38

والوقوف على حقيقة التفاعل الواقع فيها في إستعادتها ومحاكاتها لنصوص سابقةعليها، والذي أفاد منه بعد ذلك العديد من الدارسين أمثـــال " ريفاتيـــر" و " جيرار جينيـــت " و" بول زمتور " و غيرهم،إلى أن استوى مفهوم التناص على عوده بشكل تام على يد تلميذة " باختين " الباحثة " جوليا كريستيفا " .

2- التناص في النقد الغربي المعاصر :

التناص (INTERTEXTUALITE) مصطلح نقدي وأداة إجرائية تستخدم لنقد النصوص الأدبية وكشف التراكم المعرفي داخلها . وظهر هذا المصطلح في عدة مقالات وبحوث كتبتها " جوليا كريستيفا" (JULIA KRISTIVA) بين سنتي 1966 و1967، و صدرت في مجلتي "تيل كيل" (TELQUEL) و"كريتيك" (CRITIQUE) ثم أعيد نشرها في كتابيها " سميوتيك " (SEMIOTIQUE) ونص الرواية(LE TEXTE DU ROMON)و في مقدمة كتاب " باختين " " شعرية دوستويفسكي"[1]، منطلقة من مفهوم "الحوارية" الذي كان يستخدمه "باختين" في قراءاته للتناص. غير أن مصطلح " الحوارية " ظل غامضا ومبهما حتى مجيئ الحقبة البنوية وما بعدها، ليتوسع في إطار التناص ويتعمق في أنواعه ووظائفه ودلالاته .

وإذا كان "باختين " لم يستعمل كلمة " تناص " فينبغي أن نسجل أن « مصطلحا أساسيا لكتابه الماركسية وفلسفة اللغة 1929 هو" تداخل" قد استخدم في مثل هذه الأنساق " تداخل السياقات" و" التداخل السيمائي " ،" التداخل السوسيولفظي " هذا النسق الأخير هو ما يأخذ عند " كريستيفا " موقع التناص[2] .»

إن مفهوم التناص عند " كريستيفا" ظهر إلى الوجود منذ أن طرحت تصورها عن النَّص كإيديولوجيم باعتباره وظيفة تناصية تقوم على « استرداد ونقل لتعابير سابقـــة أو متزامنة مع النّص المكتوب ، فهو (اقتطاع) و(تحويل)، وكل ذلك يشكل النّص وينتمي إليه انتماءا جماليا وفكريا.[3]» فهي ترى أن "التناص" هو تقاطع داخل

[1]- جمال مباركي، وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، م.س، ص 126.
[2]- ينظر: حسين قحام، ملتقى علم النص، مجلة اللغة والأدب، العدد 12، جامعة الجزائر، ديسمبر 1997، ص 124.
[3]- جمال مباركي، م.ن، ص 38.

نص مأخوذ من نصوص أخرى.أي أن كل نص هو « امتصاص أو تحويل لوفرة من النصوص الأخرى»[1] . وكل نص هو « عبارة عن لوحة فسيفسائية من الاقتباسات ، وكل نص هو تشرُب وتحويل نصوص أخرى . »[2]

وقد شاع هذا المصطلح في الأبحاث الأدبية، والدراسات النقدية ، وهاجر في بداية السبعينيات إلى أمريكا . وفي عام 1976 أصدرت مجلة (بويطيقا) عددا خاصا عن" التناص " .وفي عام 1979 أقيمت ندوة عالمية عن " التناص " في جامعة "كولومبيا " تحت إشراف "ميكائيل رفاتير"[3] الذي أولاه أهمية فائقة واعتبره : « جوهر الشعرية في النص الأدبي ومرتبة من مراتب التأويل ، لذلك نجده لا يؤكد عملية انبثاق النصوص من نصوص سابقة فحسب ، بل يجعل منها الصورة الوحيدة لأصل الشعر.»[4] وقد نشرت تلك الأعمال في عام 1981م.

هيمن مفهوم التناص على الساحة النقدية الغربية بشكل سريع و مميز، و تناوله النقاد فأوسعوه بالبحث والدراسة نظرا لأهميته في تحليل الخطاب. غير أن الإشكالية التي يطرحها هذا المفهوم تتحدّد بتعدد التعريفات والمفاهيم التي قدّمت لهذا المصطلح، والناجمة عن الاختلاف في طبيعة الفهم الذي يملكه أصحاب هذه النظرية عن النص . وبغرض تقديم صورة مختصرة عن أهم ما تضمنته هذه الدراسات ، نكتفي بعرض بعض منها عند كبار النقاد الغربيين .

تتبع الباحث " مارك انجينو" (Marc Angenot) مسار مصطلح التناص في الخطاب النقدي واقفا عند مختلف تفسيراته ومواقف النقاد منه على غرار" باختين " و"كريستيفا" و"لورآن جيني"، موضّحا أن هذا المصطلح قد يشذّ عن أي إجماع بين مستعمليه، ولكنه لا يفقد وظائفه النقدية والتي حددها كما يأتي :

– فكرة النص كقابلية تناصية.

---

[1] - جمال مباركي م، التناص وجمالياته، في الشعر الجزائري المعاصر ، م.س، ص42

[2] - م . ن ، ص 38

[3] - ينظر : سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي – النص والسياق – المركز الثقافي العربي ، ط . 2 ، المغرب 2001 ، ص 94

[4] - جمال مباركي ، م . ن ، ص 127

– إن النص باعتباره تناص أصبح مادة ابستمية (Epistémique) من ابيستيمولوجيا متعلقة بالمعرفة .

– إن فكرة التناص ترفض انغلاق النص.

– إن فرضية الحقل التناصي (Champ intertextuel) سمحت بالحدّ من عملية تقليص الممارسة الرمزية.

– تستخدم كلمة " التناص" من الناحية الدلالية مصدرًا لنحت وابتكار العديد من المصطلحات التي يصعب العثور على مصدرها .[1]

ويذهب " لوران جينـــي " (Laurent Jenny) في دراسة له بعنوان " إستراتيجية الشكل " والتي يطرح فيها وجهة الباحثين من أمثال " ميشال أريفي " (M.Arrive) و" كريستيفا " إلى التمييز بين التناص الداخلي والخارجي أو العام. ففي «التناص العام نجد أنفسنا أمام علاقة نص الكاتب بنصوص غيره من الكتاب. وفي التناص المقيّد (الداخلي) أمام علاقة نصوص الكاتب بعضها ببعض .»[2]

وفي مجال تفاعل النصوص نفسه ، وجد " جيني " أن في الإمكان تحديد ثلاث قواعد هي : التلفيظ (Verbalisation) وهي عملية اختزال النصوص غير اللفظية وتقديمها من خلال اللفظ في النص ، والخطية التي تكون مدمجة في خطية النص ثم التضمين .[3]

ويأخذ موضوع التعاليات النصية (Transtextualite) حيزا كبيرا من اهتمام "جيرار جينيت " (Gérard Genette) الذي قدّم محاولات جديدة لتشخيص وتنميط العلاقات النصية داخل النص . فهو يرى أن التعالق معناه كل « ما يجعل نصًا يتعالق مع نصوص أخرى بشكل مباشر وضمني. »[4] وهو مظهر من مظاهر نصيّة النص أو أدبيته. ويحدّد " جينيت " خمسة أنواع من أنماط التعالي النصي وهي :

---

[1] - ينظر : نورالدين السد ، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، م . س ، ص 98 و99

[2] - سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي ، م . س ، ص95

[3] - ينظر : م . ن ، ص94

[4] - م . ن ، ص 96 و97

- **التناص** : وهو عند "جنيت " حضور نص في آخر .

- **المناص** : (Para texte) ونجده في العناوين والمقدمات والذيول و الصور.

- **الميتانص**: (Méta texte) وهوعلاقة التعليق الذي يربط نصا بآخر .

- **النص اللاحق** : ويكمن في العلاقة التي تجمع نصا لاحقا (hypertexte) بنص سابق (hypotexte)

- **معمارية النص** : وهو النمط الأكثر تجريدا وتضمينا ، يتخذ بعدا مناصيا ويتصل بالنوع كالشعر والرواية والبحث... [1]

ويشير " رولان بارط" (Roland Barthe) إلى مفهوم التناص في كتابه " لذّة النّص " ويؤكد أن طبيعة الكتابة تعتمد على المخزون اللغوي الذي يحتوي على تراكم عدد كبير من النصوص لذلك فإن « النّص أو الخطاب الذي يقدمه المبدع هو نتاج تفاعل نصوص لا حصر لها مخزونة في ذهن المبدع ، يتمخض عن عملية التفاعل و التداخل لهذا النص الذي ينتجه المبدع ، و هذا التفاعل هو الذي يدعى بـــ " تداخل النصوص " أو " تداخل الخطابات .»[2]

وقد يكون هذا الفهم عند " بارط " ناضجا ومتقدما في فهم عملية الإبداع وارتباطها بالنص الغائب .

أما" فيليب سولرس" (F.Sollers) فإنه يحاول أن يؤصّل تلك المقولات في مفهوم "التناص" فيقول : « كل نص يقع في مفترق طرق نصوص عدة ، فيكون في آن واحد إعادة قراءة لها ؛ واحتدادا وتكثيفا ونقلا وتعميقا.»[3] وغير بعيد عن هذا الطرح يوضّح " بروجيس" (Borges) بآن « جميع الأعمال الأدبية هي من صنع كاتب واحد غير زمني (Intemporel) وغير معروف (Annonyme) .»[4]

---

[1]- ينظر : سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي ، م . س ، ص 97

[2] - نور الدين السد ، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، م . س ، ص 97

[3] - م . ن ، ص96 و97

4- م . ن ، ص100

وفي السياق نفسه ، يؤكد " بول زمتور" (Paul Zumthor) أهمية التذكر في عملية إنتاج النص باعتباره حمّال نصوص، فالنص عنده هو « نقطة التقاء نصوص أخرى»[1]

هكذا يبدو مفهوم التناص في بعض الدراسات النقدية الغربية المعاصرة ، مشكلا علاقة تفاعل بين نصوص سابقة ونص حاضر. أو تعالق (دخول في علاقة) نصوص مع نص بكيفيات مختلفة .

3 – التناص في النقد العربي المعاصر :

يعتبر " التناص " من المفاهيم المركزية التي هيمنت داخل الخطاب النقدي العربي المعاصر في أواخر السبعينيات من القرن العشرين. فقد تأثر نقادنا بالدارسات الغربية في هذا المجال وحاولوا صياغة مقاربات نظرية تسعى إلى تحديد مفهوم التناص على غرار ما قدمه أعلام النقد الغربي المعاصر ، فلم تكن محاولاتهم – على كثرتها – إلاّ إعادة وتكرار لتلك المقاربات الأجنبية ، خاصة من الناحية التنظيرية.فـــ « لا نكاد نلمس فروقا ذات شأن من هذه الناحية .» [2]

ولعل أن يكون " محمد بنيس " – الشاعر المغربي – أول من اشتغل على هذا المفهوم ، وذلك في كتابه" ظاهرة النص الشعري في المغرب " و"حداثة السؤال" ذلك أنه استبدل مصطلح التناص بمصطلحات جديدة كـــ" التداخل النصي" و" هجرة النص". فأما الأول فإنه يحدث نتيجة « تداخل نص حاضر مع نصوص غائبة، والنص الغائب هو الذي تعيد النصوص كتابته و قراءته ؛ أي مجموعة النصوص المستترة التي يحتويها النص الحاضر، وتعمل بشكل باطني عضوي على تحقق هذا النص وتشكل دلالته.»[3] وفي إطار مسعاه التنظيري حول تقعيد العلاقة النصية ، ينتقل " بنيس " إلى مفهوم النص الغائب الذي أخصبه بمفهوم " هجرة النص " في بحث له حول هجرة النص المشرقي إلى النص المغربي ، معتبرا هذه الهجرة شرطا أساسيا لـــ « إعادة

1 - جمال مباركي ،التناص و جمالياته في الشعر الجزائري المعاصر ، م . س ،ص 132
2 - المرجع نفسه ، الصفحة نفسها
3 - م . ن ، ص 43

إنتاجه من جديد ، بحيث يبقى هذا النص المهاجر ممتدا في الزمان و المكان مع خضوعه لمتغيرات دائمة .»[1]

أما " سعيد يقطين "، فقد عالج ظاهرة تداخل النصوص مستفيدا من أهم إنجازات نظريات النص التي حاول تطبيقها على النص الروائي، والبحث عن دلالته من داخله . ولم يكتف " يقطين " بعرض آراء من سبقوه في دارسة مفهوم التناص وذكر جهودهم في هذا الشأن ، بل سعى إلى إقامة تصوّر خاص به مفضلا استعمال " التفاعل النصي " بدل " التناص " فيقول : « إننا نستعمل " التفاعل النصي " مرادفا لما شاع تحت مفهوم " التناص "(Intertextualité) أو المتعاليات النصية (transtextualité) كما استعملها "جنيت" بالأخص ، نفضل " التفاعل النصـــي ". لأن " التنـــاص " في تحديدنا – الذي ننطلق فيه من جنيت – ليس إلا واحدا من أنواع التفاعل النصي» [2]

ولإنجاز تحليل دقيق للتفاعل النصي ، يقسّم " يقطين " النص إلى بنيات نصية. فقسم منها يسميه " بنية نصية " و هو الذي يتصل بالنص في لغته شخصياته وأحداثه ، و قسم آخر يسميه "بنية المتفاعل النصي، فالمتفاعلات النصية هي « البنيات النصية أيّا كان نوعها التي تستوعبها "بنيـــة النص" وتصبح جزءا منها ضمن عمليـــة التفاعـــل النصي .»[3] و انطلاقا من جهود " جنيـــت " النقدية السابقة الذكر، يحدد "يقطين " ثلاثة أنواع للتفاعل النصي وهي:

أ – **المناصّة** : (Para textualité) وهي البنية النصية التي تشترك مع بنية نصية أصلية في مقام وسياق معينين . وقد تكون هذه البنية النصية شعرا أو نثرا ، وقد تنتمي إلى خطابـــات عديدة كما أنها تأتي هامشا أو تعليقا على مقطع سردي أو حوار وما شابه.

1 - جمال مباركي ، التناص و جمالياته في الشعر الجزائري المعاصر ، م . س ، ص 44
2 - سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي ،م . س ، ص 92
3 - م . ن ، ص 99

ب- التناص: (Intertextualité) إذا كـــان التفاعل النصي في النـــوع الأول يأخذ بعد التجاوز فهـــو هنا يأخذ بعد التضمين كأن تتضمن بنية نصـــية ما عناصر سردية أو تيمية من بنيات نصية سابقة وتبدو وكأنها جزء منها، ولكنها تدخل معها في علاقة .

ج - الميتانصية : (Metatextualité) وهي نوع من المناصة لكنها تأخذ بعدا نقديا محضا في علاقة بنية نصية طارئة مع بنية نصية أصل. وقد يتحدد" المتفاعل النصي" أولاً على أنه " مناص "[1] .

وإلى جانب تمييزه بين قسمي التفاعل (النص والمتفاعل) وبين أنواعه التي ذكرناها سابقا، ميّز" يقطين " بين أشكاله الثلاثة وهي :

- **التفاعل النصي الذاتي :** وهو عندما تدخل نصوص الكاتب الواحد في تفاعل مع بعضها ويتجلى ذلك لغويا وأسلوبيا ونوعيا.
- **التفاعل النصي الداخلي:** حينما يدخل نص الكاتب في تفاعل مع نصوص كتّاب عصره ، سواء كانت هذه النصوص أدبية أو غير أدبية .
- **التفاعل النصي الخارجي:** حينما تتفاعل نصوص الكاتب مع نصوص غيره التي ظهرت في عصور بعيدة.[2]

بهذا التصور الذي بناه اعتمادا على بعض المقاربات النظرية حول التناص، يعتقد " يقطين " أنه من الممكن تقديم مشروع متكامل يعنى ببحث " التفاعل النصي"، قادر على أن يجيب عن الأسئلة النظرية المتصلة بعالم الأدب والنقد ، وهي خطوة رائدة في هذا الميدان و تحتاج إلى نفس طويل وقدرة على « تتبع المقروء السابق ومقارنته باللاحق ورصد أنواع التفاعل النصي بينهما وتحديد أشكالها ووظائفها. » [3]

ويفضل عبد الملك مرتاض استعمال مصطلح " التناصية " مقابل مصطلح

---

[1] - ينظر: سعيد يقطين ، انفتاح النص الروائي ، م . ن ،ص 99
[2] - ينظر : م .ن ، ص 100
[3] - نور الدين السد ، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، م . س ، ص 116

" التناص " (Intertextualité) . فالتناصية هي « تحاور طائفة من النصوص وتضافرها لإنشاء نص جديد على أنقاضها.» [1] وهو مظهر يجعل النص لا ينغلق على ذاته ولا على بنيته الخاصة، ولكنه منفتح على نصوص أخرى ، على عكس نظرة البنويين الذين اعتبروا « النص مدونة مغلقة أو انتاجا منتهيا يكون فيه عدد التشاكلات محددا »[2] ويذهب الباحث عبد الملك مرتاض إلى ما ذهبت إليه الناقدة الفرنسية " جيليا كريستيفا " في شأن" التناص " فيقول : « وإذن ، فإن النّص هو أبعد ما يكون انطواءاً على نفسه ، و على حميم نتاجيته ، و لذلك نلفيه منفتحاً على النصوص الأخراة انفتاحا كبيرا.»[3] والإتفاق هنا حول فكــرة" إنتاجيــة النص" .

ومن خلال تطبيقاته على بعض الأعمال الأدبية العربية الشعرية والروائية ، يشيــر إلى جملة من أضرب التنــاص تعامل معها و من أهمها : التناص المباشر أو التام ، و التناص الضمني أو الناقص ، والتناص العائم أو المذاب . [4] ويتوسع في دراسة بعض أشكال التناص التي يراها مهمة في تحديد هذا المفهوم ،منها التناص الذاتي ويتجلى في تناص الأديب مع نفسه كأن يردد عبارات بنفسها أو تكرار نسائج أسلوبية بعينها ، ثم التناص الخارجي أو الغيري الذي يتموضع في إطاره الحضاري العام ، ويتصف بالسلبية القائمة على قاعدة الاستهلاك لا الإنتاج .[5]

وفي مواجهة التنــاص السلبي الذي يجعلنا عالة على الفكر الغربي وثقافتــه ، ينحت الباحث مصطلحا جديدا لم يسبق إليه أحدٌ من النقاد ،ويسميه " التناص المتوزان " وهو أن يكون « أخذا و عطاءاً ؛ أي أن الكاتب يرقى إلى منزلة تجعله قادرا على العطاء أكثر مما يأخذ من الآخرين باعتباره مبدعا . أما أن يتمثل التناص على أنه أخذ فقط ؛ فإن هذا المفهوم يوشك أن يفقد دلالته الحقيقيــة .»[6]

---

[1] - عبد الملك مرتاض ، الكتابة من موقع العدم ، م . س ،ص 284
2 - عبد الرحمن بودرع ، مجلة الموقف ، العدد 5-6 ،المغرب ، مارس 1988 ، ص 141
3 - عبد الملك مرتاض ، م . ن ، ص 285
4 - ينظر: م . ن ، ص 290
5 - ينظر: م . ن ، ص 294
6 - م . ن ، ص 295

ويرى "محمد مفتاح " أن مفهوم التناص قد يتداخل مع مفاهيم أخرى مثل " الأدب المقارن " و" المثاقفة" و" دراسة المصادر " و" السرقات" . ولهذا السبب فإن الدراسة العلمية تتطلب أن يميز كل مفهوم عن غيره. ثم يستعرض بعض التعاريف كان استخلصها من باحثين كثيرين مثل " كريستيفا " و " أرفي " و" لورانت" و" ريفاتير " وهي :

- فسيفساء من نصوص أخرى أدمجت فيه بتقنيات مختلفة .
- ممتص لها يجعلها من عندياته و بتصييرها منسجمة مع فضاء بنائه ، ومع مقاصده.
- محول لها بتمطيطها أو تكثيفها بقصد مناقضة خصائصها ودلالتها أو بهدف تعضيدها. [1]

ويشير محمد مفتاح إلى التحريف وسوء الفهم الذي اعترى انجازات الدارسين لمفهوم التناص بسبب عدم إدراك ظروف النشأة وأبعاده الفلسفية والفكرية.فـــ« المفهوم نشأ في ظروف اعتراضية : الاعتراض على المؤسسات السياسية والثقافية والعلوم الرائجة . وكانت شعارات المرحلة هي القطيعة والإبدال ، و الإبستمي ، والفوضى و العماء.»[2] مما يستوجب على الباحث العربي الحيطة والحذر من الأخذ المطلق لدعاوي ما بعد الحداثة.

وفي ضوء ما سبق ، يقترح " محمد مفتاح ست درجات للتناص هي :

- **<u>التطابق:</u>** أي تساوي النصوص في الخصائص وفي النتائج الوظيفية وهو لا يتحقق إلا في النصوص المستنسخة.
- **<u>التفاعل:</u>** كل نص هو نتيجة تفاعل مع نصوص أخرى تنتمي إلى آفاق مختلفة تكون درجة وجودها بحسب نوع النص المنقولة إليه ، وأهداف الكاتب ومقاصده .
- **<u>التداخل:</u>** ويقصد به تشارك نصوص لفضاء نصي عام دون تحقيق الامتزاج أو التفاعل بينها.

[1] - ينظر :محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري ، م . س ،ص 120 و 121

[2] - محمد مفتاح ، المفاهيم معالم ، م . س ، ص 41

- **التحاذي :** هو مجاورة النصوص بعضها إلى جانب بعض مع محافظة كل نص على هويته وبنيته ووظيفته.

- **التباعد:** إذا كان من الممكن تحاذي نص حديثي ونص قرآني ، فإن التباعد يتجلى في مجاورة نكتة سخيفة لآية قرآنية .

- **التقاصي :** يقوم هذا النوع من التناص على التقابلات التالية : النصوص الدينية / النصوص الفاجرة ؛ النصوص الحكيمة / النصوص الحمقية . ويتردد كثيرا في نقض القرآن الكريم لما ورد في بعض الكتب السماوية ، وفي أشعار النقائض وغيرها.[1]

مع ملاحظة أن بعض هذه الدرجات يمكن الاستغناء عنها ، إذ لا كبير فارق بين التفاعل والتداخل ، وبين التباعد و التقاصي. أما درجة التطابق لا يمكن أن تدخل ضمن التناص لأنها لا تتحقق إلا في النصوص المستنسخة .

وما يمكن أن يقال في مقاربته لمفهوم التناص ، هو أنه نحى منحى " جيرار جينيت " في كون التناص هو تعالق نصوص مع نص حدث بكيفيات مختلفة ، مبينا ومحللا بعض المفاهيم مثل : المعارضة ، المعارضة الساخرة والسرقة . [2] ونشير هنا إلى أن الباحث محمد مفتاح في دراسته لظاهرة التناص ، اعتمد منهج الدلائلية الذي يعتبره أشمل نظرية لتحليل الخطاب الإنساني .[3] مركزا في تحليله للشعر على البعد التواصلي كوسيلة لتحقيق القصد من الأثر الأدبي .

وعلى الجملة ، فقد اتسع مفهوم التناص وأصبح بمثابة ظاهرة نقدية جديدة وجديرة بالدراسة والاهتمام ، وشاعت في الأدب الغربي ثم انتقلت إلينا بفضل جهود النقاد العرب الذين ترجموا تلك الأعمال واشتغلوا على نصوص أدبية عربية رفيعة المستوى بهدف اكتشاف عوالمها الدلالية المختلفة ، وإنارة زواياها الغامضة من خلال توظيف المخزون الثراثي في النصوص الحاضرة . وبناءا على ذلك فقد بدا لنا أن

---

[1] - ينظر : محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري ، م . س ، ص 41 و 42 و 43

2 - م . ن ، ص 121

3 - ينظر : محمد مفتاح ، المفاهيم معالم ، م . س ، ص 45

المقال المدون في " عيون البصائر " للإبراهيمي يستحق الدارسة من زاوية التناص وتجلياته ، وهو ما سيتناوله في المبحث التالي :

4 – تجليات التناص في مقال الإبراهيمي :

أ – التناص القرآني :

إن المتتبع لمقال الإبراهيمي، يجده أسيرا لنصوص تأثر بها بشكل أو بآخر ،ومن هذه النصوص النص القرآني الذي تناصّ معه بشكل كبير ، جعل منه النص الغائب الأكثر استحواذا على ألفاظه ومعانيه وتأملاته . ذلك أن القرآن الكريم هو النص المقدّس الذي أحدث ثورة فنية على معظم التعابير التي ابتدعها العربي شعرا ونثرا، ليخلق تشكيلا فنيا خاصا متناسق المقاطع تطمئن إليه الأسماع إلى الأفئدة في سهولة ويسر .[1]

وهو الكتاب المعجز الذي لا يزال يتحدى أساطين البلغاء، و مصاقيع العلماء كما يحمل بين دفتيه من أنواع العلوم والمعارف، وما يزخر به من عجائب وأسرار تبهر العقول وتحيّر الألباب . وهذا ما يفسّر شغف الكاتب وحاجته إلى النّهل والاقتباس من القرآن الكريم كرافد مهم يساعد على تقوية الحجج ودعم الشواهد للتأثير في القارئ الذي لديه استعداد للتأثّر بكل ما هو ديني. لذلك ألفينا تداخل نصوص هذا الرافد في مقال الإبراهيمي بكثافة لا محدودة ،مما يجعل الإحاطة بذكرها هنا أمرا عسيرا .من أجل ذلك ، سوف نقتصر على بعض التناصّات التي لها علاقة مباشرة بأدب المقاومة . وهو ما يسمح لنا برصد عدة نصوص مقالية تفاعلت مع النص القرآني و استنصصت آياته عبر تفجير طاقاتها الكامنة وامتصاصها واخراجها ضمن سياقات شعورية ونفسية وفكرية جديدة، تتسق مع الأغراض والدوافع التي حفزت الكاتب إلى هذه التناصّات .

ومن النماذج التي استحضرت النص القرآني وأفادت منه فنيا قول الإبراهيمي:

« زُيّن للاستعمار سوء عمله فطغى وبغى ، وكفر و عتى ،و أتى من الشر ما أتى..»[2]

---

[1]- ينظر: جمال مباركي ، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر ، م . س ، ص 167

2- محمد البشير الابراهيمي ، الأثار – عيون البصائر – م . س ، ص173

فالكاتب يستحضر دوال الآية الكريمة التي يقول فيها الله تعالى:« وكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ[1].» وهو تداخل لغوي لألفاظ الآية مع النص المقالي الذي يشبِّه من خلاله قصة فرعون مع موسى عليه السلام بحالة الاستعمار الفرنسي مع الشعب الجزائري ،وهي حالة واحدة قائمة على الظلم والاستبداد والجبروت ،مع ترك الانطباع لدى القارئ على أن العاقبة للحق لا للقوة .

و يتناص الكاتب في قوله: « فتعالوا يا قوم إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، أن نتعاون على تحرير الأديان ، ثم لكم علينا أن نتعاون على ما فيه خير للإنسان[2].» مع قوله تعالى : « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوا إلى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ ولاَ نُشْرِكَ به شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ.»[3] والكلمة تطلق على الجملة المفيدة " سواء بيننا ..... أي عدل وإنصاف". ويقترب التناص هنا من الاجترار الذي تتشاكل فيه اللغة بواسطة الاقتباس الحرفي لآي القرآن الكريم مع إحداث تغيير طفيف فيها للتعبير عن رغبة الكاتب في دعوة المحتل إلى ضرورة تحكيم العقل والضمير في تعامله مع أبناء الشعب الجزائري.

ويظهر التناص جليا في حديث الكاتب عن معهد ابن باديس، إذ يقول :« فللمعهد نظامه الصارم في تربية أبنائه على الدين وفضائله ،وليخسأ كل أفّاك أثيم.»[4] فقد ورد التناص جزئيا حيث اعتمد على اقتباس حرفي لجزء من الآية القرآنية « هَلْ أُنَبِّئُكُمْ على مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ، تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ* أَثِيمٍ»[5] مع تغيير في بعض الدوال ليصبح الخطاب دالا على مخاطب معاصر يحمل العداوة والخصام لمشاريع الجمعية وأعمالها الخيرية، وليس أبا جهل الذي يروي عنه التاريخ وتحدثنا به كتب السيرة .

ويواصل الكاتب استلهامه من القرآن الكريم متحدثا عن مأساة الثامن ماي التي أثرت في نفسيته واستولت على فكرته نظرا لحضورها القوي في ذاكرته فيقول :« أمة

---

[1]-سورة غافر، آية 37.
[2]-محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، م.س، ص 180.
[3]-سورة آل عمران، آية 64.
[4]-محمد البشير الإبراهيمي، م.ن، ص 216.
*-أفاك: أي كذاب كثير الإثم.
[5]-سورة الشعراء، آية: .222

كالأمم حلّت بهـــا ويلات الحرب كما حلّت بغيرها، و ذاقت لبـــاس الجوع و العري والخوف... » والنص القرآني الذي اشتغل عليه الكاتب هو قوله تعالى : « وَضَرَبَ الله مَثَلاً* قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ الله فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ. »[1] ولعل أن يكون المعنى الذي انتجه التداخل النصي هو الدرس والاعتبار من تاريخ الأمم والجماعات. ذلك أن ما أصاب الشعب الجزائري إبّان الثامن ماي المشؤوم هو نتيجة طبيعية لبعده عن هدي الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم . ويمكن أن نلحظ كيف حَوَّرَ الكاتب هذه الآية فأضاف إليها كلمة " العُري " إمعانا في الأزمة الحاصلة ، وتعميقا لها .

ومن قبيل التداخل النصي أيضا قول الكاتب في ردِّه على أصحاب مشروع "الجزائر فرنسية ": « كبرت كلمة تخرج من أفواه هؤلاء المستعمرين الجبَّارين..» [2] فيستحضر دوال الآية الكريمة التي يقول فيها تعالى : « مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلاَ لآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً* تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبَا. »[3] وهو تداخل لغوي جزئي يوظفه الكاتب للتعبير عن سُخطه ورفضه لما كان يُرَوِّجُ له الاحتلال الفرنسي من دعاوى الفرنسة والإدماج ، وتكذيب واستنكار لهذه الافتراءات التي يضعها في ميزان الشرك بالله .

وفي السياق نفسه ، نسجل تناصـــا في قوله : « ثم ارجع البصر في الدنيا و قوانينها التي يسوسنا بها الاستعمار ، تجد ذلك المعنى لائحا في كل حرف منها ، فائحا في كل كلمة من كلماتها »[4] وذلك من خلال استحضار النص الغائب والتعامل معه بطريقة الامتصاص للآية القرآنية : « ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ** »[5] يمتصها دلاليا للتعبير عن استيائه من القوانين الفرنسية

---

2 – سورة النحل ، آية 112

[2] - محمد البشير الإبراهيمي ، م . ن ، ص 348

[3] - سورة الكهف ، آية 5

[4] - محمد البشير الإبراهيمي ، م . ن ، ص 362

[5] - سورة الملك ، آية 4

* نصب على التمييز تقدير ه كبرت كلمة هذه الكلمة

** الحسور هو الإعياء

الجائرة التي تُصَرِّفُ بها شؤون الجزائريين ، وترفع لها شعارات جوفاء زائفة لا حقيقة لها في الواقع.

وأما عندما ينتقل الكاتب إلى الحديث عن السياسة الفرنسية في الجزائر ، فإنه يتفاعل مع النص القرآني ويستنصص آياته فيقول : « وأنها تعد وتمنّي وما تعد إلا غرورا . » [1] مقتبسا ذلك من قوله تعالى : « يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إلاَّ غُرُوراً . »[2] ويشير من خلال هذا التناص إلى عواقب الثقة بالوعود الكاذبة للحكومة الفرنسية . ويستشف القارئ دلالة هذا التفاعل النصي حينما ترتسم في ذهنه صورة فرنسا كشيطان يحاول أن يستدرج ضحاياه إلى الهلاك فوجب الحذر منه.

وفي موضع آخر نقرأ له هذه العبارة « وجاءت فرنسا بالخاطئة » [3] لتلتقي مع قوله تعالى : « وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ »[4] فالكاتب يستحضر هذه الآيات من سورة الحاقة وما توحي إليه من حقائق تاريخية تثبت صدق الرسالة المحمدية. ثم يتجاوز سياقها الزمني و يلبسها دلالات معاصرة تتضمن تهديدا للمحتل وتحذيرا له من عاقبة الطغيان .

ويظهر التقاطع النصي واضحا في حديثه عن الأحزاب في الجزائر ، فيقول : «وإن في صفوفكم دسَّاسين مدخولين من الرجال لهم أغراض في المنافع والكراسي ولهم مقاصد في الإفساد ، وإنكم لتعرفونهم بسماهم وتعرفونهم في لحن القول . »[5] ليتداخل مع النص القرآني في قوله تعالى : « وَلَوْ نَشَاءُ لأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ » [6] فالتداخل النصي إنما جاء على شكل توظيف جُزئي لهتين العبارتين " سماهم " و" لحن القول " مع استبدال وإعادة انتاج للآية السابقة التي تمثل النص الغائب من خلال علاقته التناصية مع النص اللاحق لتوليد الدلالة الجديدة التي تفضح المنافقين وتكشف صفاتهم .

---

[1]- محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، م . س ، ص 139
[2]- سورة النساء ، آية120
[3]- محمد البشير الإبراهيمي ، م . ن ، ص 423
[4] - سورة الحاقة ، آية 9
[5]- محمد البشير الإبراهيمي ، م ، ن ، ص 302
[6] - سورة محمد ، آية 30

وبالمنطق السياسي نفسه يتعرض الكاتب لشخصية بارزة في المجتمع الجزائري، استطاع العدو الفرنسي أن يستميلها إليه لتنفيذ خططه ، و الخضوع لأوامره ، إنه "العاصمي " الذي تناوله الإبراهيمي بأسلوب ساخر حاد ، جاء فيه :« إن العاصمي لا ينطق عن هواه وإنما ينطق عن وحي ساداته ومواليه .»[1] ومن الجلي أن النص القرآني الموظف هنا هو قوله تعالـــى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ،إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى »[2] فهو يعبر من خلال هذا التناص عن درجة الانصياع والانقياد للمحتل.

وفي موقف آخر ، نرصد تناصا في قول الكاتب : « ويومئذ يستيقنون أن هذه الحكومة كانت تُغْري بيننا العداوة والبغضاء لمصلحتها لا لمصلحتنا جميعا ، ولا لمصلحة فريق . »[3] ويتضمن هذا النص دلالات من قوله تعالى : « إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالمَيْسِرِ وَيَصَدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ الله وَعَنْ الصَّلاَةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ . »[4] يستحضرها الكاتب و يُدمجها في خطابه قصد إثراء مضمونه وتجسيد حالة الضياع والفوضى التي كان يعيشها أفراد الشعب الجزائري مع المحتل البغيض (الشيطان) الذي كان يعمل على تعميق الخلاف وزرع بذور الشقاق بينهم لإضعاف قوتهم ، وإسكات أصواتهم المطالبة بالحق .

ويستلهم الكاتب دلالات النص الغائب (القرآن الكريم) ، في سياق حديثه عن سياسة فرنسا الهادفة إلى تجهيل الأمة وحرمان أبنائها من حقهم في التعليم ، فيقول : «فأفسد الاستعمار أخلاقهم ، ووهَّن عزائمهم، و فرَّق بين أجزائهم لئلاَّ يجتمعوا، وقطع الصلة بينهم وبين ماضيهم لئلاَ يذَّكروا ،وضرب بينهم وبين العلم بسور له باب .» [5] فالنص يدين بما ينطوي عليه من دلالات لقوله تعالى : « فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَهرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ . »[6] ويتناص معها عن طريق امتصاص

---

[1] محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، م . س ، ص 101
[2] سورة النجم ، الآيتان 3و4
[3]- محمد البشير الإبراهيمي ، م . ن ، ص 139
[4]- سورة المائدة ،آية 91
[5] -محمد البشير الإبراهيمي ، م . ن ، ص 469
[6]- سورة الحديد ،آية 13

مضمون الآية وتغيير دوالها لتوليد دلالات جديدة تعكس تجربته الفنية، وتعبر عن أدبه المقاوم .

كما نلاحظ الاستحضار الإشاري لقصة عاد و ثمود وما توحي به من ظلال تاريخية تجعل القارئ يسترجع دلالاتها الواردة في عدة سور قرآنية ، فيكون مصدر النص الحاضر متعددا ، ومن قبيل ذلك قول الكاتب : « إن هذه المكيدة ستلصق بكم سبَّة الدهر و ستجعلكم أشأمَ على جنسكم ودينكم من عاقر الناقة .» [1] إنه تداخل نصي بشكل امتصاصي إشاري مع قوله تعالى في سورة "الشمس": « كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا ، فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا . »[2] وقوله أيضا في سورة " الأعراف " : « وَإِلى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلاَ تَمَسّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذُكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ.»[3] واحتلت هذه القصة حيّزا لها في سورة " الحاقة " في قوله تعالى :« فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ، وأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ، فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ .»[4] فجاء التناص من متعدد يربط السياق القرآني بالسياق المقالي ويمنحه دلالات معاصرة تتجاوز المعنى التاريخي لقصة عاد وثمود وعقر الناقة، و تكشف الغطاء عن مكر المحتل في محاولته لفرض وصايته على الدين الإسلامي في هذا الوطن ،و انتزاع ثقة بعض الجزائريين بهذا المسعى الذي لا يقل خطورة وفظاعة في - نظر الكاتب - عن عملية الاعتداء على ناقة الله المذكورة في كتابه العظيم.

وفي ضوء هذه الدراسة التناصية حول فاعلية النص القرآني في مقال الإبراهيمي، يمكن أن نخلص إلى أن توظيف الكاتب للنص الغائب (القرآن الكريم) ، قد أسهم في

---

[1]- البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، م . س ، ص188
[2]- سورة الشمس ، آية 14
[3]- سورة الأعراف ، آية 73
[4]- سورة الحاقة ، آية 5-8

إثراء مضمون النص الحاضر بالدلالة المتنوعة ،و إشباعه بالإيحاءات والإشارات الدينية والتاريخية التي منحته جانبا من قداسة الخطاب.

كما نجد أن التعامل مع النص القرآني فنيا ، قد تم وفق مستويات تناصية مختلفة تراوحت بين الاقتباس الحرفي أو الاجترار لدوال النص الغائب بشكل نمطي ثابت يفتقد إلى الحيوية والتفاعل في إنتاج الدلالة ، والتناص الامتصاصي الذي يتواجد خلال امتصاص مضامين الآيات القرآنية ودوالها وإعادة نشرها في النص الحاضر . ويعتبر هذا المستوى أعلى درجة من سابقه ، وخطوة متقدمة في النضج الإبداعي والفني لدى الأديب .

ب – التناص الحديثي:

يمثل الحديث النبوي الشريف أرقى النماذج التناصية التي اشتغل عليها مقال الإبراهيمي بعد القرآن الكريم .ذلك لأنه يجسد السُنَّة النبوية التي تظاهرت نصوص القرآن الكريم على وجوب الأخذ بها في جميع قضايا المسلمين ، والاحتكام إليها في سائر شؤون حياتهم لقوله تعالى : « وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مَانَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا.»[1] وقوله كذلك :« مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا.»[2] كما تظاهرت على ذلك أيضا ، نصوص الروايات الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله : « تَرَكْتُ فِيكُم أَمْرَيْنِ لن تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُم بهما : كتابُ الله وسنَّةُ رَسُولِهِ. »[3]

لقد أدرك الكاتب هذه الأهمية البالغة التي يحظى بها الحديث الشريف ،وأثره على نفوس المسلمين ،فاتخذه رافدا مهما ينهل من معينه ويعيد كتابته في سياقات جديدة تسهم في تفجير دلالات جديدة تعبر عن تجربته الفنية وتعكس سعيه الدائم إلى إشباع أخلاقيات القارئ . يقول الكاتب في مقال له بعنوان " الدين المظلوم *":« وسيعلم

1-سورة الحشر ، آية 07
2- سورة النساء ، آية 80
3- صحيح مسلم ، م .س ، ج .1 ، ص 313
* نشرت في العدد 122 من جريدة "البصائر "، 5 جوان سنة 1950

المتمادون على العناد أننا محّضنا النصح، و الدين النصيحة »[1] هذا النص يحيلنا إلى حديث عطاء بن زيد ، عن تميم الداري؛ أن النبي صلى الله عليه و سلم قال : « الدِّينُ النَّصيحةُ » قلنا : لمن ؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. »[2] هذا الحديث يسَمي النصيحة دينا وإسلاما ،وأن الدين يقع على العمل كما يقع على القول. والنصيحة لازمة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أنه يقبل نصحه ، ويطاع أمره. وتكون النصيحة لعامة المسلمين بإرشادهم لمصالحهم في الدنيا والآخرة، و كف الأذى عنهم وجلب المنافع لهم، وأمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر ،و الذب عن أعراضهم وأموالهم وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل . فوظيفة التناص هنا تجسد بعض تلك المعاني الطافحة بين الكاتب والقرَّاء ، تبرئة لذمته أمامهم وأمام الله. وقد قام هذا التناص من خلال التداخل النصي بين النص الحاضر و الحديث النبوي على أساس الامتصاص الدلالي لاحتواء بعض الدوال اللغوية الحديثية في النص الحاضر.

وفي قول الكاتب : « وقلنا لها (فرنسا) : إن هذه الأمة أصبحت منك بمنزلة الهرَّة التي دخل صاحبها النار بسببها ، لأنه لم يطعمها ،ولم يدعها تأكل من خشاش الأرض .»[3] إحالة إلى الحديث الشريف « عُذِّبت امرأةٌ في هرَّة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النارَ، لا هي أطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا ، إذْ حَبَسَتْهَا . وَلاَهي تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ من خَشَاشِ الأرضِ . »[4] وهذا التناص جاء على شكل اقتطاع لجزء من الحديث ودمجه في بنية النص الحاضر بشكل عفوي للتعبير عن صورة معاصرة لزمانه ومماثلة لتلك التي حدثت إبَّان الاحتلال الفرنسي الذي منع العلم عن الجزائريين ، فلا هو علّمهم الدنيا ، ولا هو سمح لهم بتعلم الدين .وجعل التفاعل النصي هنا القراء يتصورون مصير فرنسا المحتوم جرّاء صنيعها المشؤوم من خلال توظيف قصة المرأة والقطة

---

[1] – محمد البشير الإبراهيمي ، عيون الصائر ، م . س ، ص 138و139

[2] – صحيح مسلم ، م . س، ج .1، ص313

[3] – محمد البشير الإبراهيمي ، م . ن ، ص 221

[4] – صحيح مسلم ، م. س ، ج .7 ، ص 500

الواردة في الحديث الشريف .غير أن هذا التوظيف للحديث الشريف في بنية النص إنما جاء بطريقة اجترارية ، أي أنها « خالية من التوهّج وتفاعل النص الحاضر مع النص السابق.»[1] و لكن دون ان يجرّد الخطاب الأدبي جماليته مهما كانت درجة الفاعلية ومستواها .

ومن قبيل هذا التوظيف قول الكاتب : « و ماذا صنعت في قضية الإسلام مع الاستعمار في الجزائر، هل أمرت بمعروف أونهت عن منكر في هذه القضية.؟..»[2] فهو يستحضر قوله صلى الله عليه وسلم: « مَنْ رَأى مِنْكُمْ مُنكراً فَلْيُغَيِّرْهُ بيَدِهِ فَإنْ لَمْ يَستطعْ فَبِلسَانِهِ ، فَإنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ. وذلك أضعفُ الإيمان.»[3] ليسقطه على النص الحاضر مستعملا دلالاته للتعبير عن موقفه من المسيحية التي كانت تستظل بلواء الاستعمار في الجزائر ، وتأتمر بأمره باسم الدين. والأديان السماوية الصحيحة النسبة إلى السماء لا تلتقي مع ظالم في قضية، ولا تتقاطع معه في شر .ويظهر أن الكاتب لم يقتصر على استدعاء جزء من الحديث النبوي ودمجه في نصه الحاضر ، بل أدخل عليه شيئا من التحوير بأسلوب فني راق.

ويتناص قول الكاتب : « وتوسلت (المسيحية) إلى الاستعمار الذي يكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله ، فقطعت معه البحار ،و أوغلت معه في البراري والقفار»[4] مع قول النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان « أن تُؤْمِنَ بالله ،و مَلاَئكَتِهِ وَكُتُبِهِ ورُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ،وَتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَــرِّهِ . »[5] ليكشف صورة المسيحية الغربية في الجزائر، والتي تتناقض مع حقيقة دعوتها القائمة على عقيدة الإيمان بالغيبيات والكتب والرسل ،و الطامحة إلى الحق والعدل والنور. فقد تحالفت مع الاستعمار تستجديه الحماية والرعاية ــ وهو عدو الأديان ــ فاتخذها أداة للملك والتسلط ويبدو هنا أن الاستحضار الجزئي لبعض دوال الحديث النبوي الشريف في

[1]-جمال مباركي، التناص وجمالياته في الشعر الجزائري المعاصر، م.س، ص 205.
[2]-محمد البشير الإبراهيمي، عيون البصائر، م.س، ص 125.
[3]-صحيح مسلم، م.س، ج.1، ص 297.
[4]-محمد البشير الإبراهيمي، م.ن، ص 125.
[5]-صحيح مسلم، م.ن، ص 187.

الخطاب الأدبي « ليس تقليدا وعملية استرجاع إرادية وإنما هو إنتاجية . »[1]

ويمكن أن نرصد أدبية التعالق النصي في قول الكاتب : « أما رضى الخصم الشجاع لخصمه بالأصفاد والأغلال فهو غميزة في الشجاعة ،و نقيصة في الكفاءة . »[2] مع قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَى اللهِ الأَلَدُّ الْخَصِمُ . » [3] وهو تناص قائم على أساس استحضار للنص الحديثي في الخطاب المقالي بشكل تلميحي و إشاري بحيث لا يتمدد النص الحاضر كثيرا في النص الغائب . أما داعي الاستعمال هو سخرية الكاتب من منطق فرنسا التي تتمادى في مواجهة خصم ضعيف أعزل لا يملك من أسباب القوة والوسائل ما لديها .

ومن قبيل التداخل النصي أيضا قول الكاتب : « وقبل وبعد فإن هذه القضية التي نصفها اليوم ، شهادة قاطعة على ظلم الاستعمار ، ونموذج من تعنته ومصادرته للحق . » [4] يحيل هذا النص إلى حديث أبي ذر ، عن النبي صلى الله وسلم ، فيما روي عن الله تبارك وتعالى أنه قال : « يا عبادي إني حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي وجعلته بينكم محرّماً ، فلا تَظَالَمُوا ... »[5] فالدلالة الجديدة الناتجة عن عملية إعادة إنتاج النص الغائب من خلال علاقته بالنص الحاضر ، لا تقتصر على تقديم صورة المحتل وعلاقته بالظلم ــ وهي علاقة لزوم ــ بل تتعدى ذلك لتجعل القارئ يتأكد من حقيقة تحريم ظلم الإنسان للآخر وتطاوله عليه . كما قد ينصرف إلى الذهن نص حديثي آخر للنبي صلى الله عليه ولم ، يثبت هذا الحكم ويقويه. يقول فيه صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيَامَةِ » [6]

ومن نماذج التناص الحديثي قول الكاتب : « إن الأمم الضعيفة قد لدغت من جُحْرٍ واحد مرتين ، فاحذروا الثالثة . » [7] ليستحضر عن طريق الامتصاص والتحويل النص الحديثي المنقول عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا

---

[1] - نور الدين السد ، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، م . س ، ص 101
[2] - محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، م . س ، ص 128
[3] - صحيح مسلم ، م . س ، ج . 8 ، ص 471
[4] - محمد البشير الإبراهيمي ، م . ن ، ص 224
[5] - صحيح مسلم ، م . ن ، ص 375
[6] - صحيح مسلم ،م . ن ، ج . 8 ، ص 379
[7] - محمد البشير الإبراهيمي، م . ن ، ص 373

يُلْدَغُ المُؤْمِنُ ، مِنْ جُحْرٍ واحدٍ ، مَرَّتَيْنِ . » [1] فطبيعة العلاقة التي يقيمها النص الحاضر هنا مع النص الغائب هي علاقة توليد لدلالات جديدة من رحم التفاعل النصي القائم . إنها عملية لا تكرِّس التكرار أو السرقة ،إنما هي قراءة ثانية تجعل التناص « صورة تضمن للنص وضعا ليس الاستنتاج ،وإنما الإنتاجية . »[2] ويكون الكاتب من خلال هذا التناص قد استطاع أن يثري مضمون نصه ،و يبين حالة الأمم الضعيفة التي لا تحذر مكر أعدائها ولا تحتاط لمكائدهم فينالها من الشر والخراب والدمـــار ما يعجِّل بفنائها وزوالها.

كما يستحضر الكاتب نصا حديثيا ويتقاطع معه عن طريق الامتصاص والتحوير فيقول : « أما القانون الدولي فهو ــ في هذا الباب ــ شاهد زور لا تقبل شهادته ، لأنه ــ دائما ــ يشهد للقوة على الضعف ،و للباطل على الحق . »[3] فهو يستحضر دوال النص الحديثي الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكبَرِ الكَبَائِرِ ؟ قَالَ : قَوْلُ الزُّورِ، (أو قَالَ شَهَادَةُ الزُّورِ) »[4] ويدمجها في نصه الحاضر ويحولها فتظهر على شكل كتابة ثانية ليس لها نفس المعنى الأول .

ولعل أن يكون سبب استحضار الكاتب للنص الحديثي وتعلقه به هو مدى إسهام هذا النص الغائب في تشكيل هوية النص المقالي وصياغة دلالاته، وإبراز جمالياته. كما أن هذا الاستحضار لا يلغي القيمة الخاصة الجديدة للمؤلف في نصه الحاضر ، ولا يبخس حقه في الإبداع و تعميق المضمون الدلالي للنص الحديثي وتوسيعه بطرق مختلفة ومستويات متفاوتة تتقاطع في مجملها مع مستويات التناص القرآني

ج- التناص الشعري :

يتسم الخطاب المقالي عند الإبراهيمي بانفتاحه على الموروث الشعري العربي قديمه وحديثه ، ذلك أن الشعر يمثل جزءا مهما من ثقافة الكاتب الأدبية ، فقد اشتهر بحافظة قوية ساعدته على استحضار النصوص الغائبة داخل النص بغرض تعميق

---

[1] - صحيح مسلم، م . س ، ص 373
[2] - نور الدين السد ، الأسلوبية وتحليل الخطاب ، م .س ، ص 98
[3] - محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، م . س ، ص 119
[4]- صحيح مسلم ، م . ن ، ج . 1 ، ص 359

إيحاءاته، وإعطائه أبعاد جديدة عن طريق الاجترار والامتصاص والحوار بحيث تندمج هذه النصوص مع نص جديد حافل بالدلالات والمعاني .

بيد أن السعي إلى دارسة كل النماذج التناصية الشعرية التي يتوفر عليها مقال الإبراهيمي والإلمام بها ، مهمة شاقة نظرا لغزارة مادتها. لذلك فإنه يكون من الأحسن الاقتصار على ذكر بعض منها بغية استنطاق النص الغائب والوقوف على أدبية التشابك الحاصل بينه وبين النص الحاضر . ومن ذلك قول الكاتب : « بعد أن نام الاستعمار ملء جفنيه ، اطمئنانا إلى أن القضية (فصل الدين عن الحكومة) تمّت كما يريد ويتمنى »[1] ويبدو أن النص هنا يتعالق مع قول المتنبي :

أَنَامُ مِلْءَ جُفُونِي عَنْ شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَّاهَا وَيَخْتَصِمُ[2]

فأبو الطيب لم يكن يكترث كثيرا لما كان يقوله ، بينما كان المعجبون به من القراء يعنتون أنفسهم ابتغاء فهم قصدية كلامه في أبيات معينة ، فكان « يعوج عليهم وهم مختلفون من حول شعره فيبتسم مزهوا ... ولعل ذلك هو الذي حمله على أن يقول بيته الشهير»[3] ويتجلى التناص في اجتزاء لبعض دوال النص الغائب واستحضارها بطريقة الحوار لتوظيفها في سياق آخر يكون فيه التداخل قائما على أساس الامتصاص اللغوي والمحاورة الدلالية . فقد لجأ الكاتب إلى استمداد الدلالات الشكلية من النص السابق وعمد إلى تحويرها والنأي بها عن سياقها الأصلي للتعبير عن سعادة فرنسا بعد استفائها لمشروعها الدنيء المتعلق بفصل الدين عن الحكومة ، ومن ثم استطاع أن ينقل النص الغائب من ضيق حيزه الدلالي إلى سعة النص الحاضر المفعم بروح النضال والتحدي واليقظة المستمرة لإحباط كل محاولات المحتل ومخططاته الهادفة إلى تقويض الدين الإسلامي في الجزائر .

ويواصل الكاتب الاغتراف من معين المتنبي الذي طالما تأثر به وأعجب بشخصيته وعبقريته . فيقول: « ويحكم أحيوا العدل وانشروه ،وأميتوا الاستعمار واقبروه ... فإن لم تفعلوا فأيقنوا أن كل ما تنفقونه من جهد ووقت ومال في تمكين

[1]- محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، م . س ، ص 145
[2]- المتنبي ، ديوانه ، م . س ، ج .4 ، ص 84
[3]-عبد الملك مرتاض، نظرية القراءة- تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية- دار الغرب للنشر والتوزيع،وهران 2003، ص 196

الاستعمار الضائع، ولا الحمد مكسوبًا ، ولا المال باقيا. »[1] ونجده يستحضر هنا قول المتنبي:

إذا الجُودُ لم يُرزق خلاصاً من الأذى فلا الحمدُ مكسوباً ولا المال باقياً [2]

حيث أعاد كتابة عجز البيت الشعري ونثره مع إحداث تغيير في دواله ،و توظيفها في سياق مماثل يعبر من خلاله عن القيمة الحقيقية للمال والجاه في كنف العدل والحرية .

وإذا توجه خطاب الإبراهيمي إلى العلماء – وهم ورثة الأنبياء في هداية الناس إلى الحق والعدل – فإنه يستعمل لهجة قوية وعنيفة تنم عن تذمره وسخطه على الذين هانوا ضعفوا أمام المحتل ، فسخروا دينهم في خيانة الدين والوطن فيقول : « وأهان العلماء أنفسهم ، فسهل الهوان عليهم ، فأصبحوا أذلَّ من وتدٍ بقاع ، وصاروا عبيدا وخولا لهؤلاء المبتدعة الضُّلال . » [3] والنص الغائب المستغل عليه هو بيت المتنبي الشهير الذي يقول فيه :

من يَهُنْ يَسْهُلُ الهَوَانُ عَلَيْهِ ما لِجُرْحٍ بميِّتٍ إيلامُ[4]

ويتضح أن التفاعل النصي الحاصل تجلى في شكل اجتراري حيث تم تحويل النصي السابق ومحاكاته على مستوى البنية الشكلية و المضمونية مع إفراز بعض الدلالات الجديدة التي أملاها السياق.

كما يستحضر الكاتب دوال شعر زهير بن أبي سلمى ويوظفها في نصه الحاضر للتعبير عن رفضه لسياسة الاندماج والذوبان في الآخر ، يقول الإبراهيمي : « أما آن لعشَّاق سلمى أن يقولوا : صحا القلب عن سلمى ؟ أما آن للحالمين بالوحدة الفرنسية أن ينفضوا عنهم الأحلام ؟»[5] يقول زهير في النص الغائب :

صَحَا القلبُ عن سلمَى وأقصر باطلُهُ وَعُرِّي أفراسُ الصبا ورواحلُهُ*[6]

و يؤكد الكاتب تواصل نصه المقالي مع نصوص التراث الشعري ودلالاتها التي

---

[1] محمد البشيرالإبراهيمي ، عيون البصائر ، م . س ، ص 373
[2] - المتنبي ، ديوانه ، م . س ،ج .4 ، ص 419
[3] - محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، م . س ،ص 310
[4] - المتنبي ، م .ن ، ص 217
[5]- محمد البشير الإبراهيمي ، م . ن ، ص 288
[6]- زهير بن أبي سلمى ، ديونه - شرح و تقديم علي فاعور - دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان 2003 ، ط.1، ص 88
* هذا البيت مطلع قصيدة مدح بها زهير هارم بن سنان ، وقد كان هرم أحد أشهر الكرماء و الأجواد .

تقوم على علاقة اندماجية في خطابه المعبر عن مواقفه الثابتة إزاء قضية وطنه وشعبه ، حيث يشير في قوله : « أما الطبيب الاستعماري بالنسبة إلى المسلمين فكأنما جاء ليداوي علَّة بعلل ... مما جعل الجزائر ــ إذا استثنينا الحواضر ــ بستان المشمش في نظر ابن الرومي . »[1] إلى قول ابن الرومي :

إذا ما رَأَيْــتَ الدَّهْرَ بُسْتَانَ مِشْمِشٍ فَأَيْقِــنْ بِحَقٍّ أنه لَطَــبِيــبُ

يَغِــلُّ لَهُ مَا لا يَغِــلُّ لِــربِّــهِ يَغِلُّ مَرِيضاً حَمَلَ كُلَّ قَضِيبٍ [2]

ويبدو أن الكاتب قد استحضر الحمولة الدلالية للنص الغائب إشاريا ، وذلك بدعوة القارئ إلى العودة إلى الشاعر وإلى قضية من القضايا كان أثارها في شعره مما يسهم في تغذية ذاكرة القارئ وتنشيطها ، ويحفز على امتلاك الأداة المعرفية الضرورية لقراءة الأثر الأدبي وتأويله .

ويتداخل نص الكاتب مع النص الغائب تداخلا جزئيا معتمدا على الامتصاص وإعادة التشكيل وفق منظور نضالي يسمح بتقديم نص جديد . مثل قوله : « أما الأمد فقد طال مائة وعشرين سنة فتناسى أولنا ولم ينس أخيرنا، وما زاد طول العهد إلا تذكرا ويقظة واستمساكا بالحبل على طوله وامتداده »[3]حيث يقتنص الكاتب بعض دوال معلقة النابغة الذبياني ويحدث التماسا بينها وبين نصه المنجز . يقول النابغة في مطلع معلقته :

« يا دار مَيَّةَ بالعلياء فالسَّندِ أقوَتْ وَطالَ عليها سالفُ الأمَدِ »[4]

وما يحيل عليه النص الجديد هو أن الزمن مهما طال مع الاحتلال ، فإنه لا يؤثر على علاقة الشعب بوطنه أو إضعاف صوت الحق والمطالبة به .

ولما بلغت نفسية الكاتب أوج توترها نتيجة فشله في تحقيق بعض مطالبه ، ألفيناه يستدعي شعر عمرو بن كلثوم لأنه يجسد لحظة شعورية متميزة تطابق الحال ، فيقول: « ولا يقعدنا عنها سكوت الساكتين ولا تخذيل المخذّلين ، ولا جهل الجاهلين بقيمتها

---

[1]- محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، م . س ، ص 96 و97

[2]- ابن الرومي ، ديونه - شرح محمد شريف سليم - دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، أغفل التاريخ و الطبعة ، ج . 1 ، ص 513

[3]- محمد البشير الإبراهيمي ، م . ن ، ص 142

[4]- النابغة الذبياني ، ديوانه - شرح وتقديم عباس عبد الستار - دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان 2004 ، ط.1 ، ص 9

وبالآثار السيئة التي غرستها في الأمة . »[1] ويظهر التناص جليا من خلال تشربه لبعض دوال بيت معلقة عمرو بن كلثوم الذي يقول فيه :

ألا لا يَجْهَلَنَّ أَحَــدٌ عَلَيْنَــا فَنَجْهَلُ فَوق جَهْلِ الجاهلينا [2]

وإسقاطها على النص الحاضر لتأكيد تقاطع التجربة الفنية بين الشاعر الجاهلي والكاتب مع اختلاف في الزمان والمكان والحدث .

وحين أراد تصوير حالة الأحزاب الجزائرية وما سادها من خلافات وانقسامات أدت إلى ضعفها وذهاب ريحها أمام المحتل المتربص ، وجد الكاتب في التراث الشعري لأحمد شوقي مادة خصبة لإثراء لغته وملامسة الواقع بكل مرارة وصدق ، إذا يقول:«... و كيف وأنتم مع الخلاف يكفر بعضكم ببعض ، ويلعن بعضكم بعضا.»[3] وهو تداخل قائم على طريقة الامتصاص والاجتزاء لدوال شعر أحمد شوقي في قوله :

« إلامَ الخُلفُ بَيْنَكُمْ إلامَا ؟ وهَذِي الضَّجَّةُ الكُبْرَى عَلامَا ؟[4]

ويبين هذا التداخل النصي الطبيعة الفنية الراقية للنص الغائب الغني بالنماذج الشعرية العالية ، و التي سجلت حضورها المكثف في النص الجديد ، مثيرة دلالات أخرى تحمل بصماتها وأبعادها .

وعلى الجملة فإن ظاهرة تداخل النصوص التي طبعت خطاب الإبراهيمي ، أكدت على تعلق الكاتب بالموروث الشعري العربي قديمه و حديثه ،ومدى إفادته منه من خلال استعماله في علاقات تناصية جعلته حاملا لمعان معاصرة تجسد البعد النضالي الذي شغل حيزا كبيرا من فكره وأدبه ووجدانه ، كما تميزت هذه الظاهرة بتعدد أشكال استحضار النص الشعري ، من استحضاره مباشرة مع ذكر القائل أو دون ذكره في الغالب ، إلى الاستحضار الإشاري أو التلميحي الذي يعتمد على معرفة المتلقي ومدى اتساع ثقافته ، ذلك أن المعرفة هي أساس القراءة والتأويل .

1- محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، م . س ، ص158

2 – عمرو بن كلثوم ، ديوانه - تح : رحاب عكاوي – دار الفكر العربي ، بيروت 1996 ، ط.1 ، ص 85

3- محمد البشير الإبراهيمي ، م ، ن ، ص67

4 – أحمد شوقي ، ديوانه ، م . س ، ص 221

خاتمة

الخاتمـــــــــــــة:

تتبع هذا البحث أهم القضايا التي تناولها خطاب الإبراهيمي، و كشف عن الروافد التي تغذى منها هذا الخطاب، و بيّن حدود ومجالات توظيفها في إطار أدب المقاومة الوطنية. ولعله من المفيد أن نجمل النتائج التي توصلنا إليها في ختام هذا البحث و هي :

أولا : يمثل خطاب الإبراهيمي طليعة الأدب القومي المناضل في الجزائر ، ويؤسس لشرعية مقاوماتية تأخذ على عاتقها مقاومة المحتل الفرنسي ، و تسعى جاهدة من أجل تكريس الحرية و حقوق الإنسان في الواقع .

ثانيا: إن القيمة الحقيقية لكتابات الإبراهيمي لا تتجلى في مضامينها الفكرية فقط ، و إنما لما تتضمنه من غنى و تنوع في الظواهر الأدبية أيضا ، فهي تجمع بين الفكرة الإصلاحية في المضمون ، و بين الجمال الأدبي في التعبير .

ثالثا: يصدر خطاب الإبراهيمي عن فلسفة إصلاحية شاملة، تقدم التربية كإستراتيجية ذات أولوية، و تعتبرها أسلوبا نقيضا للاستعمار و مشاريعه الدنيئة.

رابعا: إن جوهر الدراسة الأدبية في هذه الكتابات هو استثمار لتلك الثنائية: الهدم / البناء أي هدم ما خلفه المحتل الفرنسي في عقول و نفوس الجزائريين من ضعف و هوان ، و هزيمة ، و استسلام ، و بناء جيل من الشباب، مثقف، متشبع بالقيم الوطنية ، قادر على تحمل المسؤولية على أكمل وجه ، و السير بالشعب في طريق النهوض .

خامسا : مثل أدب الإبراهيمي ثورة على الجمود والتقليد في المجال الديني . فقد حارب الدجل، وعمل على تنمية ملكة الابتكار و الاجتهاد و الاستقلال في الفكر و الاستدلال، ودعا إلى إحياء معالم الحضارة الإسلامية حتى تنهض الأمة نهضة أصيلة تسترجع بها عافيتها.

سادسا: شكلت قضية اللغة العربية ظلا واسعا في مقال الإبراهيمي ، نظرا لأهميتها ، فهي عنوان الهوية ، و وعاء الفكر ، و أداة التواصل ، ولسان الدين الحنيف ، بقرآنه وسنته ، و تراثه و حضارته . ثم إن الانطلاقة الحضارية الجديدة لا تبدأ إلا حينما تتوفر في المجتمع ثقافة عربية إسلامية ، تدفع المجتمع الجزائري نحو التغييرالشامل والمنشود .

سابعا : و في ما يخص التداخلات النصية ، نجد أن النص اللاحق يحاكي نصوصا سابقة كمثال يحتذيه ، و ينسج على منواله . و لعل أهم ما يجمع هذه النصوص هو :

1- محاكاة اللاحق للسابق و تقليده .

2- الرغبة في التجاوز و إظهار التفوق على السابق .

3- اتباع طريقة الحوار التي لا تستسلم للنص، و إنما تحاوره و تقلده.

4- اللعب الفني مع النصوص الأخرى السابقة .

ثامنا : يميل الكاتب إلى استحضار الحمولة الدلالية للنص الغائب إشاريا و ذلك بغرض :

أ- دعوة القارئ إلى العودة إلى التراث العربي النثري و الشعري.

ب- إسهامه إلى التعريف بالتراث و رواج نتاجه .

تاسعا : معظم التناصات جاءت قرآنية / دينية تجعل من التراث معالم من معلم مقال الإبراهيمي ، فهو ينطلق منه في تناول القضايا الوطنية و القومية .

عاشرا: يعتمد التناص في مقال الإبراهيمي على قوة ذاكرة القارئ القرائية من حيث أن الكاتب لايشير إلى الجزء المنسوخ، بل على القارئ أن يدركه من خلال دلالة هذا الجزء. لذا فإن القارئ العادي لا يستطيع الوقوف على دلالة الخطاب إذا لم يكن معدا إعدادا ثقافيا دقيقا و عميقا في شتى حقول المعرفة.

هذا ، و سيظل أدب المقاومة الوطنية في كتابات الإبراهيمي ، يمثل تجربة فنية جديرة بالتأمل والدراسة ، غير أنه لا تزال جوانب عديدة فيه لم تطرق بعد حتى الآن ، ولعل هذا البحث يتناول جانبا هاما منها ، نرجو أن يكتمل بجهود أخرى مستقبلا إنشاء الله.

مكتبة البحث

قائمة المصادر المراجع

01- القرآن الكريم (ورش)

02 – الإبراهيمي محمد ، آثار محمد البشير الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلمي ، ط.1، بيروت 1997.

03- ابن خلدون عبد الرحمان ، المقدمة – ضبط وشرح و تقديم: محمد الاسكندري – دار الكتاب العربي ، بيروت 2004.

04- ابن نبي مالك شروط النهضة ، دار الفكر ، الجزائر(بدون تاريخ) .

05- ابن منظور محمد بن مكرم ، لسان العرب ، دار الأحياء العربي، ط.1 ، بيروت1988 .

06- ابن العقون عبد الرحمان ، مذكراتي ، دار النشر دحلب، الجزائر2000 .

07- إبن الرومي ، ديوانه – شرح محمد شريف سليم – دار الإحياء للتراث العربي،بيروت،(أغفل التاريخ و الطبعة).

08- ابن رشيق أبو العلي حسن ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه و نقده – تح : عبد الحميد هنداوي – المكتبة العصرية ، ط.1 ، بيروت (بدون تاريخ) .

09- أبو تمام ، ديوانه ، الشركة اللبنانية للكتاب ، بيروت .1969

10- الأخضر لطيفة ، الإسلام الطرقي – دراسة في موقعه من المجتمع ومن القضية الوطنية – دار سراس، تونس .1993

11- آل خليفة محمد العيد ، الديوان، المؤسسة الوطنية للكتاب ،ط.3 ، الجزائر 1992.

12- الأصبهاني أبو الفرج ، الأغاني ، دار الثقافة، ط.6 ، بيروت 1983.

13- أمين أحمد ، زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، دار الكتاب العربي ،بيروت (بدون تاريخ).

14- امرؤ القيس ،ديوانه ،ش.و.ت، الجزائر 1974.

15- الأنصاري بن هشام شذور الذهب في معرفة كلام العرب - تح: حنا الفاخوري- دار الجيل ط.، بيروت 1988 .

16- بركات حليم المجتمع العربي المعاصر – بحث اصطلاعي اجتماعي – مركز دراسات الوحدة العربية ،ط.3،بيروت 1986.
17-البستاني بطرس ، أدب العرب في الأندلس وعصر الانبعاث، دار مارون عبود، بيروت .1989
18- البهي محمد، الدين و الحضارة الإنسانية ، دار الفكر،ط.2 ،بروت 1974.
19- جرير ديوانه ، تح : نعمان محمد أمين طه ،دار المعارف ، مصر(بدون تاريخ).
20- الجرجاني ، عبد القاهر، دلائل الإعجاز في علم المعاني - تص : محمد رشيد رضا – دار الكتاب العلمية ، ط.1،بيروت (بدون تاريخ).
21- الجمالي محمد فاضل، نحو تجديد البناء التربوي في العالم الإسلامي ، الدار التونسية للنشر ، تونس 1984 .
22- الحاوي إليا ،أحمد شوقي أمير الشعراء ، دار الكتاب اللبناني ، ط.2 ، بيروت 1980 .
23- حسين طه ، نقد و خصام ، دار العلم للملايين ،ط.13 ، بيروت.1987
24- حسنين محمد ، الاستعمار الفرنسي ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط.4 ، الجزائر 1986.
25- حماني أحمد ، الصراع بين السنة و البدعة ، دار البعث للطباعة و النشر، ط.1، قسنطينة .1984
26- خرفي صالح ، المدخل إلى الأدب الجزائري الحديث ، ش.و.ن.ت، الجزائر 1983.
27- الخطيب أحمد ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1985 .
28- الخطيب سليمان ، أسس مفهوم الحضارة في الإسلام ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر (بدون تاريخ).
29- خلدون بشير ، الحركة النقدية على أيام ابن رشيق المسيلي ، ش.و.ن.ت، الجزائر 1981

30- خير الدين محمد، مذكراتي ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر(بدون تاريخ).
31- رابح تركي ، الشيخ عبد الحميد بن باديس – رائد الإصلاح و التربية في الجزائر- المؤسسة الوطنية للكتاب، ط.4 ،الجزائر .1984
32- رابح تركي ، النظريات التربوية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر .1982
33- رابح تركي، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين التاريخية (1931/1956) المؤسس الوطنية للفنون المطبعية ،ط.1 ،الجزائر 2004 .
34- رابح تركي ، التعليم القومي و الشخصية الجزائرية ،ش.و.ن.ت،ط.2،الجزائر 1981.
35- الرافعي مصطفى صادق ، وحي القلم ، دار الكتاب العربي، بيروت (بدون تاريخ).
36- الركيبي عبد الله ،تطور النثر الجزائري الحديث (1930/1974) ط.3،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر .1983
37- الزمخشري ،أساس البلاغة –تح : عبد الرحيم حمود ، دار المعرفة بيروت (بدون تاريخ) .
38- السحمراني أسعد الاستبداد و الاستعمار و طرق مواجهتهما عند الكواكبي و الإبراهيمي ، دار النفائس ط.1،بيروت .1984
39- السد نور الدين ، الأسلوبية وتحليل الخطاب – دراسة في النقد العربي الحديث ، دار هوما للطباعة و النشر و التوزيع ، الجزائر 1997.
40- سعد الله أبو القاسم ، أفكار جامحة ،المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر .1988
41- شرف عبد العزيز ، أدب المقالة ،من المعاصرة إلى الأصالة – دراسة و نماذج – دار الجيل ، بيروت .2000
42- شوقي أحمد ،ديوانه ، دار الكتاب العربي بيروت (أغفل التاريخ و الطبعة).
43- الطباع فاروق ،مواقف في الأدب الأموي ، دار القلم ، ط.1، بيروت .1991
44- الطمّار محمد ، تاريخ الأدب الجزائري ، ش.و.ن.ت، الجزائر (بدون تاريخ) .
45- عباس إحسان ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ،دار الثقافة بيروت .1986

46- عباس محمد ، البشير أديبا ، ديوان المطبوعات الجامعية ، المطبعة الجهوية بوهران (بدون تاريخ) .
47- العشماوي محمد زكي ، دراسات في النقد المسرحي و الأدب المقارن ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت .1983
48- العقاد عباس ، دراسات في المذاهب الأدبية و الاجتماعية ،المكتبة العصرية، بيروت (بدون تاريخ) .
49- فروخ عمر ،تاريخ الأدب العربي ،دار العلم للملايين، ط.1 ، بيروت .1981
50- الفرزدق ، ديوانه ،دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت.1980
51- قمحة مفيد ، شرح المعلقات العشر ، دار مكتبة الهلال ، بيروت .2003
52- كعب بن زهير ،ديوانه – تح : أبي سعد بن عبد الله العسكري ، دار القومية للطباعة و النشر ، القاهرة .1985
53- ماضي علي، فلسفة التربية والحرية ، دار المسيرة ، ط.1، بيروت .1979
54- مبارك جمال، التناص و جمالياته في الشعر الجزائري المعاصر ، دار هومة، الجزائر (بدون تاريخ) .
55- المتنبي ، ديوانه – شرح البرقوقي – دار الكتاب العربي ، بيروت .1980
56- محي الدين بن عربي ، تفسير القرآن الكريم – تح : مصطفى غالب – دار الأندلس للطباعة والنشر، ط.3 ، بيروت .1981
57- محفوظ محمد ، الحضور و المثاقفة – المثقف العربي و تحديات العولمة – المركز الثقافي العربي ، ط.1، الدار البيضاء .2000
58 – مدكور إبراهيم ، في الفلسفة الإسلامية – منهج و تطبيقه – دار المعارف، ط.3،القاهرة (بدون تاريخ).
59- مرتاض عبد الملك، فنون النثر الأدبي في الجزائر(1954/1931)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر .1983
60- مرتاض عبد الملك ،نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر(1954/1925) ش.و.ن.ت، ط.2 ، الجزائر .1983

61- مرتاض عبد الملك ، أدب المقاومة الوطنية في الجزائر (1962/1830) ، دار هومة ، الجزائر 2003 .

62- مرتاض عبد الملك ، الكتابة من موقع العدم – مساءلات حول نظرية الكتابة – دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران 2003.

63- مرتاض عبد الملك ، السبع المعلقات ، منشورات إتحاد كتاب العرب ، دمشق 1998.

64- مرتاض عبد الملك ، نظرية القراءة – تأسيس للنظرية العامة للقراءة الأدبية – دار الغرب للنشر و التوزيع ، وهران .2003

65- مسلم ، صحيح مسلم ، تح : عصام الصبابطي و غيره ، دار الحديث ، ط.4، القاهرة .2001

66- مصايف محمد ، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،ط.2، الجزائر 1984 .

67- مصايف محمد ،فصول في النقد الأدبي الجزائري الحديث ، ش.و.ن.ت،ط.2، الجزائر 1981.

68- مفتاح محمد ،التشابه و الاختلاف - نحو منهجية شمولية – المركز الثقافي العربي ،ط.1، الدار البيضاء .1996

69- مفتاح محمد ، المفاهيم معالم – نحو تأويل واقعي – المركز الثقافي العربي ، ط.1، الدار البيضاء .1999

70- مفتاح محمد ، تحليل الخطاب الشعري – استراتيجية التناص - المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء .2005

71- مهداوي محمد ،البشير الإبراهيمي ، نضاله وأدبه ، دار الفكر بدمشق ،ط.1، سوريا .1988

72- الميداني ، أحمد بن محمد، مجمع الأمثال ،دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر،ط.2،بيروت(بدون تاريخ) .

73- ناصف محمد ، تأملات في التربية و التعليم ، الشركة التونسية للتوزيع ، تونس 1984.

74- الناضوري رشيد ، المغرب العربي الكبير – العصور القديمة- دار النهضة العربية ، بيروت .1981

75- الهاشمي أحمد ، جواهر البلاغة ،مؤسسة المختار للنشر و التوزيع ، ط.2، القاهرة .2002

76- هلال غنيمي ، النقد الأدبي الحديث ، دار العودة ، ط.1، بيروت .1982

77- وعلي محمد الطاهر ، التعليم التبشيري في الجزائر(1904/1930) ، مطبعة دحلب ،الجزائر (بدون تاريخ) .

78- يقطين سعيد ، انفتاح النص الروائي – النص و السياق- المركز الثقافي العربي، ط.2، المغرب 2001.

الدوريـــــــــات

01- حسين قحام ، ملتقى علم النص ، مجلة اللغة العربية و الأدب ، العدد 12 ، جامعة الجزائر ، ديسمبر 1997.

02- عبد الله ركيبي، الخطابة في النثر الجزائري الحديث، مجلة الأصالة، العدد 25، جامعة الجزائر، جوان 1975.

03- عبد الرحمان بو درع ، مجلة الموقف ، العدد 5- 6 ، المغرب مار 1988.

04- شكري فيصل ، قضايا الفكر في آثار الإبراهيمي ، مجلة الثقافة ، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية العدد 87، الجزائر ماي 1985.

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

- مقدمـــــــة .....(أ- ث)

الفصـــــل الأول

المقالة 01

أولا : المقالة الدينية 01

1- الدفاع عن الإسلام 02

2- إحياء اللغة العربية 03

3- النزعة الوطنية 03

- الطرقية 04

- التبشير 11

ثانيا : المقالة الاجتماعية 19

1- التربية والتعليم 19

2- قضايا أخرى 28

ثالثا : المقالة السياسية 36

1- حوادث 8 ماي 1945 39

2- السياسة و السياسيون 44

3- التجنيس و الاندماج 48

4- الديمقراطية 50

رابعا : الخصائص الفنية للمقالة عند الإبراهيمي 52

1- السخرية 53

2- النزعة التعليمية 55

3- قسوة الخطاب و حدته 56

4- أسلوب المقارنة 56

5- الاقتباس و التضمين 57

الفصـــــل الثاني

الخطابة.....62
أولا : الخطابة الدينية.....65
ثانيا : الخطابة الثقافية.....77
ثالثا : الخطابة السياسية.....92
رابعا : الخصائص الفنية للخطابة عند الإبراهيمي.....105
1- الارتجال.....106
2- الحماس.....106
3- الخروج عن المألوف.....108
4- الاقتباس.....108
أ- القرآن الكريم الشريف.....108
ب- الشعر.....110
5- الإطناب و التكرار.....112
6- الاعتناء باللفظ.....113

الفصـــــل الثالث

تجليات التناص في مقال الإبراهيمي.....117
أولا : التناص في النقد العربي القديم.....120
1- الوضع اللغوي.....120
2- التداخل النصي في المصطلح العربي القديم.....122
أ - الاقتباس.....122
ب- التضمين.....124
ج- المناقضة.....125
د- المعارضة.....126
هـ- السرقات.....127
3 – السرقات في النقد العربي القديم.....129

ثانيا : التناص في النقد المعاصر. 131
1- نشأة المصطلح 131
2- التناص في النقد الغربي المعاصر 133
3- التناص في النقد العربي المعاصر 137
أ- المناصّة 138
ب-التناص 139
ج- الميتانصية 139
4- تجليات التناص في مقال الإبراهيمي 143
أ- التناص القرآني 143
ب- التناص الحديثي 149
ج- التناص الشعري 153
- خاتمـــــــــة 159
- مكتبة البحـث 162
- فهرس الموضوعات 170

الملخص:

تتناول هذه الرسالة الجانب الأدبي المقاومتي في كتابات البشير الإبراهيمي، و تحاول الكشف عن التعامل الفني مع التراث الأدبي قديمة و حديثه، و ذلك باستخدام أدوات النقد الحديث. و اقتصدت خطة البحث أن يقسم الموضوع إلى ثلاثة فصول و خاتمة، تناول الفصل الأول تطور المقالة، و جهود الإبراهيمي فيها، مع عرض لأهم القضايا التي ميزتها. و في الفصل الثاني تم التطرق إلى الخطابة و دور الإبراهيمي في النهوض بها و استعمالها كأداة للتغير الشامل للواقع القائم على عهد الإحتلال الفرنسي. أما الفصل الثالث و الأخير، فقد كان مجاله تطبيقها، حيث تعرض إلى أثر التناص في مقال الإبراهيمي. في حين اشتملت الخاتمة على أهم النتائج التي توصل إليها البحث.

الكلمات المفتاحية :
أدب المقاومة؛ النزعة الوطنية؛ المقالة؛ اللغة العربية؛ الخصائص الفنية؛ الخطابة؛ الإرتجال؛ الإقتباس؛ السرقات الأدبية؛ التناص.